سلسلة
دراسات
إفريقية

٣

موجز تاريخ إفريقية

تأليف : رولاند أوليفر
و جون فيج

ترجمة : الدكتورة دولت أحمد صادق

مراجعة : الدكتور محمد السيد غلاب



الدار المصرية للتأليف والترجمة

موجز تاريخ إفريقية

تأليف: رولاند أوليفر
و جون فيج

ترجمة: الدكتورة دولت أحمد صادق

مراجعة: الدكتور محمد السيد غلاب

الدار المصرية للتأليف والترجمة

مقدمة المحرر

غير القرن العشرون — بحروبه وثوراته — ميزان القوى فى العالم ، فلقد مر على دول أوروبا المزدهرة خمسة قرون ، وهى تمتد عبر البحار ، وتنشئ المستعمرات ، وتستولى على المواد الخام وتستحوذ على الأسواق ، تغير حضارات بأكملها أو تحطمها ، وكانت خلال هذا العصر مركز الإشعاع فى العالم . وكانت ترى التاريخ من حيث كونها مؤثرة فيه ، وليس فى وضعه الحقيقى ، عملية تكون هى نفسها أحد أجزائها . فسادت أوروبا ، بفضل سيطرتها على البحار ، وقوتها الفنية العلمية ، ونموها الصناعى ، المدنية الغربية — أو كما تسمى أيضاً المسيحية — وجعلت لها السيادة والتفوق .

ثم تغير ميزان القوى . فاستعارت اليابان الفن والصناعة ، وأصبحت أول دولة امبريالية خارج نطاق أوروبا ، بعد أن انبعث الإسلام من قلب الصحراء منذ أكثر من ألف عام . وتخلصت أجزاء شاسعة من إفريقية وآسيا من سلطان أوروبا السياسى خلال سبعين عاماً فقط ، واشتركت بكين ونيودلهى والقاهرة مع لندن وباريس ولشبونه ونيويورك كمدن دولية .

ومع تغير مركز الثقل السياسى ، تغير مجرى التاريخ كذلك . ولقد كان لآسيا دائماً تاريخها الخاص المستقل عن التدخل الأوروبى . إلا أن إفريقية كانت دائماً قارة مظلمة ، لم يضئ جنباتها إلا التدخل الأجنبى . ولم يعد الأمر كذلك الآن ، فالتغير السياسى قد أزال الغشاوة القديمة ، التى لم تكن ترى العالم إلا دائراً فى فلك أوروبا . وأماط البحث النقاب عن مدنيات لم يكن لأوروبا لها من سبيل ، ولم يكن لها بها من حلم .

فلقد كان لإفريقية تاريخها الثرى ، قبل أن تغزوها أوروبا ، وغير ما سجله الفتح والاستعمار الأوروبى . إن عصر السيطرة الأوروبية قصير ، بل هو لا يقع إلا فى هامش التاريخ الإنسانى . أما قبل ذلك بكثير ، فى عهد تطور الإنسان نفسه ، كانت إفريقية تسهم فى تشكيل التاريخ . وبينما كانت مراكز الحضارة الأوروبية تزدهر وتضمحل ثم تنتشر مرة أخرى ، كانت هناك إمبراطوريات تقوم وتحكم وتقاوم وتنهزم فى إفريقية أيضاً ، وكان هناك علماء يدرسون ويتجادلون فى تمبكتو كما كان هناك علماء فى باريس ، ووصل الفنانون إلى روائع الفن فى البرونز فى بنين ، كما وصل الفنانون إلى روائعه بالأصباغ فى إيطاليا . وقد اختلفت الثقافات فى كل ، ولكنه اختلاف أفقى ـ مكانى ، أما الاختلاف الرأسى ، بين ما هو أعلى وما هو أدنى ، فقد قرره الغزو .

ولقد ظهر الكثير من ماضى إفريقية ، وأزيحت عنه غمائم الجهالة وطهر من الأخطاء . غير أن دراسة التاريخ الإفريقى لم تكد تبدأ بعد ، والذين يبدأون تلك الدراسة رواد تراث إنسانى مجهول . وإن كشوفهم فى هذا الميدان لا يهم الواقع الإفريقى فحسب ، بل هو إثراء للإنسانية فى كل مكان .

رونالد سيجال

تقديم الترجمة

إفريقية الجديدة هى قارة المستقبل ، قارة الثروات الخبيئة والإمكانات الواسعة ، التى لم تستغل بعد ، لم تعد القارة المظلمة كما كان ينعتها بعض الكتاب فى الغرب من قبل ، بل هى قارة الأمل المضىء ، لسكانها وللعالم أجمع ، وربما سميت بالقارة المظلمة ، لأنها كانت غامضة عليهم ، فالظلمة بهذا المعنى هى ظلمة الجهل الذى خيم على الأذهان حيناً من الدهر ، حتى بدأت الكشوف الجغرافية تتوغل فى القارة ، والبحوث الأثرية تنفض الثرى عن آثار مدنيات وحضارات قديمة فى إفريقية المدارية والجنوبية ، وبدأت البحوث الجيولوجية والمعدنية والزراعية والبيطرية ، حتى تجمع لدى العالم الغربى حصيلة وفيرة ، تضم إلى ما نقشه الفراعنة فى جدران معابدهم ، وما سطره بطليموس وبلينى فى كتاباتهم ، وما أذاعه ابن بطوطه من أخبار رحلاته فى السودان الغربى ، وما نقله ليو الإفريقى فى روما فى أوائل عصر النهضة ، وما كتبه الرحالة الغربيون فى أنحاء إفريقية المختلفة ، كل هذه الحصيلة ألقت أضواء باهرة على جوانب من جغرافية القارة وتاريخها وشعوبها وعاداتهم وتقاليدهم ونظم حكمهم . فلم تعد إفريقية بذلك قارة مظلمة ، بل أضاء العلم جنبات القارة ، وتوغل ضوؤه من سواحلها الشمالية ، مع النيل من مصر نحو الجنوب ، وعبر الصحراء الكبرى ، من المغرب إلى ما يسمى ببلاد السودان .

وعلى النقيض من الغموض الكثيف الذى أحاط بالقارة جنوبى الصحراء الكبرى حتى الحرب العالمية الأولى ، ومن نتف الأخبار والتحقيقات والبحوث التى بدأت تتسرب على يد المستعمرين فيما بين الحربين ، بدأت البحوث والنشرات والكتب والمقالات تؤلف فى نواحى المعرفة المختلفة عن القارة بعد

الحرب العالمية الثانية ، ويبدو أن ريح الاستقلال التى هبت من شمال القارة ومن آسيا قوية والتى وصلت إلى القارة جنوبى الصحراء ، واقتناع الغرب بأنه لا مفر من ترك الإمبراطورية الاحتياطية فى إفريقية ، أقنعتهم بألا داعى مطلقاً للاحتفاظ بأسرار القارة حكراً لهم ، فبدأوا ينشرون ما جمعوا من تراث ومعرفة عن إفريقية خلال قرن من الزمن تقريباً .

وهذا الكتاب الذى نقدمه لقراء العربية هو نتيجة بحوث طويلة قام بها المؤلفان عن تاريخ إفريقية ، وقد عمل كل من المؤلفين فى الحقل الإفريقى ، وسافر وارتحل — ليس بالطائرات — ولكن بالسيارات والطرق البرية الأخرى فى أجزاء عديدة من القارة .

وإذا كنا فى الوطن العربى لا نجهل تاريخنا ، فإننا لا بد وأن نعترف بأن الاستعمار الغربى قد حال بيننا وبين إفريقية حقبة من الزمن . برغم أن اتصالنا بإفريقية عبر الصحراء الكبرى لم ينقطع قط .

وفى هذا الكتاب كثير من الصدق والحيدة العلمية وهو يتحدث عن تاريخ إفريقية القديم ، بل والوسيط ، وعن دور مصر والعرب والإسلام فى تاريخ القارة . إلا أن المؤلفين لم ينسيا أنهما أوروبيان ، عندما تحدثا عن الاستعمار ، وعن التكالب الأوروبى على جسم القارة ، نهشاً وتقطيعاً . فهما يحاولان أن يخففا من حدة هذا الاستعمار ، بالرجوع إلى المثل المسيحية ، التى تمثلها الكنائس المسيحية ، التى أرسلت بعثاتها التبشيرية منذ بدء الكشف الجغرافى لإفريقية ، لكى تنشر المسيحية بين القبائل الوثنية ، ومع تقديرنا واحترامنا لجهود البعثات التبشيرية المسيحية ، إلا أننا لا نستطيع أن ننفى عنها تماماً تهمة تمهيدها للاستعمار التجارى والعسكرى للقارة ، ويقول المؤلفان نفسهما إن زعماء القبائل عندما كانوا بعيدى النظر ، استمعوا إلى « مشورة » المبشرين المسيحيين ، وهادنوا الحكومات الاستعمارية ، وعندما جانبهم الصواب وركبوا رؤوسهم لم يستمعوا إلى هذه « المشورة » ويذكرنا هذا

بما كتبه سردار بانيكار عن آسيا والسيطرة الغربية ، ودور المبشرين فى هذه القارة ، بل وموقف القوميات الصينية واليابانية والهندية منها ، فالصين واليابان رفضت المسيحية لأنها جاءتهم فى سفن حربية ذات مدافع ، وارتبط فى ذهنهم الدين بالقومية . كما يذكرنا بما قاله كمبل عن لسان الإفريقيين فى جنوبى القارة ، من أن الرجل الأبيض عندما جاء إلى إفريقية كان يحمل الكتاب المقدس وكان الإفريقى يمتلك الأرض وما لبث الحال أن تغير ، فقد أعطى الكتاب المقدس للإفريقى وأخذ هو منه الأرض . ولا نستطيع أن ننسى ما يحدث فى جنوب السودان الآن ، مما اضطر الحكومة الوطنية السودانية إلى طرد جميع المبشرين .

غير أنه مما لا شك فيه أن المثقفين الإفريقيين الآن فى إفريقية المدارية قد اعتنقوا المسيحية ، وتعلموا على يد رجال البعثات التبشيرية . كما أن الإسلام هو دين المدنية القادمة من شمال إفريقية مع النيل جنوباً ، أو عبر الصحراء ، ومن سواحل الجزيرة العربية إلى ساحل إفريقية الشرقى ، متوغلا حتى هضبة البحيرات .

ولا مجال هنا للموازنة بين أثر الإسلام والمسيحية فى إفريقية المدارية ، وإن كانت موضوعاً يستحق الدراسة فى حيدة تامة وبروح علمية .

وينتقل الكتاب من تاريخ إفريقية القديم إلى تاريخها الحديث ، مع الاستعمار الأوروبى بصوره المختلفة ، فلقد جاء الأوروبى إلى إفريقية نخاساً يخطف النساء والأطفال والشبان ليبيعهم فى أسواق العالم الجديد عبر المحيط الأطلنطى ، ثم مكتشفاً ، يحمل الكتاب المقدس ويبشر بالمسيحية ، ثم تاجراً يجمع العاج أو الذهب الأبيض ، والرقيق أو العاج الأسود ، ثم جندياً فاتحاً وحاكماً استعمارياً ، يحمل السوط ويسخر الإفريقى فى زراعة محاصيل لا يؤمن بجدواها ، فلما عصاه ، اتهمه بالكسل والركون إلى الدعة والراحة ، وأجبره على العمل بفرض ضريبة مخزية ، هى ضريبة الرأس ، فقاومه الإفريقى ،

بقدر ما تستطيع الحربة والسهام أن تقاوم المدفع والقذيفة النارية ، ولكن روح المقاومة لم تمت ، روح المقاومة التى شب أوارها ما يقرب من مائة عام فى جنوب إفريقية ، والتى كانت تختفى لكى تظهر مرة أخرى فى النطاق السودانى ، والثورة التى شبت فى كينيا وتنجانيقا قبل الحرب العالمية الأولى ، كل هذا يمثل روح المقاومة الإفريقية الأصلية ، هذا إلى جانب مقاومة القومية العربية فى شمال القارة .

ولم يكد الأوروبى يبدأ فى استغلال القارة ، حتى هبت ريح الاستقلال كما قلنا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان من أهم أسبابها ، انبعاث القومية العربية فى مصر وشمال إفريقية ، والقوميات الآسيوية فى آسيا ، وتحطم الإله الأبيض على يد اليابان فى جزر أندونيسيا وغيرها ، وسريان الروح الاشتراكية وقوة المعسكر الشرقى بزعامة الاتحاد السوفيتى .

وإذا كان قادة إفريقية المدارية قد تدفقوا فى لندن وباريس وغيرها من عواصم غرب أوروبا ، فإنهم قد تأثروا بالحركات الوطنية فى آسيا والقومية العربية ، كما تأثروا بالمبادئ الاشتراكية .

ولنا أن ننتظر ماذا يفعل الإفريقيون بالاستقلال ، وإن كانت الأدلة كلها تشير إلى اتجاه قوى نحو الثورة الاجتماعية التى تكتمل بها الثورة السياسية . فلا تزال إفريقية المدارية دون مستوى كثير من دول العالم الفقيرة الأخرى ، ولا تزال القارة تشكو تفشى الأمراض الوبائية وقسوة المناخ المدارى ، وندرة السكان ، وهذه قصة أخرى تقرؤها فى كتاب آخر .

هذا الكتاب يقدم ملخصاً مفيداً لتاريخ إفريقية ، وينتهى بعرض ناقد لأهم المراجع لمن شاء أن يستزيد .

محمد السيد غلاب

— ١ —

الصيـــادون

لا تزال الفكرة الخاطئة التى ترددت قديماً عن إفريقية هى نفس الفكرة التى تتردد عنها الآن . ولم تكن هذه سوى مجرد وهم خاطئ بأن هذه القارة هى « القارة المظلمة » ولقد وجدت هذه الفكرة الأوروبية المحدودة رواجاً ، فى الوقت الذى كانت فيه إفريقية بالفعل أبعد القارات تطلعاً إلى العـــالم الخارجى — ولأنها كانت آخرها تعرضاً لتجارب الأوروبيين وأفكارهم وفنونهم التى ميزت ملامح تاريخ العالم فى الفترة ما بين القرنين السادس عشر وأوائل العشرين . ومهما يكن من أمر ، فإن إفريقية لم تكن أكثر القارات تخلفاً فى بداية هذه الفترة الحديثة من التاريخ . فالاستراليون على سبيل المثال — حينما كان الكشف الأوروبى بعيداً عنهم — كانوا لا يزالون يعيشون كصيادين وجماعين ، كما كانوا يستخدمون الآلات الحجرية التى تقابل مخلفات حضارات العصر الحجرى الوسيط والتى خلفها معظم الأوروبيين والإفريقيين وراءهم منذ قرابة ثلاثة إلى ستة آلاف سنة من قبل . وكذلك كان معظم هنود القرن السادس عشر الأمريكيين — زراع العصر الحجرى الحديث — يستخدمون الآلات الحجرية المصقولة . ولم تكن هناك سوى فئة ضئيلة منهم فقط هى التى كانت قد بدأت لتوها فى تعلم استخدام المعادن . فى حين كان السواد الأعظم منهم لا يزالون يحيون كجماعين وقناصين خلال العصر الحجرى الوسيط . أما الإفريقيون الذين عاصروا نفس الفترة — مع استثناءات بسيطة — فقد كانوا زراعاً يستخدمون الأدوات الحديدية . وفى ثلث القارة الشمالى كان

معظم الإفريقيين يدينون للحضارة الإسلامية بوجودهم وتقدمهم . وحتى باقى القارة فقد كان معظم الإفريقيين تنتظمهم ممالك ومجتمعات بلغت شأواً كبيراً فى القوة والتقدم ، بحيث كانت تمتلك القدرة على رد جحافل الغزاة والنازحين من وراء البحار على أعقابهم ، حتى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر . حقيقة كان معظم أجزاء هذه القارة يصعب الوصول إليه — كما كان فى نفس الوقت غير صالح لسكنى الإنسان لعدم توفر الشروط الصحية اللازمة لمثل هذه السكنى . إلا أن ذلك لم يكن بدرجة تتفوق عما كانت عليه بناما أو بيرو مثلا . أما السبب الحقيقى الذى حدا بالأوروبيين ألا يتوغلوا إلى داخل القارة واضعين أيديهم وسيطرتهم على مناجم الذهب الموجودة فى غرب إفريقية أو فى روديسيا الجنوبية مثلا — فهو أن الإفريقيين كانوا قد بلغوا فعلا مرحلة — متقدمة من التنظيم — الأمر الذى مكنهم من اكتشاف كنوزهم بأنفسهم محتفظين بذلك بالتجارة البرية فى أيديهم دونسواهم . ولقد تم لهم فى الحقيقة وضع أسس هذا التقدم منذ القرون الأولى مما جعلهم أقدر من غيرهم على الاحتفاظ بمظاهر هذا التقدم حتى العصر الحديث .

والنتيجة بعد هذا هى أن تخلف إفريقية فى العصور التاريخية لم يكن سوى تخلف نسبى ،فهى متخلفة بالنسبة لبعض أجزاء القارتين الأوروبية والآسيوية، تلك الأجزاء هى التى استطاعت أن تقطع شوطاً لا بأس به إلى الأمام فى مضمار التطور البشرى ، أما فى العصور قبل التاريخية أو على الأقل خلال طوال الآلاف من السنين التى استغرقها العصر الحجرى القديم ، فلم تكن إفريقية قارة متخلفة بالنسبة لغيرها ، بل كانت على النقيض من ذلك فى المقدمة . ومع مرور الأيام ازداد علماء الآثار يقيناً بأن الإنسان الأول من ناحية والحيوانات العليا من ناحية أخرى ليسا من فرع واحد . كما أن البقايا المتحجرة لقرد بروكنسل المنتصب القامة ، الذى كان يسكن الكهوف ، والذى يعتبر أقل تخصصاً كما عرفه العلم ، كان قد اكتشفه الدكتور لويس ليكى فى جزيرة « روزنجا » فى أقصى شمال شرق بحيرة فكتوريا،بين الطبقات التى تعود إلى

نحو ٢٥ مليون سنة مضت . واستناداً إلى القضية التي تقول بأن الفرق بين الإنسان وبين الرئيسيات العليا هو أن الإنسان يصنع ويستخدم الآلات فإن قرد بروكنسل ليس إنساناً . فى حين تجزم الإرسابات الطبيعية بأنه من أسلاف الإنسان ، علماً بأنه من المعروف أن أول من صنع الآلات هو الإنسان الزنجى (الإفريقى) Zinjanthropus والذى اكتشفه الدكتور ليكى أيضاً عند مضيق الدوفيا فى شمال تنجانيقا . ومن المرجح أن هذا المخلوق كان يعيش منذ قرابة ٢ مليون سنة مضت . ومن ميزاته الجسمانية أنه صغير الحجم ، يشبه القرد إلى حد ما له قمة عظمية بارزة فوق الجمجمة لتتحمل عضلات فكه الضخم الثقيل وهو أمر ملازم لمثل شكل هذه الجمجمة ويبدو واضحاً أنه قد تعود استخدام أسنانه أكثر من أصابعه ، ومع ذلك فإنه قد اختار قطعاً صغيرة من الحجر والصوان استطاع أن يصقلها بطريقة بدائية للغاية لكى يستخدمها فى أغراضه الخاصة. وبناء على التعريف السابق فإن هذا الأخير يعتبر إنساناً بلا نزاع .

ويجب أن نقف على حقيقة آلاف الأجيال التى نشأت وتطورت وسبقت الصانع الأول للآلات لكى نستطيع أن نفرق بينها وبين الإنسان الحديث الذى يطلق عليه العلماء تسمية « الإنسان العاقل » ولا يهمنا فى هذا الأخير سوى أن مخه أكثر من قوته الجسمانية . فقد استطاعت يداه أن تعمل أكثر من أسنانه . وهناك قليل من الشك فى أن إفريقية بقيت — باستثناء هذه الحلقة المفقودة من سلسلة التطور البشرى — مركزاً للعالم المعمور . فقد عرفت جماعات بدائية فى أندونيسيا والصين إلا أن الأدوات المصنوعة من الصوان لم تكتشف إلا فى داخل إفريقية أو بالقرب منها — وكانت مناطق اكتشافها فى الجزء الشمالى من القارة بين نهر السنغال حتى جنوب فلسطين — تشير إلى أن مركز هذا الانتشار يظهر فى نطاق الحشائش المشجرة بأفريقيا المدارية .

ومنذ قرابة ٣٠٠ ألف سنة حلت محل هذه الأدوات البدائية — تلك الآلات الغريبة ذات الشكل الكمثرى والتى تعرف خطأ باسم « الفأس اليدوية » علماً بأنها تختلف تماماً عن الفأس . ولا يعرف أحد تماماً فيم كانت تستخدم

هذه الأداة . ولقد وصفها الأستاذ « ديسموند كلارك » Desmond Clark بعد بحث مستفيض بأنها ترتبط فى كل استخداماتها بالجلود وفرم اللحم . ولقد وجدت هذه الأداة على طول المسافة ما بين الهند وأسبانيا عرضاً – وما بين إنجلترا ورأس الرجاء الصالح طولا وهى المنطقة التى كانت تمثل العالم المعمور آنذاك – بالإضافة إلى الشرق الأقصى ووسط آسيا التى خلت من هذه الأداة . واستمرت مستعملة زهاء ربع مليون سنة وقد سمى تتابع التكتيك المستخدم فى صناعة هذه الأداة باسم القريتين الفرنسيتين شيل وسان أشول إلا أن أوروبا لم تكن مركزاً لهذه الأداة ، بل ثبت أن تسلسل الحضارة الشيلية والأشولية قد تم فى كل من أوروبا وآسيا وإفريقية بنفس الدرجة . ولا يساور ناسوى قليل من الشك فى أن مركز تطور هذه الحضارة كان فى إفريقية بسيطة . بمعنى أنه يمكن القول بأن هذه الأداة قد وجدت أساساً فى إفريقية دون غيرها من سائر القارات . وتعتبر كلا من أولورجيسيل Olorgesaile التى تبعد عن جنوب نيروبى بأربعين ميلا – وخانق أولدوفى الذى يقع عبر حدود تنجانيقا بجوار منطقة أولورجيسيل ، هما أغنى الأجزاء وأثراها بمخلفات الفأس اليدوية هذه فى إفريقية كلها . ويمكن أن نلاحظ تطور هذه الأداة وكذلك الأدوات المصنوعة من الصوان – كعملية مستمرة واحدة فريدة فى نوعها – فى كل من شرق إفريقية وغربها فى بعض مناطق مراكش .

ومن خلال الحضارات التى تطورت مبتدئة بالأدوات الصوانية البدائية حتى الفأس اليدوية التى ظهرت فى طبقات كاملة من الصخور عند خانق أولدوفى ، والتى تبلغ من العمر نحو مليونى سنة ، لم توجد أى آثار تشير إلى استخدام النار . فقد كان الإنسان يعيش هذه الحقبة من الزمن يصطاد كأى حيوان ضار يجوب الفلاة ، يواجه البرد والعواصف دون أن يعرف معنى الدفء أو الجفاف ، يأكل طعامه نيئاً كأى دابة على الأرض . ولقد تعلم إنسان بكين فى أقصى القارة الآسيوية توليد النيران ليتدفأ بها منذ ٢٠٠ ألف سنة . ولا يبدو أنه استغلها فى طهو الغذاء . أما فى إفريقية وأوروبا فقد وقف

الإنسان على مطالبه الأساسية وعلى أهم مصادر الطاقة الخارجية منذ ٥٠٠ ألف سنة ، أى منذ قبل نهاية العصر الحجرى القديم . وربما كانت الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى نجمت عن هذا أعمق الثورات من نوعها فى التاريخ الإنسانى .

وتبع معرفة الإنسان للنار ، إدراكه لقيمة المأوى . فترك مجمعاته المكشوفة ليلجأ إلى الكهوف تحميه ، وخلف الصخور الناتئة تؤويه . ولقد كان تغير المأوى فى حد ذاته انعكاساً لمرحلة جديدة من مراحل تلاؤمه مع ظروف البيئة الطبيعية . مما نتج عنه تكوين الإطار النهائى الذى ميز كلتا الحضارتين الشيلية والأشولية .

ولقد أظهر الكشف فى القارة الأوروبية نوعاً آخر من الإنسان القديم وهو إنسان نياندرتال . والذى يعتبر القناص الأول الذى سكن الكهوف واستخدم الآلات التى ميزت الحضارة الموستيرية التى ظهرت فى أعقاب هجرة حيوان الماموث والرنة إلى الشمال بتأثير تراجع الجليد ، الذى حدث فى أوائل العصر الجليدى الأول ، منذ حوالى ٣٠ ألف سنة مضت[1]. ولقد كان يقابل مثل هذا التغيير فى الظروف الطبيعية بأوروبا تغير مماثل فى القارة الإفريقية . فقد بدأ عصر الجفاف الشديد الذى سبقه العصر الكانجيرى المطير Kanjeran وأعقبه العصر الجامبلى المطير Gamblian والذى كان يعاصر قمم العصر الجليدى فى الشمال . ولقد كان من نتائج تغير الظروف الطبيعية فى إفريقية على ذلك النحو أن تسلل الإنسان هارباً إلى النطاقات الغابية الكثيفةفى الكنغو وساحل غانا لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل انتشاره ، مستخدماً أداة خشبية خاصة تسمى Sangoan تلك التى ربما استخدمها فى التقاط الديدان وجمع الثمار أما أولئك الذين ظلوا فى المناطق المكشوفة بشمال القارة فقد استخدموا آلات وأدوات أقل تخصصاً من تلك التى سادت فى المناطق الغابية محتفظين

(١) يمكن اعتبار إنسان نياندرتال أكثر الأنواع البشرية القديمة انتشاراً وأكثرها بقاء لأنه عاش فى أواسط البليستوسين واختفى فى نهايته — أى أنه عاش فى نهاية العصر الحجرى القديم الأسفل مع الحيوانات التى تألف البرودة (المترجم) .

بمخلفات الحضارة الشيلية والأشولية العليا ، مظهرين ميلا لاستخدام نوع معين من أنواع الاستقرار الفعلى على ضفاف الأنهار القريبة ، مستحدثين نوعاً جديداً من الأدوات يسمى العاطرية Aterian . وتوجد فى شمال إفريقية والصحراء الكبرى ، وما بين أثيوبيا ورأس الرجاء الصالح جنوباً ، وذلك فى العصر الحجرى الوسيط .

ولقد كان من أهم مميزات حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى اختفاء الفأس اليدوية الثقيلة وما أعقبها من الأدوات العديدة الصغيرة الحجم كالمقاطع والمفاقير[1]والسكاكين والمكاشط ورءوس السهام والقذائف الصغيرة وغيرها ولقد صحب الزيادة والتعقيد الذى طرأ على هذه الأدوات — تدهور فى الأشكال الحجرية واستخداماتها . ومع تطور الفكرة النفعية ، ظهر الاختراع الذى أضاف إلى الأدوات ما استطاع أن يصنعه من الجلود ومن العظام ومن قرون الحيوانات . كما أضاف مواد جديدة أخرى إلى قائمة المواد الخام النباتية اللازمة مثل الألياف والصمغ . ومع وجود أداة المخيط المستخدمة من العظم ، بدأ فن حياكة الملابس . وكذلك تم للرجال وللنساء على السواء استخدام أول مادة دهنية لتحسين البشرة والشعر ، وكذلك أتيحت لهم معرفة الأصباغ واستخدامها فى التجميل وفى التزين بعلامات المغرة الحمراء وذلك لتمييز الذات والتباهى والامتياز ، الأمر الذى نشأت معه فكرة الخير والشر .

وفى غضون هذا العصر الذى ساده نوع من التخصص انعكس على عناصر حضارات فورسميث ، وسانجوان العاطرية[2]، ظهر تخصص فى تطور الإنسان الجسمانى بإفريقية وباقى أنحاء العالم المعمور ووصل إلى نوع الإنسان العاقل . وليس هناك ما يدعو لافتراض قيام حرب نتج عنها وجود نوع من التنافس أو التزاحم بين الأنواع مما أودى بها إلى الفناء الشامل . فلقد تكاثرت

---

(١) جمع مفقار وهو أداة تشبه الأزميل المقعر أو المقور . (المترجم)

(٢) العاطرية اسم حضارة من حضارات العصر الحجرى القديم فى شمال إفريقية — مشتق من اسم مكان . (المترجم)

الأنواع الأولى للإنسان العاقل بصورة سريعة جداً . وتم تفرقها فى أبعاد متزامية ، فتخصص كل نوع منها حسب ظروفه البيئية . ومن أمثلة هذه الأنواع إنسان نياتدرتال .

ولقد صحب ذلك التباعد السريع اختلافات جوهرية بين الأنواع الأولى للإنسان فتميز بعضها عن بعض بصورة واضحة . كما تميزت فى مجموعها عن أسلافها قبل التفرق فى حين كان الإنسان العاقل أقل انتشاراً . فصارت صفاته ومميزاته أكثر رسوخاً ، واتحاداً بين أفراد جنسه . ومهما يكن من أمر فبينما نرى أن جميع أفراد الجنس البشرى – على الأقل فى أيامنا هذه – من النوع العاقل فكل القرائن تدل على أنه منذ ذلك الحين ، عندما أصبح الجنس البشرى كله « عاقلا » ، كان لا بد من اعتبار جميع سلالاته الحديثة مشتقة من نوع واحد[1].

ومن المرجح أن يكون النوع الذى ساد إفريقية فى بداية العصر الحجرى القديم الأعلى من أسلاف البشمن الحالية . ومن المحتمل أن يكون البشمن الأوائل قد سادوا معظم الأجزاء الجافة والمكشوفة من القارة ابتداء من الصحراء الكبرى ، وعبر أثيوبيا وشرق إفريقية ، حتى جنوب القارة . واستطاع الإنسان العاقل فى النطاق الغابى الأوسط من القارة أن يتغلب على السلالات الموجودة والأقل اختلافاً عما هى عليه الآن فى المنطقة ليظهر لنا بوضوح الجنس الزنجى المتميز . ولم يتحقق العلماء حتى الآن عما إذا كان الأقزام الحاليين قد انحدروا من سلالة البشمن[2] أو من المتزنجين . أما بعد ظهور أدلة جديدة

(١) البشمن أى إنسان الأحراج : (Bush) (المؤلف)

(٢) لكى نعين القارئ على فهم هذه الفقرة ، نذكر أن الجنس البشرى Genus Homo – كما أثبتت الحفريات – كان يشمل ثلاثة أنواع species هى :

١ – نوع إنسان جاوه أو الإنسان القرد Pithecanthropus وهو صاحب حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل .

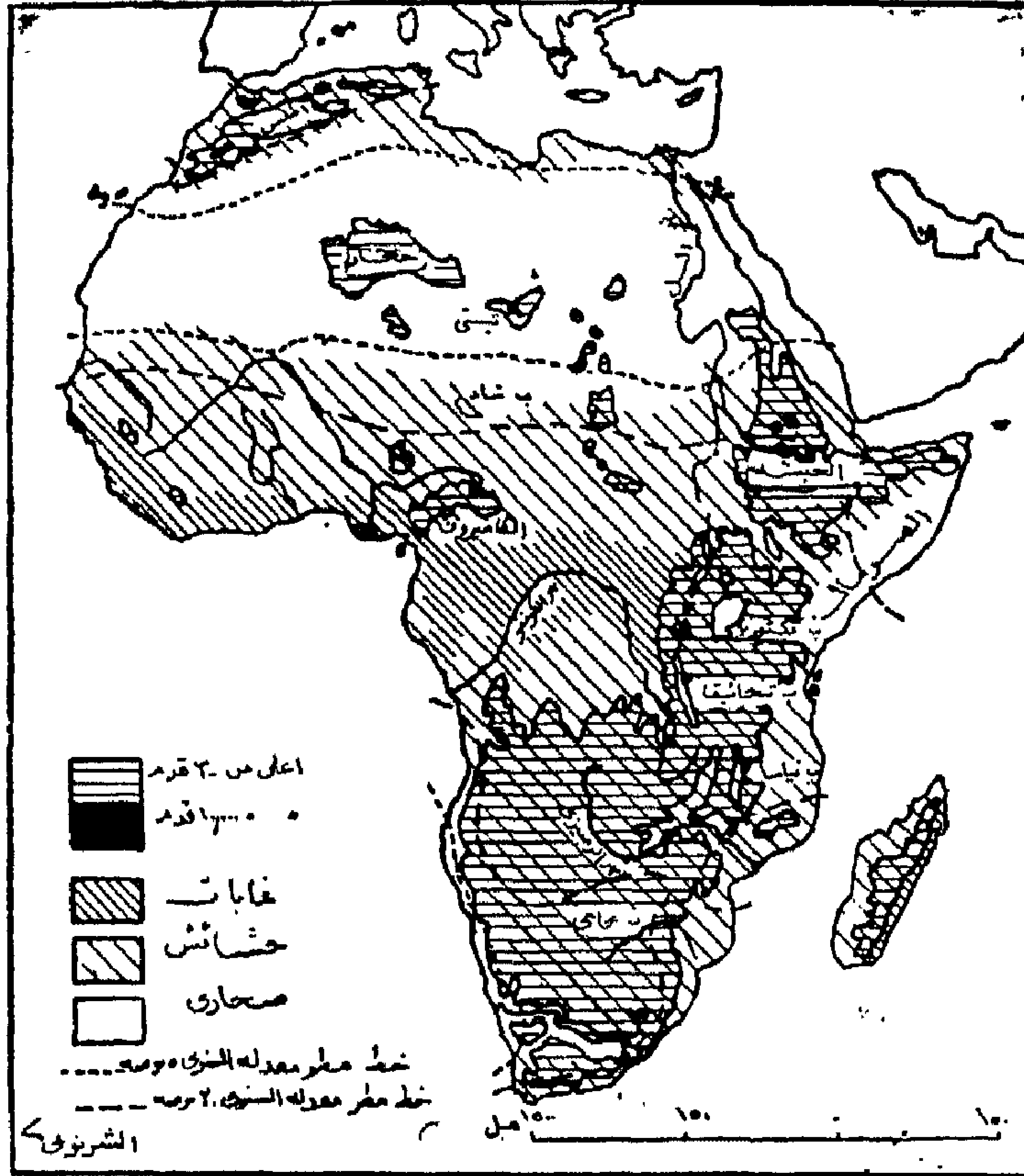
٢ – نوع إنسان نياندرتال وهو صاحب حضارة العصر الحجرى القديم الأوسط .

٣ – النوع الحالى الذى اصطلح على تسميته بالإنسان العاقل Homo Sapiens وبدأ ظهوره فى العصر الحجرى القديم الأعلى وهو الذى ينقسم إلى سلالات مختلفة Races ولكنها جميعاً يمكن أن تتزاوج . (المترجم)

فقد ظهر أن سلالة الأقزام الحاليين – شأنهم شأن البشمن الحاليين – إنما نتجت عن تغيرات طفيفة بدأت منذ العشرة آلاف سنة الأخيرة . هذه التغيرات هى التى أثارت الجدل حول أصل العلاقة بين كلتا السلالتين . وعلينا أن نقنع الآن بأن الأقزام سلالة ثالثة مختلفة .

وثمة سلالة رابعة ظهرت فى شمال شرق إفريقية منذ نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى أى منذ حوالى ١٠ آلاف سنة ، وتعتبر هذه السلالة شبيهة بالسلالات القوقازية ، والتى أطلق عليها ليكى Leakey اسم طلائع الحاميين . ولقد اكتسبت هذه السلالة مميزاتها الخاصة بصورة نهائية فى شمال غرب آسيا ومن هناك هاجر بعض أفرادها إلى إفريقية . وهؤلاء القوقازيون أشباه الحاميين قد دفنوا بعض موتاهم – الأمر الذى استطعنا عن طريقه الوقوف على مميزاتهم الجسمانية وأدواتهم التى تعتبر من أهم الدلائل المرشدة عن عناصر الحضارة القفصية Capsian فى تونس . ويمكن تأريخ هذه الحضارة بدقة فهى ترجع إلى الألف السادسة أو السابعة السابقة للميلاد . أما الحضارة القفصية فى شرق إفريقية فربما ترجع إلى أبعد من هذا التاريخ . ولكن كل الاحتمالات تشير إلى أن كلتا الحضارتين تنحدر من الحضارة التى كانت تقابل الحضارة الناتوفية Natufian التى ازدهرت فى فلسطين منذ قرابة عشرة أو أحد عشر ألف سنة مضت . وتتميز أدوات كل من الحضارتين الناتوفية والقفصية الحجرية بالأدوات ذات الشكل الطويل الدقيق والأسلحة ذات النصلين المتوازيين . ولقد استخدمت فى هذه الأدوات الأحجار شديدة الصلابة ، خاصة نوعاً من الحجر الزجاجى الأسود Obsidian ولهذا تميزت أسلحة الحضارة القفصية بكفاءة وتقدم انعكست على الأدوات الحجرية كالمقاطع والأزاميل وغيرها من أدوات الحفر الأخرى أكثر من تقدمها فى الأدوات الخشبية والعظمية . كما تتميز الصناعات القفصية أيضاً بالمؤخرة الرقيقة ذات الشكل الهلالى التى كانوا يستخدمونها لشحذ الرماح والسهام . وأكثر من هذا فلقد تطورت فكرة الأسلحة عندهم فلم تلبث أن ظهرت لديهم الحراب المصنوعة من العظام ،

وهى نفسها التى استخدمها القفصيون الأحدث والذين كانوا فى كينيا قبل أن يهبطوا ليستقروا بجوار بحيرات الوادى الأخدودى وربما كان هؤلاء الأخيرون أول من صنعوا تلك الأوانى الفخارية التى تثير الإعجاب والدهشة والتى استخدمت فى أغراض الطبخ والتخزين .



اهم المظاهر الجغرافيه والنباتيه فى افريقيا

(شكل رقم ١)

وعلى الرغم من أن الحضارة القفصية فى كينيا — على حد معرفتنا لها حتى الآن — كانت مقصورة على تلك المنطقة الجغرافية المحددة إلا أن تأثيرها غير المباشر على باقى أجزاء القارة ربما كان تأثيراً عظيماً للغاية . ولم تظهر أسلحة هذه الحضارة التى تتميز بالطول والرقة فى أجزاء أخرى من القارة باستثناء المنطقة

التى سادت فيها الحضارة المماثلة فى الأجزاء الشمالية من إفريقية ولكن هناك آلات تشبه هذه الأسلحة ظهرت بين العناصر المادية للحضارة الماجوزية Magosian التى حلت محل حضارات فورسمث وسان جوان فى المنطقة بين شمال أوغندا والكاب . وتعتبر الحضارة الماجوزية انعكاساً للظروف المناخية الجافة التى سادت منذ الفترة ما بين ١٢ ألف سنة وثمانية آلاف سنة ، كما أنها لا تشبه ما سبقها أو تلاها من حضارات . فمخلفاتها توجد فى المناطق المكشوفة أكثر من وجودها فى مناطق الكهوف أو الملاجئ الصخرية . وهذا فى حد ذاته يشير إلى أن هذه الفترة التى سادت فيها تلك الحضارة كانت أسلحة الصيد فيها تنتقل مع أصحابها بسرعة وإلى مسافات بعيدة سعياً وراء الصيد . وبالرجوع إلى الأدوات الحجرية الدقيقة يمكن أن نضع افتراضاً منطقياً يقول باستخدام الحضارة الماجوزية للقوس والرمح . وتشير الآلات الحجرية القزمية إلى مدى دقة هذه الأدوات الحجرية[1] كما تشير إلى أن أصحاب الحضارة الماجوزية قد تعلموا استخدام القوس والحربة . ومن المعروف بصورة قاطعة أن أهم سلاح يميز الحضارات الولتونية Wilton التى أتت بعد الحضارة الماجوزية هو القوس الذى ظل مستخدماً حتى العصر الحديدى . وهذا هو ما دفع الأستاذ كلارك وأغراه على القول بأنه باتصال كلتا الحضارتين الماجوزية والقفصية الكينية تكونت حضارات العصر الحجرى الوسيط الأدنى والتى تطورت إلى الحضارة الولتونية أو الفترة الأخيرة من العصر الحجرى القديم فى شرق إفريقية ووسطها وجنوبها .

وهناك مشكلة أخرى تثير الحيرة وتبعث على الجدل ، برغم تلك التى تتعلق بوجود صلة بين كلتا الحضارتين القفصية الكينية وحضارة الخرطوم التى كانت فى العصر الحجرى الوسيط والتى أماط اللثام عن وجود مثل هذه الصلة هو الدكتور ج . آركل . ولا شك أن هذه المشكلة ذات علاقة واضحة

---

(١) الآلات الحجرية القزمية تعبير ارتيولوجى مختصر ليدل على الأدوات الحجرية كثيرة العدد ومختلفة الأشكال وذات أحجام غاية فى الدقة . (المؤلف)

بالزنوج الأصليين . فلقد كان أصحاب حضارة الخرطوم الحجرية المتوسطة Mesolithic – شأنهم شأن أصحاب الحضارة القفصية الكينية – يمارسون صيد البر وصيد الأسماك مستخدمين الأدوات الحجرية الدقيقة التى تتميز بمؤخرتها الهلالية كالسهام والحراب المصنوعة من العظام والأكبر حجماً من السابقة . كما استدل على وجود الأوانى الفخارية المفلطحة التى تتميز بها نفس الفترة التى عاشها أصحاب الحضارة القفصية الكينية . هذه الأوانى التى عمدوا إلى تزيينها برسوم خاصة تميزت بالذات فى شكل السلسلة الفقرية للسلور(١) مع وجود الخطوط الانسيابية المتوازية أو المتموجة Wavy-Line التى وجدت على بعض هذه الأوانى فى شرق كسلا عند الحدود بين الحبشة والسودان وكذلك غرباً حتى هضبة تبستى عبر الصحراء الليبية . وكذلك تتشابه حضارة الخرطوم مع الحضارة القفصية الكينية مخالفة بذلك سائر ما عاصرها فى إفريقية من حضارات فقد دفنوا موتاهم بعناية . وكذلك أيضاً كان أصحاب الحضارتين مثل معظم العناصر النيلية الحالية من ناحية والعناصر الناتوفية الفلسطينية القديمة من ناحية أخرى يخلعون القاطعين العلويين المتوسطين من الفك الأعلى . ولكن كانت حضارة الخرطوم هذه مخالفة للحضارة القفصية الكينية فى أن أصحاب الأولى كانوا من العناصر الزنجية بصورة لا تقبل الشك فى حين كانت العناصر الزنجية توجد فى نفس الفترة فى منطقة اسيلار Asselar على نفس خط عرض مدينة الخرطوم ، ولكن بعيداً عنها فى الغرب عند الصحراء الواقعة إلى الشمال من ثنية نهر النيجر . وكان أصحابها يخلعون نفس القاطعين فى الفك العلوى كأصحاب حضارة الخرطوم . كما كانوا يصطادون الأسماك مثلهم أيضاً مستخدمين الحراب العظمية التى تشبه إلى حد كبير مثيلتها من أصحاب حضارة الخرطوم .

ومنذ ستة أو سبعة آلاف سنة مضت ، عندما بدأت حياة العناصر البشرية التى كانت تمارس الجمع والصيد فى الأفول ، وكانت شمس العناصر المحبة

(١) السلور أو الصلور : نوع من الأسماك يشبه سمك القرموط . (المترجم)

للاستقرار من أجل الزراعة وتربية الحيوانات قد بدأت فى البزوغ ، كانت هناك أربعة عناصر وطنية كما تعرف فى الفترة التاريخية قد وطدت أقدامها فى هذه القارة . وكانت هذه العناصر الأربعة هى البشمن ، الأقزام ، الحاميين القوقازيين ، والزنوج . هذه العناصر الأربعة لم يستطع أحد حتى الآن أن يتتبع تطور صفاتهم الجسمانية حتى ظهرت بما نراها عليه الآن . فقد دخلت العناصر الحامية بالتأكيد إلى القارة الإفريقية فى العصر الحجرى القديم الأعلى . أما العناصر الثلاثة الأخرى فقد انتشرت تجوب القارة هائمة على وجهها سعياً وراء الرزق . ولما كانت هذه العناصر تمتلك القدرة على التفكير ، فقد لاءمت حياتها مع البيئة الطبيعية كل حسب وجوده . فالبشمن الأصليون كانوا فى الأجزاء الشرقية والجنوبية فى حين كان الأقزام الأوائل يعيشون فى الأقاليم الغابية القريبة من حوض الكنغو وساحل غانا . ويعتبر أحفاد هذين العنصرين متمثلين فى البشمن والأقزام الحاليين والذين لا يزالون يمارسون حرفتى الجمع والصيد ، ويمتازون ببنية قزمية صغيرة . ولكن من الثابت الآن أن أسلافهم كانوا أكبر حجماً وأثقل عظاماً . وما زال السؤال الذى يتردد قائلا : كيف تحول هؤلاء البشمن والأقزام إلى الصفات القزمية فى عهد حديث تاريخياً ؟ لا يزال سؤالا يثير حيرة علماء الأنثربولوجيا وجدلهم حتى الآن .

وكذلك ما زال هناك غموض يكتنف أصل الزنوج الحقيقيين بهذا التركيب الجسمانى الخاص الذى يتميز بالحجم الكبير والعظام الخفيفة . فالزنوج قد ظهروا على الوجود فى فترة أبعد من تلك التى ظهرت فيها العناصر الثلاثة الأخرى ، كما أن سيطرتهم على المناطق التى هم بها الآن لم يتم إلا حديثاً فى فترة إعداد الغذاء . ومما هو جدير بالذكر أن الزنوج الأوائل قد عرفوا كصيادى أسماك وكانوا أول العناصر الدخيلة التى تأقلمت مع ظروف الحياة التى تميل إلى الاستقرار . وفوق هذا فقد تجمع لدى هذا العنصر قدر كبير من المعدات الفخارية الرقيقة والكبيرة الحجم فى نفس الوقت . ومرة أخرى نقول إنه مما يلفت النظر أيضاً أن آثار هذا العنصر الزنجى لا تتمثل فى المناطق الخارجة عن

حدود نطاق الغابات الاستوائية شمال خط الاستواء . فى حين كانت ظروف المناخ المطير تسود الثلث الجنوبى تقريباً من الصحراء الكبرى بصورة تشبه ما هى عليه فى الغابات الاستوائية حالياً . ربما كان تفسير هذا ، أن هذا العنصر قد عاش فى الأجزاء الهامشية من النطاق الغابى الذى كان إلى الشمال فعلا من النطاق الهامشى الغابى حالياً — ثم توغل فى إقليمه الحالى منذ حوالى ثمانية أو تسعة آلاف سنة . ثم توغل فى المناطق التى كان يشغلها البشمن فى عصر الجفاف السابق بعد أن كانوا قد خلفوا فيها آثارهم التى تحمل أهم مميزاتهم فوق الصخور وأوانى المياه المصنوعة من قشر بيض النعام ، فى الوقت الذى كان فيه الزنوج من جهة أخرى يختارون المواقع الرطبة والقريبة من المياه والتى تمكنهم من حياة الاستقرار . ومن المحتمل أن يكون الزنجى فى ذلك الوقت نادراً نسبياً وقليل العدد بمقارنته بغيره من العناصر . ولكنه كان يسكن أنسب الأماكن لذلك التطور الخطير الذى أحدثه مبتدئاً بالمراحل الأولى للإنبات العمدى وانتهى بالزراعة الحالية . وعندما مكن هذا الأسلوب الجديد فى الحياة من أن يقيم أود عدد أكبر من السكان ، كان الزنجى ، والقوقازى الدخيل هم الذين وسعوا مناطق انتشارهم الأولى فطغت أعدادهم على ما عداهم من عناصر أخرى فى القارة .

— ٢ —

الـــــــــزراع

هكذا يتبين لنا أن ثمة مايقرب من مليونى سنة مضت على جد « الإنسان العاقل » الذى تمكن من أن يصنع لنفسه ما يلزمه من أدوات بدائية . كما مرت حوالى ٥٠ ألف سنة أخرى استطاع بعدها أن يولد النار . ومنذ حوالى ١٠ آلاف سنة فقط تمكن هذا الإنسان أخيراً من أن يبدأ مرحلة جديدة من تاريخ حياته . مرحلة تمثل الثورة الثالثة التى حدثت على طول المدى الذى قطعه ذلك الإنسان على مسرح البشرية . ولم تكن هذه الثورة الثالثة سوى مرحلة الزراعة وإنتاج الطعام عن قصد . ولقد كان ذلك يتطلب إقامة القرى الثابتة إلى حد ما ، والتى تقابل معسكرات الصيد فى المراحل السابقة . هذه المعسكرات كان لا بد من إقامتها بالقرب من تجمعات الحيوان فى بيئته الطبيعية ليبدأوا منها حملاتهم من أجل الصيد . ولقد صحب وجود هذه القرى زيادة فى الأدوات الخاصة بالدفاع بصورة لا تقارن بمثيلتها لدى الصيادين أو جماع الغذاء وعلاوة على هذا فقد سمحت أيضاً بتزايد الكثافة السكانية تزايداً واضحاً . ولا يعنى كل هذا أن ثورة إنتاج الطعام كانت ثورة طفرية فى كل مكان بدأت فيه . ففى مصر مثلا كان ذلك الأمر طفرياً بالفعل . فنحن نعلم أن عصر الأسرات فى مصر قد بدأ بعد أقل من ألف سنة فقط بعد زراعة أول محصول غذائى . ولكن ذلك كان مرجعه إلى الإمكانيات المحدودة التى كانت تتمثل فقط فى السهل الفيضى لنهر النيل . أما فى مناطق أخرى من إفريقية مثلا ، فقد انتقلت هذه الثورة بصورة تدريجية . وكان البدء فى الزراعة وتربية الحيوان منذ مدة طويلة مجالا انتهى إلى هذه الصورة بعد أن مر بمراحل طويلة مارس

الإنسان فيها حرفة الصيد البرى والبحرى عرف فيها الإنسان اقتصاديات هذه الحرفة . وعلى أى الحالات فإن هناك شبه اتفاق على أن إفريقية شأنها فى ذلك شأن سائر أجزاء العالم القديم — منذ أن شملتها ثورة إنتاج الطعام — قد بدأت تتبلور فيها أنماط السكان فى إطارهم التاريخى الأخير .

ويبدو أن الثورة الغذائية هذه قد عمت القارة الإفريقية وشملتها على ثلاث مراحل أولها منذ حوالى ٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد — وهذه المرحلة مسئولة عن ظهور التجمعات القوقازية فى الوادى الأدنى لنهر النيل . وثانى هذه المراحل تمت فى جنوب الصحراء الكبرى وقد بدأت منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ولكن ربما انتهت فى الألف سنة الثانية أو الأولى قبل الميلاد . هذه المرحلة تقدم فيها الزنوج آخذين طريقهم إلى نطاق السفانا المحصور بين الصحراء من جهة والغابات الاستوائية من جهة أخرى . أما المرحلة الثالثة والتى تبدو أنها ارتبطت بالاتصال بالأندونيسيين فى بداية العصر المسيحى . فقد انتشرت فيها العناصر الزنجية فى منطقة غانا والمناطق شبه الاستوائية بإفريقية مكونين بذلك نطاقاً متسعاً . فصاروا يمثلون العنصر السكانى الرئيسى فى هذا النطاق . وأمامنا الآن مهمة ربط هذه المراحل الثلاث بعضها ببعض .

لقد تحقق علماء الآثار بصورة مبدئية من أن أول زراعة لحاصلات الحبوب وكذلك أول محاولة لاستئناس الحيوان قد تمت فى جنوب غرب آسيا ؛ وبصورة أدق عند أسلاف الناتوفين والذين تربطهم كما بينا عدة صلات بأصحاب الحضارة القفصية الكينية الشبه حامية من جهة ، وبحضارة الخرطوم التى تبنتها العناصر الزنجية فى العصر الحجرى الوسيط من جهة ثالثة . وعند « أريحا » القريبة من الينابيع الدائمة على حافة وادى الأردن ، كانت الجماعات الناتوفية تستعمل الأدوات المصنوعة من الصوان والعظام التى تشبه إلى حد كبير مثيلتها عند العناصر المستقرة الأولى ، التى عمدت إلى إنتاج الطعام منذ حوالى ٨ آلاف سنة قبل الميلاد . ولقد كانت هناك جماعات أخرى تمارس الصيد البرى والبحرى مستعملة نفس مجموعة الأدوات والحراب الناتوفية فى

« نطاق الكهوف » الواقع إلى الجنوب من بحر قزوين . هذه الجماعات كانت قد بدأت تجنى محصول القمح ، وتذبح الأغنام والماعز منذ السبعة أو الستة آلاف سنة التى سبقت الميلاد . كما تؤرخ أولى الجماعات المستقرة التى مارست إنتاج الطعام عند جارمو Jarmo التى تبعد قليلا عن جنوب التلال الكردية ، بالألف سنة قبل الميلاد . كل هذه الجماعات تعتبر أحدث من الجماعات المستقرة التى كانت تنتج الطعام بإفريقية والتى وجدت على أطراف دلتا النيل منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . ففى هذه الفترة كانت جماعات الزراع بفلسطين قد بدأت فعلا فى تعلم كيفية صناعة الفخار وصقل الأدوات الحجرية أى أنهم عبروا فى الواقع إلى العصر الحجرى الحديث[1]. أما الجماعات الزراعية الأولى فى مصر ، فقد استخدمت هذه الأدوات منذ البداية . ولهذا لم يعد هناك شك فى أن الزراعة قد انتقلت من آسيا إلى إفريقية عن طريق برزخ السويس خلال أقدم فترات العصر الحجرى الحديث .

ولم تتخير الطلائع الزراعية الأولى بمصر مناطق استقرارها فى السهل الرسوبى نفسه من وادى النيل ، حيث المستنقعات كانت ولا تزال حتى تلك الفترة تمثل إحدى الصعوبات الكبرى التى لا تلائم مثل هذا الاستقرار . وإنما تخيرت المدرجات النهرية العالية على كلا جانبى الوادى والتى تمثل حالياً مناطق صحراوية صرفة فى حين كانت فى فترة الاستقرار الأولى عبارة عن مناطق عشبية (استبس) خاصة بجوار الأودية الجافة حالياً والتى كانت تمثل روافد قديمة للنيل تغذيه بالمياه فى بعض الفصول . فمثلا نجد أن حضارات دير تاسا ، والبدارى ، ومرمدة ، والعمرى — وهى من أولى الحضارات التى قامت فى

---

(١) تميز الزراعة والفخار والأدوات الحجرية المصقولة بدء العصر الحجرى الحديث بينما يميز الصيد والجمع والالتقاط والآلات الحجرية الضخمة وغير المصقولة العصر الحجرى القديم أما العصر الحجرى المتوسط فيجمع بين مميزات العصر الحجرى القديم ولا يعرف الاستقرار الزراعى أو تربية الحيوان بمعنى الكلمة . المهم لدينا أن الزراعة وتربية الحيوان هما أهم مميزات العصر الحجرى الحديث . (المترجم)

مصر — لم تتخير مواضعها فى السهل الرسوبى ، بل فى المناطق الهامشية من وادى النيل ودلتاه . ولقد كان أعظم كشف أسفرت عنه عمليات التنقيب ، تلك المراكز الأولى للاستقرار الذى تم بشمال الفيوم . والفيوم هى ذلك المنخفض الطبيعى الذى كان له فى يوم من الأيام اتصال بوادى النيل ، والذى كانت تحتل قاعه بحيرة قديمة . لا تزال تظهر على جوانبها حتى الآن خطوط سواحلها القديمة التى كانت تعلو عما هى عليه الآن بمقدار ٣٠٠ قدم . ولقد صحب انخفاض هذه البحيرة زحف جماعات المستقرين من العصر الحجرى القديم حتى العصر الرومانى . ولا جدال فى أن المواقع القديمة التى اتخذت فى بداية العصر الحجرى الحديث قد أهملت تماماً فيما بعد . فقد اتخذ الإنسان مواقع سكناه فى تلك الفترة بجوار البحيرة حينما كانت تعلو بنحو ١٨٠ قدماً فوق سطح البحيرة الحالى . ولقد تم تأريخ هذه المواقع بالطرق الخاصة بذلك فأشارت إلى أنها كانت آهلة بساكنيها منذ ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ولقد كانت أدواتهم تتمثل فى فئوس حجرية ومناجل مسننة من الحجر أيضاً . كما وجدت فى باطن التربة بقايا أكوام من القش تحتوى على حبوب الشعير وسنابل القمح . ويدل وجود مخازن الغلال بصورة دقيقة جداً على أن مراكز الاستقرار التى اتخذت بجوار البحيرة كانت مراكز ثابتة . أما عمليات الصيد فقد كانت تمارس بوساطة السهم والقوس ، كما وجدت بقايا أدوات مصنوعة من العظم تستخدم فى صيد الأسماك وهى تشبه إلى حد كبير تلك التى كانت تستخدم عن الناتوفين بفلسطين . ولقد كانت الجماعات التى استقرت فى منطقة الفيوم إبان العصر الحجرى الحديث تستعمل أوانى فخارية رديئة الصنع بدون زخرفة ، فى حين أنها كانت تتميز بوجود الخطوط المموجة . ولقد استطاع هؤلاء المستقرون أن يجلبوا الأصداف من ساحل البحر الأحمر والأحجار شبه الكريمة من حدود ليبيا ليصنعوا منها عقوداً وقلائد يتزينون بها . ومما يدل على أن هذه المجموعة تمثل مجموعة دخيلة هو أن صيادى العصر الحجرى القديم ظلوا يترددون على المنخفض بعد وصول هذه الطلائع المستقرة . وأخيراً تم امتزاج كلا العنصرين فاقتبس هؤلاء المستقرون

الأدوات الحجرية المصنوعة من الشظايا من الصيادين الذين اقتبسوا بدورهم أدوات الزراعة لاستخدامها من أجل إنتاج الغذاء .

ويتضح من مجموع مراكز الاستقرار هذه أن جماعات الزراع المصريين الأول عند أطراف الوادى قد بدأت تعانى منذ استقرارها من الدورات المناخية الجافة التى كان يتعرض لها هذا الإقليم على فترات منتظمة . وذلك خلال الفترة التى استغرقت نهاية الألف الخامسة وبداية الألف الرابعة من السنوات قبل الميلاد . كما كانت تعانى فى نفس الوقت من غزو الرمال الآتية من الصحراء المجاورة — الأمر الذى دفع بأصحاب حضارات دير تاسا ، والبدارى فى مصر الوسطى إلى أن يهجروا مراكز استقرارهم الأولى نازحين إلى السهل الرسـوبى . ومن هنا بدأت تظهر على صفحات التاريخ الإنسانى نتائج غاية فى الخطورة . فمنذ هذه الخطوة التى سبقت نظام الأسرات فى المنطقة — بدأت ظاهرة النمو السكانى فى الظهور . فلقد بلغ أقصى تقدير لهم فى الجزء المصرى من وادى النيل ومنذ كانوا يمارسون حرفة الجمع والصيد فى نهاية العصر الحجرى القديم ، حوالى ٢٠,٠٠٠ نسمة . فى حين قدر عدد سكان « المملكة القديمة » التى قامت بعد ٢٠٠٠ سنة من هذا التاريخ بنحو اختلفت فيه الآراء فتأرجح العدد بين ثلاثة ملايين وستة ملايين نسمة . ولم تتغير صفات المصريين الطبيعية فى كلتا الفترتين السابقة لعصر الأسرات واللاحقة له ، كما تشير بذلك مقابر هاتين الفترتين ، فقد كانت هناك نماذج فى هذه المقابر تشير إلى أن الزراع المصريين القدامى كانوا رقاق البنية وقصار القامة ، ولا يمكن تمييزهم بأى حال عن البجه الحاليين الموجودين فى بعض أجزاء جبال البحر الأحمر ، والدناقل أو الصوماليين الموجودين بالقرن الإفريقى . كما أن لغة هؤلاء كما نعرف تتبع عائلة اللغات السامية الحامية ، وليس لها علاقة قريبة باللغات البربرية التى سادت شمال غرب إفريقية من جهة ، ولغات الكوشيين فى الحبشة من جهة أخرى . أما الجماعات الآسيوية التى بدأت تلك الثورة الخاصة بإنتاج الغذاء ، فلم يحدث لها مثل تلك الطفرة السكانية . فالزيادة التى حدثت

إنما تمثل أساساً الزيادة الطبيعية للسكان الذين سبق استقرارهم من الجماعات القوقازية التي وفدت من شمال وشرق القارة . هذه الزيادة التي جاءت بعد ذلك تبعت النمو العجيب لموارد الغذاء . تلك الموارد التي تمثلت آنذاك في محصول القمح والشعير من جهة – وفي التربة الخصبة الدائمة بفضل تجددها سنوياً بسبب الفيضان من جهة أخرى .

وبالإضافة إلى القمح والشعير كانت الحيوانات المستأنسة كالماعز والضأن والخنازير والماشية – موجودة بمصر منذ أوائل العصر الحجري الحديث – كما كان هناك عدد من المحاصيل الأخرى ، الكتان وأنواع عديدة من الفواكه والنباتات العشبية ولا شك أن كلا المحصولين القمح والشعير قد أسهما بالتأكيد في نجاح هذه الثورة . كما أن الدورة الثنائية الخاصة بالقمح والشعير كان أمراً يلائم ظروف المناخ المائل للمداري . فما لبثت هذه الثورة أن انتقلت إلى باقي أجزاء إفريقية . أما طمي وادي النيل فقد كان ظاهرة فريدة لا تشاركه فيها أي منطقة أخرى بالقارة .

أما ارتباط الأدوات الزراعية المصقولة التي وجدت بالفيوم في نهاية العصر الحجري الحديث بأدوات الصيد المصقولة الخاصة بالعصر الحجري القديم الأعلى ، فتفسيره يرجع إلى أن المصريين في العصر الحجري الحديث انتشروا في اتجاه الغرب والجنوب الغربي حتى وصلوا إلى واحات سيوه والخارجة ، ووصلوا حتى مرتفعات برقه . ولقد كان هذا التقدم في نهاية الخمسة آلاف سنة وبداية الأربعة آلاف السابقة للميلاد . أما في الجهات الغربية من القارة حيث الجزائر وتونس والمغرب الآن – فقد تطورت أدوات العصر الحجري الحديث الأسفل التي كانت تتمثل في أدوات الحضارة القفصية والتي لا يمكن بأي حال حتى الآن أن نقول بأن العناصر القوقازية هنا قد صارت منتجة للغذاء – فمن الثابت فعلا أن هذه العناصر كانت تعمل بالصيد الذي كان الاقتصاد السائد في هذه المنطقة حتى الألف سنة الثانية قبل الميلاد على الأقل .

ولو صعدنا مع النيل جنوباً لنصل إلى إفريقية الزنجية لوجدنا أن الدلائل الموجودة لدى الشاهينابيين تشير إلى أن أصحاب حضارة الخرطوم قد عاشوا فى المرحلة الحجرية الحديثة منذ ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد . وهناك احتمال كبير أن تكون منطقة تفرجيت Taferjit قد شملتها أيضاً مثل هذه الحضارة وتقع هذه المنطقةعلىالجزء الغربى لنهر النيجر وكانت هى الأخرى تعيش نفس الفترة – إلا أن مثل هذه المنطقة الأخيرة لا يستدل من مخلفاتها الحضارية على أنها قد عرفت زراعة النباتات الغذائية . ولكن هناك من الدلائل القاطعة ما يشير إلى أن الإنسان فى منطقة شاهيناب Shaheinab قد عرف تربية الماعز ، ولكن معظم علماء الآثار متفقون على أن المخلفات الحجرية المصقولة التى استخدمها أصحاب حضارات الخرطوم فى العصر الحجرى الحديث لم تكن أكثر من استعارة حضارية من منتجى الغذاء المصريين أصحاب حضارات دير تاسا والبدارى فى عصر ما قبل الأسرات وعلى هذا يمكن القول بأن الفكرة الأساسية المرتبطة بممارسة الزراعة قد انتقلت إلى الجنوب بأدواتها الجديدة على الرغم من أن مشكلة وجود حاصلات الحبوب والاحتفاظ بها فى الإقليم شبه الصحراوى ، لا تزال حتى الآن بدون حل .

فقد كانت محاصيل الغلال الموجودة فى هذا الإقليم شبه الصحراوى تتمثل فى الذرة[1] فى حين أنها كانت فى غرب إفريقية غرب ثنية النيجر تتمثل فى الأرز من النوع المسمى Orysa Globerrima كل هـــذه المحاصيل تمثل المحاصيل الأصلية التى وجدت فى الإقليم الشبه صحراوى بإفريقية وبصورة أدق مناطق السفانا الشجرية الفقيرة التى تمتد من السنغال حتى أعالى النيل – ومن أعالى النيل تمتد جنوباً بشرق حتى شمال أوغندا وأجزاء من كينيا . ولا يزال الجدل قائماً حول مشكلة اختراع الزراعة فى هذه المناطق . ويمكن رفض الفكرة القائلة بذلك لنقص الدلائل الأثرية التى يمكن أن تكون شاهداً

(١) خاصة أنواعه العديدة التى منها السرغم Corocana, Pennisetun Eleusine (المؤلف)

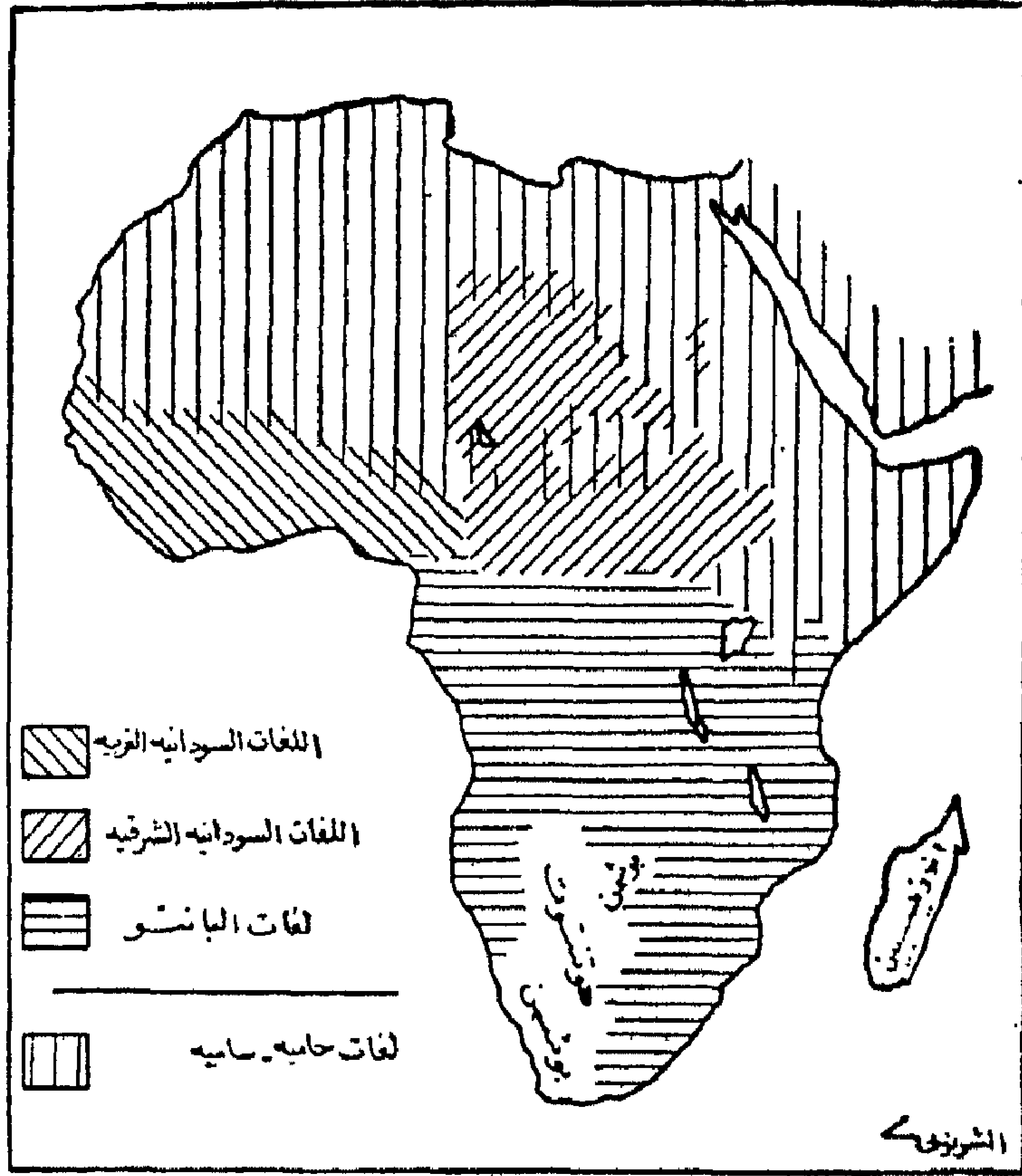
على أن ثمة مجتمعات زراعية حقيقية قد قامت فى جنوب الصحراء الكبرى منذ نهاية الألف الثانية قبل الميلاد . أما المظهر الوحيد الذى يمكن أن يقوم دليلا على وجود مدنية قامت على الزراعة فى العصر الحجرى الحديث فى الإقليم السودانى ، فهو وجود حضارة النوك فى نيجيريا والتى وصلت إلى ذلك الجزء قبل بداية العصر المسيحى بقليل . والتى تثبت أن الزنوج أصحاب هذه الحضارة قد عاشوا فى قرى مستحدثين أدوات حجرية وحلى مختلفة بلغت شأواً كبيراً من الرقى والتقدم . وكذلك تطورت عندهم صناعة التماثيل الطينية إلى مستوى أفضل . وربما كان ذلك الأمر الأخير ذا علاقة بعبادة الأسلاف . ولا شك أن النقص فى مثل تلك الشواهد الحضارية الأولى ، إنما يرجع فى جزء منه إلى حالة النقص الشديد فى المعلومات الأركيولوجية . وربما كان اختفاء الزراعة عند أصحاب حضارة الخرطوم التى قامت فى العصر الحجرى الحديث سبباً يدعونا إلى القول بأن ثورة إنتاج الغذاء قد وصلت إلى نطاق السفانا من النطاق الشبه صحراوى بإفريقية خلال الألف الثالثة أو الثانية قبل الميلاد كنتيجة لانتشار تكنولوجيا العصر الحجرى الحديث وانتشار المعلومات الخاصة بالنبات والتى كان لا بد من أن تطبق حينئذ على نباتات الحبوب الأصلية فى ذلك الإقليم الجديد بمناخه المخالف للمنطقة التى وصلت منها مثل هذه التكنولوجيا — ونقصد النطاق الشبه صحراوى .

ولقد كان النطاق السفانى شبه الصحراوى يمتد من المحيط الأطلنطى فى الغرب حتى مرتفعات الحبشة فى الشرق . أى فى النطاق الانتقالى بين الصحراء الجافة فى الشمال وإقليم الغابات الاستوائية شديد الرطوبة فى الجنوب . ولو استطعنا أن نضع حلا لمشكلات إنتاج الغذاء فى نطاق السفانا — فإننا لن نتمكن من ذلك بالنسبة للأقاليم الغابية مهما كان اجتهادنا . فمن الحقائق الخاصة بتوزيع النبات أنه لا يوجد فى العالم ما هو أكثر من محاصيل إفريقية الغابية المحلية الخاصة بالغذاء . ففى أقاليم الغابات الرطبة بساحل غانا وحوض الكنغو ومنخفضات شرق إفريقية الوسطى ، يختلف الأمر عما هو عليه لدى زراع

السفانا وما يطبقونه من معلومات تتعلق بالنبات . فالأمر هنا يتعلق بالفترة التى وصلت بعدها مختلف المحاصيل الملائمة لهذه البيئة الرطبة من القارات الأخرى . فمن أهم هذه المحاصيل التى تنمو فى هذا النطاق حالياً ، الذرة والكاسافا وكلاهما وصلا إلى إفريقية من أمريكا الجنوبية والوسطى خلال القرن السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد . وقبل وصول هذه الحاصلات من العالم القديم فى هذه الفترة المتأخرة ، كانت الحاصلات الغذائية التى تنمو فى النطاق الغابى مقصورة فى إفريقية على ما جاء منها من جنوب شرق آسيا كالموز وأنواع مختلفة من اليام . ولا يمكن القول بأن نباتات جنوب شرق آسيا هذه قد وصلت إلى إفريقية قبل بداية العصر المسيحى . وبمعنى آخر فإنه فى الفترة ما بين وصول ثورة إنتاج الغذاء إلى السفانا الشبه صحراوية ووصولها إلى الأقاليم الغابية إلى الجنوب — سادت حالة تخلف زمنى وركود تتراوح بين ٢ ، ٣ آلاف سنة .

هـــذه النتيجة لم ترض علماء الآثار والنبات المعاصرين فحسب ، بل أرضت أيضاً علماء اللغة فيما يختص بعلاقات المجموعات الإفريقية بعضها ببعض لغوياً . فوجود جزء من اللغات السامية الحامية الخاصة بالعناصر القوقازية فى شمال وشمال شرق إفريقية وكذلك لغات البشمن والهتنتوت التى تتميز بالتكتكة فى الشرق والجنوب ، يوضح أن هناك مجموعتين لغويتين أصليتين منذ القدم كانت العناصر الزنجية تتكلم بهما وهما : مجموعة اللغات السودانية الشرقية التى كانت تسود النطاق الغابى شمال خط الاستواء من النيل حتى بحيرة تشـــاد ، ومجموعة اللغات السودانيـــة الغربية التى كانت تسود إلى الغرب من بحيرة تشاد . فكلتا المجموعتين توجـــدان فى كل من نطاق السفانا ونطاق الغابات . ويبـــدو معقولا أن لغات كل مجموعة تختلف عن الأخرى ، الأمر الذى استند إليه علماء اللغة فى افتراضهم أن كلتا المجموعتين قد نمتا فى فترة لا تقل عن خمسة آلاف سنة . ويبدو الاختلاف واضحاً بين كل منهما منعكساً على الجماعات القديمة الموجودة بالمنطقة .

فاللغات البانتوية تتحدث بها اليوم عناصر زنجية تنتشر فى معظم الأجزاء جنوب خط الاستواء بإفريقية . وهذه العناصر لم ترتبط ببعضها لغوياً إلا حديثاً جداً .فمن المحتمل أن اللغة البانتوية كانت منذ ٢٠٠٠سنة لغة مستقلة تختص بها أسلاف الجماعات البانتوية الحالية ، الذين كانوا ينتشرون فى منطقة أصغر



اللغات فى افريقيا

(شكل رقم ٢)

مساحة من تلك التى يشغلونها اليوم . وربما كانت علاقة هذه اللغة البانتوية الأصلية بمجموعة اللغات السودانية الغربية أكثر منها بالمجموعة الشرقية .

وعلى هذا فلو افترضنا أن المجموعات اللغوية هى نفسها المجموعات الزراعية ، فسوف نلاحظ أن الزنوج قد تزايدت أعدادهم بصورة كبيرة فى

إقليم السفانا شرق وغرب بحيرة تشاد على السواء خلال نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد . ولقد كان ذلك فى الوقت الذى كانت فيه معظم القارة الإفريقية جنوب خط الاستواء لا تزال مأهولة بالبشمن والأقزام الذين كانوا يمارسون الجمع والصيد، وفى زمن الحضارة القفصية الكينية القوقازية وأخيراً جداً ربما فى العصر المسيحى فقط – تحرك الزنوج من الإقليم السودانى الغربى إلى إقليم البانتو . ولم يلبثوا أن تزايدوا بصورة سريعة حتى امتزجوا تماماً بالعناصر الأخرى غير الزنجية التى سبقت وجودهم فى تلك المناطق(١).

ويبدو أن هناك اتفاقاً بين فترة انتشار العناصر البانتوية وبداية فترة العصر الحديدى فى إفريقية جنوب الصحراء الكبرى . ومن الطبيعى أن نتساءل عما إذا كان كلا هذين الحدثين يرتبط أحدهما بالآخر أم لا . فعلى سبيل المثال كان هناك انتشار واسع المدى لنماذج الفخار التى تعرف فى مجموعها باسم Channelled, Dingle-based التى لازمت باستمرار المراحل الأولى للعصر الحديدى . فهذه النماذج كانت قد انتشرت فى المنطقة من كينيا – وأوغندا

(١) وليس معنى هذا طبعاً أنه لم يزرع أى نبات عن قصد مطلقاً فى النصف الجنوبى لإفريقية قبل العصر المسيحى . فعلى مرتفعات كينيا كانت سلالة القوقازيين الذين كانوا يستعملون آلات الشظايا والأسلحة الحجرية القفصية ، على الأقل فى بداية الألف الأولى السابقة للمسيح ينحتون أوانى وأطباقاً حجرية ورحى كانت تستعمل غالباً فى الطحن والطهو . ومن الممكن أن نستنتج أنهم كانوا يعرفون أحد محاصيل الحبوب . كما عثر أيضاً على فئوس حجرية وآلات أخرى مما تستعمل فى الزراعة ، ترجع إلى نفس الفترة ، فى أوغندة . والكونغو ، وكل منهما تحف بالغابة الاستوائية الكونغوية من الشرق والغرب . وربما كانت هذه تدل على أثر حركة زنجية قديمة لزراع الحبوب جنوبى نطاق الحشائش المدارية (السافانا) . وأخيراً ، فمن الممكن أن يستنتج أيضاً حدوث فترة زراعة خضروات سابقة لزراعة الحبوب هذه ولقد كان من المستحيل وضع حد بين النبش عن الجذور وزراعة الحدائق فى أقاليم القارة الرطبة الاستوائية . ولقد عثر على آلات حجرية تثبت أن عصى النبش ترجع إلى الألف الخامسة ق . م . فى روديسيا ، مما يدل على وجود زراعة حدائق مقصودة فى ذلك التاريخ . ولكن لا يدل أى من هذه بكل تأكيد على وجود حركة قديمة نحو إنتاج الطعام فى إفريقية دون المدارية ، لها أثر انقلابى كبير فى السكان قبل الحركة التى لا بد وأنها ارتبطت بانتشار البانتو انتشاراً فجائياً خلال الألفين الأخيرتين من السنين .

شمالا . . إلى كاتنجا وروديسيا جنوباً — الأمر الذى نادى بعض علماء الآثار فى ضوئه بأنه دليل قاطع على تقهقر العناصر البانتوية . والواقع أن الأمر ليس بهذه البساطة . فمن ناحية نجد أن انتشار اللغات البانتوية انتشاراً كاملا يجب أن يقف دليلا على العودة إلى سكنى المنطقة مرة ثانية أكثر منه دليلا على التقهقر منها . ومن ناحية أخرى فإن الثورة الاقتصادية التى دفعت عناصر البانتو للانتشار كانت ثورة تعتمد على غرس المحاصيل وليس على بذر بذورها . ويبدو على الأرجح أن مثل هذه الظاهرة جاءت نتيجة لدخول النباتات المحصولية الغذائية من جنوب شرق آسيا إلى إفريقية الموز واليام الآسيوى الذى كان فى بادئ الأمر يستطيع أن يعول الكثافات السكانية فى الأقاليم الرطبة الدفيئة من الساحل الشرقى ووادى نهر الزمبيزى ، وحوض الكنغو ، ونطاق البحيرات العظمى الهلالى ، والأودية الدائمة المطر المحيطة بالمرتفعات الضخمة مثل رونزورى ، الجون ، كينيا ، كلمنجارو . وقد كان احتلال العناصر السودانية الغربية الزنجية للمناطق الغابية الكثيفة بساحل غانا قد أعقب وصول نفس هذه النباتات إليها .

وبهذا لا يمكن القول بانتشار العناصر البانتوية إلى الجنوب انتشاراً بسيطاً فى وقت كانت فيه ثورة إنتاج الغذاء قد بدأت بالفعل فى نطاق السفانا . ويبين التقسيم اللغوى الداخلى للبانتو أن المرحلة النهائية لانتشارهم كانت فى الإقليم الهامشى الواقع إلى الجنوب من مركز انتشارهم الحالى . ولقد دلت البحوث على أن العناصر البانتوية الأولى . كانت عبارة عن مجموعة من صيادى البر والبحر ، التزموا مجارى الأنهار كطرق استطاعوا معها أن يسيروا منتقلين من الهامش الشمالى لنطاق الغابات الاستوائية إلى الهامش الجنوبى لنفس النطاق . كما كانوا أحياناً فى هذه المرحلة الانتقالية ، يأخذون النباتات الصالحة للزراعة من التجار والمهاجرين الأوائل الذين وفدوا إلى القارة من جنوب شرق آسيا . ولم تكن هذه الجماعات الوافدة إلا جماعات قادمة من أندونيسيا لم تلبث أن احتلت جزيرة مدغشقر فترة من الزمن ، خلال الخمسة آلاف سنة السابقة

للميلاد . ونظراً للمدى الكبير الذى شمله التوسع الحضارى الأندونيسى فى إقليم الغابات سواء فى شرق أو غرب إفريقية ؛ فربما كانت بعض هذه الجماعات على الأقل قد احتلت ليس فقط السواحل الشرقية ، بل ربما أيضاً تكون قد طافت بحراً حول رأس الرجاء الصالح حاملة معها نباتاتها إلى السكان الموجودين فى الأجزاء الوسطى من غرب إفريقية وساحل غانا .

وعلى أى الحالات فإننا ينبغى أن نتصور الانتشار العظيم المدى للزراع البانتويين الذى تخطى منطقتهم الأصلية ليصل إلى جنوب غابات الكنغو منذ بداية العصر المسيحى ، وفى خلال هذا الانتشار امتصوا العناصر الأولى لجماعات البشمن والجماعات الزنجية خلال انسحابهم من غابات الكنغو والصحراوات التى لا تلائم الاستقرار فى الجنوب الغربى . وإلى الجنوب من مرتفعات شرق إفريقية ، تمكنت بقايا العناصر القوقازية الحامية من الاحتفاظ بمراكزها لمدة طويلة ضد التوسع الزنجى البانتوى . فتحول بعضهم إلى زراع — فى حين بقى البعض الآخر يعمل فى الرعى بالمناطق المنبسطة فوق الهضبة الوسطى ، وبعد فترة غير قصيرة ، عند نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ، ربما استطاعوا أن يتوغلوا فى جنوب القارة . ولقد تأكد لدى العلماء أن من تزوج منهم بالبشمن أنجب الهوتنتوت وربما يكون هؤلاء دون العناصر البانتوية هم أول من عمل بالتعدين فى روديسيا وجنوب إفريقية . وزيادة على هذا ، فقد امتصت هذه العناصر أيضاً خلال انتشار العناصر الزراعية البانتوية السريع ، ولهذا لم تصل اللغات الحامية السامية التابعة للعائلة اللغوية القوقازية فى امتدادها جنوباً لأبعد من شمال ووسط تنجانيقا ، على الرغم من أن الملامح الجسمانية ، والمميزات الحضارية القوقازية توجد بين كثير من الجماعات اللغوية البانتوية على الجانب الشرقى من إفريقية .

— ٣ —

سكان المـــدن

لا يوجد فى إفريقية بأسرها إلا ركن صغير كان قيام الحياةالمدنية فيه رهناً بإنتاج الطعام . فحينما هبط سكان دير تاسا والبدارى إلى السهل الفيضى فى مصر الوسطى — ربما فى بداية الألف الرابعة قبل الميلاد — لم يلبثوا أن استقروا فى قرى دائمة كتلك التى أسفر عنها الكشف تحت إشراف بترى Petrie عند العمره ونقاده . فقد ظهر من مقابرهم ما يفيد بأنه كانت ثمة ثورة فى النمو السكانى لديهم . هذه القرى تبدو محصنة وبها زخارف وصور ملونة على الأوانى والقدور تحكى قصص الأسر والأسرى المصفدين فى الأغلال إلى ظهورهم . كما تصور رسومهم أيضاً القوارب المصنوعة من أوراق البردى التى كانت تجوب الأنهار فى الأسفار البعيدة من أجل الانتقال والتجارة . ومن الثابت أن سكان مثل هذه القرى قد جلبوا الذهب والنحاس من جبال البحر الأحمر . وكذلك أنواع أخرى من الأحجار يحتمل أنهم قد جلبوها من مرتفعات الحبشة . كما يظهر من مخلفاتهم أيضاً تلك الجرار وأوانى الزهور المصنوعة من المرمر . ولا شك أن كل هذه الأدوات التى تمثل الكم الحضارى المادى لهم إنما تشير إلى وجود عدد من المتخصصين أو المتفرغين لمثل هذه الصناعات . وكذلك إلى وجود عمال حرفيين مهرة . ولقد كانوا أيضاً يدفنون مع موتاهم الأوانى والقدور وأدوات تعكس الثراء الذى يتمتعون به ، فى نفس الوقت الذى تشير فيه إلى اعتقادهم بفكرة الحياة الأخرى التى سوف ينتقلون إليها بعد الممات .

وفى الفترة التى استغرقت القرون الوسطى من الألف الرابعة قبل الميلاد ، وحينما خلفت حضارة جرزه حضارة العمريين فى مصر حدث أن نمت فعلا قراها وبدأت تتحول إلى مدن صغيرة . ظهرت فيها المساكن ذات الجدران القائمة المصنوعة من اللبن . ولها أبواب خشبية متينة ، ونوافذ ذات شقين : وبمعنى آخر صارت تشبه إلى حد بعيد كثيراً من مدن الشرق الأوسط الحالية . ولقد كانت العلاقات التجارية خلال هذه الفترة (حضارة جرزه) بين مصر والخارج فى حالة من الانتعاش . وكذلك ربما كان وادى النيل قد ارتبط فى مثل هذه الصلات بالمراكز المدنية التى تطورت هى الأخرى بصورة سريعة فى بلاد الرافدين كما صارت تستورد الفضة والرصاص من جزر بحر إيجه بصورة منتظمة . كما شاد عمال السفن أساطيلهم ذات الستين مجدافاً للسفينة الواحدة . وتشير مخلفات القبور هنا إلى أن الاختلاف الكبير فى مصادر الثروة قد بدأ فعلا فى الظهور . فالعامل المتخصص فى الأعمال الحجرية ، يظل طوال العام عاكفاً على صقل وتهذيب إناء واحد للزهور يصنعه من الرخام لتزين به مقبرة أحد الأثرياء أو منزله .

ومن الواضح أن النمو السكانى والتقدم الاقتصادى والفنى فى عصر ما قبل الأسرات بمصر والذى عاصر نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد ، كان قد بلغ فعلا أرقى مرتبة من الرقى مما باعد المسافة بينها وبين باقى أجزاء القارة خلال الخمسة آلاف سنة التى تلت هذا التاريخ . ولهذا لم يحفل التاريخ المصرى القديم بما يتعلق بالقارة الإفريقية . ولكن الذى يدعو إلى الدهشة حقاً هو ظهور مجموعة من الأفكار السياسية والدينية وتطورها بصورة مفاجئة وسريعة فى بداية عصر الأسرات بمصر . وقد تضاربت الآراء حول نشأة هذه الأفكار . ومما له دلالة أن الحفائر الأثرية فى جرزه لم تظهر ما يمكن أن يعتبر سلفاً أو أصلا للمقبرة الملكية فى عصر الأسرات . كما أن أحدث الأدلة التاريخية تضع أقدم الأسر الملكية فيما بين النهرين (العراق) معاصرة للأسرة المصرية الخامسة : ومن ثم فهناك صعوبة فى تقبل الأصل الأسيوى الذى ينادى به بترى مثلا .

ويبدو أن فكرة المصريين عن نظام الحكم قد انبعثت من مصر نفسها ولم تأت إليها دخيلة أو منقولة عن غيرها . كما أنها لم تلبث أن نمت وتطورت بسرعة فى ظل النظام السياسى الذى أدى إلى توحيد القطرين فى خلال حكم الأسرة الأولى . وهذا فى حد ذاته يمكن اعتباره أساساً للتسجيل الأركولوجى . إذ بنيت أول مقبرة ملكية للملك مينا عند ابيدوس وكانت تأخذفى تصميمها صورة الخطوط المستقيمة ــ وكانت أبعادهذه المقبرة هى : ٢٦ قدماً × ٦٠ قدماً × ١٠ أقدام ــ كما كان هناك أيضاً تطور ملحوظ فى مقابر الجرزانيين المعاصرة التى تعكس ثراء فاحشاً لأصحابها خاصة فيما يتعلق بجثة الفرعون نفسه : فقد تعمد أن يدفن بجواره جثث ضحاياه وقاداتهم الذين قتلهم فى أثناء حياته ليستخدمهم فى السهر على راحته فى الحياة الأخرى . ولقد كانت مقابر ملوك الأسرة الأولى حافلة بالأدوات ، بل كانت فى أعدادها تبلغ أكثر من ضعف مقابر العامة . وكان بمقبرة زوسر وحدها فى الأسرة الثالثة عشرة آلاف من الآنية مصنوعة من الحجر وموثثة بأثاث أفضل منه فى أى مقبرة أخرى فيما قبل الأسرات ، ومع مجىء الأسرة الرابعة كان بناء الهرم الأكبر بالجيزة . وقد بناه خوفو لنفسه بعد مضى خمسمائة سنة فقط بعد مينا[1]. ذلك الهرم الذى يبلغ ارتفاعه أربعمائة وواحد وثمانين قدماً ويحتوى على مليونين وثلاثة آلاف قطعة من الحجر ، يبلغ وزن الواحدة منها طنين ونصف طن . كما استخدم فى بنائه حسب رواية هيرودوت ١٠٠ ألف عامل لمدة عشرين عاماً .

ولا شك أن هذه الدرجة من الكفاءة والتنظيم الذى حققه الفراعنة الأوائل فى هذا المضمار إنما يعتبر الأساس الأول لمبدأ « الملكية المقدسة » حينما تحددت معالم التراث المصرى تحديداً واضحاً فذهب شوطاً بعيداً فى التقدم قبل

---

(١) تعتبر الفترة من (٢٨٤٠ - ٢٣٦٠ ق. م) أى من الأسرة الثالثة إلى السادسة والتى تمثل عهد الدولة القديمة ، من ألمع عصور مصر ، ففيها بلغت أعظم مراتب الرقى والتقدم فى مجال الفن والحضارة ، وفيها بدأ بناء الأهرامات التى منها أهرام الجيزة والتى تنسب إلى ملوك الأسرة الرابعة : خوفو وخفرع ومنقرع . (المترجم)

وادى النيل

(شكل رقم ٣)

غيره فى أجزاء القارة الأخرى . ولقد قدر أن فلاحى مصر كانوا ينتجون ثلاثة أضعاف احتياجاتهم المحلية، وعن طريق نظام السخرة كان الفائض يعود بالخير ليس على موظفى الحكومة فقط ، بل أيضاً على كبار النبلاء والكهنة وغيرهم من أعضاء الطوائف الرسمية والقادة الذين تمرغوا فى ثراء الملك وحول فراعنتهم الجبابرة . ولقد كانت الوحدة السياسية هى الخطوة الأخيرة والحاسمة فى التطور المذهل الذى قطعته مصر شوطاً طويلا بدأ على الطريق الذى يبدأ بالمجتمع البسيط الذى عاش فترة المياه الراكدة والمستنقعات المترامية التى تغطيها الأعشاب فى وادى النيل لينتهى به إلى المجتمع المترابط الذى يضم عدة ملايين من البشر . ولقد كان السر وراء ذلك التقدم يكمن فى التربة الخصبة الفريدة التى مهدت وعاونت على التقدم فى الفكر السياسى والعقيدة الدينية لتنشرها فى ربوع البلاد لتصل إلى أوجها فى تلك الفترة .

وأخيراً . . أخيراً جداً ، بدأوا يزحفون خارج حدود الدولة فاتجهوا أولا إلى بلاد النوبة . . ثم لم يلبثوا أن اتجهوا إلى عشرات ، بل مئات الأبعاد الأخرى التى وصلت إلى أجزاء نائية من القارة — فوصلوا إلى الممالك المنهارة فى محاولة خطرة غير مأمونة العواقب وتحت ظروف مغايرة لتطبيق الفكرة المصرية الخاصة بالدولة . وهكذا— بعد أن مضى نحو أربعة آلاف سنة أو أكثر على بلوغ المملكة القديمة أوج عظمتها ومجدها استطاع Monomatapan أن يصل إلى جنوب نهر الزمبيزى وأن يتزوج من أخته الملكة وأن يقلد أوموكاما ملك البانيورو فى غرب أوغندا ممارسة طقوس « رمى الأمم » بالسهام النارية التى تطلق فى الجهات الأصلية الأربع والتى كانت تقام لهـا حفلات خاصة بمصر وفى الوقت الذى كانت تمارس فيه مثل هذه العادات وتتطور فى مصر — كانت كل من أوغندا وروديسيا تعيشان حياة بدائية بسيطة ، فالزراعة لا تزال تعتمد اعتماداً كلياً على أرقى أداة لديهم وهى عصا الحفر . والمجتمعات الإنسانية عندهم تتمثل فى مجتمعات صغيرة متفرقة بحيث لا يحتاجون إلى قائد بقدر حاجتهم إلى رب أسرة أو شيخ وقور يدير دفة حياتهم .

ولا يمكن أن يكون وضع مصر القديمة بالنسبة لإفريقية هو نفس الوضع بالنسبة لأوروبا . فهناك بلا شك اختلاف أساسى لكلا الوضعين . إذ ليس هناك من الدراسات سوى ما هو قائم فى ضوء الشواهد التاريخية والأثرية فيما يتعلق بعلاقة مصر بالأجزاء الواقعة جنوباً . وكانت هذه العلاقة تتلخص فى التجارة . وكما رأينا من قبل . فقد كان استغلال ذهب النوبة من التلال الواقعة بين النيل والبحر الأحمر . فقد بدأ فى الازدهار فعلا فى فترة ما قبل عهد الأسرات . ومنذ بداية هذا العهد على الأقل ، كانت هناك علاقات منتظمة بسواحل أرتيريا والصومال وجنوب شبه الجزيرة العربية ،حيث كانت أصناف البخور تنتج هناك ويشعلونه بكميات وفيرة فى المعابد المصرية . ومنذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد كانت هناك حملات حربية ضخمة تتم عن طريق البحر ، فى حين كانت الطرق البرية خلال النوبة أقدم من ذلك بكثير وكانت تستخدم وادى النيل ووادى عطبرة ، فى مثل هذه التنقلات . نقول كانت قد بدأت بالفعل تخلق نوعاً من الاتصال مع السودان . ربما كان التجار الذين عاصروا الفترة الأخيرة قبل الأسرات بمصر ،هم الذين حملوا الماعز والفؤوس الحجرية إلى زنوج شاهيناب . وفى بداية عصر الأسرات كانت مصر تزخر بأنواع شتى من البضائع التى كانت تجلبها من مناطق السود الجنوبية كالعاج والأخشاب الصلبة وغيرها من منتجات هذه الأقاليم . وتروى النقوش المؤرخة بنحو ٢٢٧٥ ق . م أن حرخوف وهو خادم الفرعون مرنرع Merenra قد قام بأربع حملات إلى الجنوب . وعاد من حملته الأخيرة ومعه ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والأبنوس والعاج والجلود والبومرانجات(١) كما جلب معه أحد الأقزام ليدخل به السرور إلى قلب سيده . وربما استطاع أن يتوغل جنوباً حتى النيل الأزرق ، حيث تتمثل فيها الآن مناطق جنوب الحبشة . وربما سار مع النيل الأبيض وبحر الغزال حتى وصل إلى غابات

(١) البومرانج Boomerang عبارة عن سلاح خشبى قديم ترى منه القذيفة فترتد إلى صاحبها . (المترجم)

الكونغو ، وإن كان هذا الأمر الأخير مجرد احتمال لم يتأكد بعد . ولا يزال البومرانج أو عصا القذف من الأسلحة المميزة للعناصر الزنجية القديمة، خاصة الأجزاء الشرقية والغربية من النيل الأبيض جنوب الخرطوم.

ولا شك أن مثل هذه الحملات التجارية التى قام بها حرخوف كانت لها آثار واضحة على الحضارة المادية فى مثل هذه الأقاليم المتسعة ، فمن المحتمل أن يكون المصريون أعضاء هذه الحملات قد أخذوا معهم حيواناتهم ذات الحافر وكذلك بعض تقاوى الخضروات ليبذروها فى هذا الإقليم المطير . ومن المحتمل أيضاً أن يكون كثير من العاملين بالصيد والجمع قد تلقوا المبادئ الأولية فى إنتاج الغذاء على أيدى أعضاء هذه الحملات . ومن المحتمل كذلك أن تكون الأدوات الموسيقية المصرية والسلال المزركشة قد جاءت وتركت آثارها عن طريق الوافدين ليقايضوا بسن الفيل أو جلد النمر ، منتجات مصر المحلية . وقد كانت هناك سوق خاصة يتم فيه مثل هذا التبادل وكان أثر المصريين فيما يتعلق بالمعتقدات والنظم الاجتماعية مقصوراً حتى العصور المتأخرة جداً من هذه الفترة على إقليم صغير فى النوبة العليا والتى مع بداية الألف الثانية قبل الميلاد كانت قد أصبحت خاضعة بالفعل للنفوذ المصرى . ولقد أسفرت عمليات التنقيب التى قام بها العالم « ريزنر » (Reisner) فى بلدة كرمه القريبة من دنفله، عن وجود حصون مصرية ترجع إلى الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة وقد زينت بنقوش تفيد بأنها كانت حصوناً استعمارية فى إقليم سودانى يسمى كوش ، ويقع فى المنطقة ما بين الشلال الثالث والرابع على نهر النيل . وبنهاية الألف الثانية قبل الميلاد كان النفوذ المصرى فى كل هذه الأقاليم قد توطدت أقدامه . وكانت طيبه (الأقصر) عاصمة مصر فى ذلك الحين وكان مما دعا ملوك الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين إلى الاستطراد فى التوسع جنوباً دون أى اتجاه آخر فى تلك الآونة هو وجود ما يعترض طريقها التقليدى فى التوسع نحو الشمال الشرقى . ونقصد هنا وجود إمبراطوريات بدأت تنمو مثل إمبراطورية الحيثيين Hittite ولقد غمرت النوبة تماماً فيما

بين الشلالين الأول والثالث بعناصر سكانية عديدة . وتدل الإحصاءات الخاصة بمعادن هذه المنطقة أنها كانت تستخرج منها ٤٠,٠٠٠ كيلو جرام من الذهب سنوياً وهو رقم قياسي لم تبلغه أى وحدة سياسية فى العالم كله حتى القرن التاسع عشر . ولا تزال تتمثل فيما وراء منطقة الكوشيين القديمة العديد من أشكال المدن المصرية . فمعابد آمون يوجد لها مثيل فى جبل بركال بالقرب من الشلال الرابع ومن المحتمل أن تكون هذه المعابد خاصة بعائلة ذات مكانة رفيعة فى منطقة جبل باركال فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد . ومن المحتمل جداً أن تكون أسرة جبل بركال هذه هى التى أنجبت ملوك الأسرة الكوشية المستقلة برغم تحضرها الشديد والتى كانت عاصمتها الأولى عند نباتا . ثم انتقلت بعد ذلك إلى مروى منذ أكثر من ألف سنة وحتى منتصف القرن الرابع الميلادى .

ولقد خيمت على مصر منذ قرابة الألف الأولى قبل الميلاد سحابة من التأخر . ففى الشمال كان الأشوريون قد خلفوا الحيثيين ويمثلون القوة الآسيوية الرئيسية . وفى مصر السفلى كانت أعمال السلب قائمة على قدم وساق على يد الشراذم الليبية الطامعة التى استطاعت أن تكون لنفسها ما يشبه المملكة فى منطقة الدلتا ، ولكنها لم تلبث أن تبددت ولقد أسفرت عمليات التنقيب التى قام بها كل من ريزنر ، ودوس دونهام عند نباتا أن أول مقبرة ملكية هناك لم تشيد إلا فى القرن التاسع قبل الميلاد ؛ وفى القرن التالى وفد حكام الكوشيين متوجين بعناصر القوة والمنعة إلى مصر فاستطاعوا غزوها بسهولة . وكان خمسة من هؤلاء الحكام قد دخلوا التاريخ المصرى ممثلين فى ملوك الأسرة الخامسة والعشرين . وفى هذه الفترة القصيرة من حكمهم لمصر أصبحت نباتا عاصمة العالم القديم كله . وفى هذه الفترة أيضاً دبر ملوك السودان مكيدة — بالاتفاق مع ملوك صيدا وصور حيث كان بنو إسرائيل ويهوذا — فى محاولة عابثة لوقف نمو مملكة أشور . وفى مصر كانت النهاية سريعة ؛ ففى عام ٦٧٦ ق . م وفى عهد الفرعون طهراقه Tahraga كان الأشوريون قد

احتلوا مصر السفلى تحت زعامة إسرحدون Esarhaddon وفى عام ٦٦٦ق . م استطاعوا أن يتركوا فى مصر العليا تحت زعامة اشوربانيبال Ashurbannipal وفى السنوات القابلة التى أعقبت هذه الفترة ، تمت أول حملة جرارة لسلب ونهب طيبه وتقهقر الفرعون طهراقه Tahraqa إلى الجنوب داخل مملكة الكوشيين حيث كانت حاضرة المملكة المصرية لا تزال باقية تحتل المنطقة . ثم وقعت مصر فريسة بعد ذلك للأشوريين ثم الفرس ثم الإغريق ثم الرومان على التوالى . وكان أهل كوش لا يزالون على علاقة متينة – ولكنها غير ممتزجة –.بالمدنية المصرية . وكانت مصر القديمة فى هذه الفترة – بالنسبة لوجهة نظر المؤرخين الغربيين – تنحدر بسرعة نحو عصور التأخر المظلمة التى عاشتها فترة طويلة بعد ذلك . وعلى الرغم من الاختلافات الواضحة بين ظروف كل من مصر وسائر أبعاد القارة الإفريقية الأخرى من الناحية التاريخية إلا أن مصر قد اقتربت كثيراً فى هذه الآونة من إفريقية السوداء ، فى وقت كانت بعض أجزاء إفريقية السوداء على الأقل أكثر قابلية من أى عهد مضى لتقبل آثار مدنية حضرية .

وفى خلال الفترة الطويلة التى عاشتها مصر كمستعمرة ، وكذلك خلال الفترتين أو الثلاث من بقائها كدولة مستقلة – كانت بلاد كوش – كما كانت مصر – تمثل أساساً قاعدة للقوقازيين البيض . فمركزها يقع عبر النطاق الجاف عديم الخصوبة عند شلالات النيل جنوباً ، والتى تخترقها طرق التجارة الرئيسية وفى القرن السادس قبل الميلاد تقريباً ، بدأ أهل كوش فى التوسع جنوباً وأصبحت عاصمتهم عند المنطقة الصحراوية جنوباً فى منطقة الشلالات والتى كانت آنذاك تمثل منطقة غنية بالأعشاب والأشجار على الحافة الشمالية للإقليم المدارى المطير صيفاً . وربما كانت حدودهم الجديدة إلى الجنوب قليلا من الخرطوم . أما عاصمتهم ، فقد كانت عند مروى شمال مصب نهر عطبره : وكانت هذه المنطقة المتسعة التى كانت تمثل نطاقاً للعناصر السوداء ، قد سيطر عليها الكوشيون فيما بعد . وكان سكانها تختلط فيهم العناصر القوقازية بالعناصر

الزنجية . ولكن كانت الأغلبية من العناصر الأخيرة بالطبع . ولم تكن أسباب هذا التوسع بخافية على أحد . فقد كانت طرق التجارة خلال فترة الانحطاط الأخيرة التى خيّمت على مصر أقل أهمية عما كانت عليه من قبل . كما كانت نباتا وما حولها قد سادها الجدب فأقفرت مراعيها وأجدبت . وعلاوة على كل هذا فقد تعلم الكوشيون من أعدائهم الأشوريين ملامح ثورة فنية خاصة باستخدام الحديد . فى الوقت الذى كانت فيه مصر لا تمتلك خام الحديد ولا الوقود اللازم لصهره – وكذلك حينما كان الكوشيون الشماليون يمتلكون الحديد ويفتقرون إلى الوقود – كان الكوشيون الجنوبيون يمتلكون كلتا المادتين الحديد : ووقود الصهر اللازم له وبصورة وفيرة للغاية مما دفع بالعالم الأثرى سايس Sayce إلى القول بأن أطلال مروى تمثل برمنجهام وسط إفريقية . فقد كانت مخلفات الحديد وبقاياه حول هذه الأطلال ومن بينها ، حافلة ببقايا الحراب والفؤوس الحديدية التى يستدل منها على أن مروى كانت تمتلك القدرة ليس فقط على سد احتياجاتها من مثل تلك الأدوات ، بل وتملك أيضاً التحكم فى النشاط التجارى الذى استطاعت أن تقوم به على نطاق واسع يشمل النطاق السودانى كله بإفريقية .

ومن الشواهد الأثرية التى أسفر عنها الكشف الذى قام به كل من جارستانج ودنهام Garstang Dows Dunham يظهر أن فترة ازدهار مروى وامتداد عصرها دام منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية العصر المسيحى تقريباً . ولا شك أنها اتصلت بدولة البطالسة فى مصر – واستطاعت أن تحافظ على تجارتها المزدهرة عندما كان النفوذ الإغريقى قد حل محل الفارسى بالإسكندرية . وربما ازداد ثراء مروى عن طريق صادراتها من السلع الإفريقية التقليدية – كالعاج والرقيق والجلود النادرة وريش النعام وخشب الأبنوس وربما الذهب أيضاً إلى العالم الخارجى والتى كانوا يجلبونها من داخل إفريقية من الحبشة إلى نهر النيجر . ولقد ازدادت فى هذه الفترة المبانى الأثرية الفاخرة التى تشير إلى ازدهار فن النحت المصرى الذى تمثل فى

الكتابة الهيروغليفية . كما تشير إلى ابتكار خطوط مروى التى لم تفسر بعد حتى الآن . وكانت الصناعات الحديدية منتشرة انتشاراً واسعاً ؛ ولقد استدل على ذلك من أهم معابد ذلك العصر والذى يوجد على قمة التل الذى يمثل أطلال العاصمة القديمة . كما يبدو تأثر هذه الصناعات بمثيلتها ليس فقط فى منطقة البحر المتوسط ، بل فى الشرق أيضاً . وقد وجدت آثار لبقايا قطع من الأقمشة القطنية فى المعابد وأماكن للمستودعات والخزانات والتى يبدو تأثرها بمثيلتها فى جنوب شبه الجزيرة العربية . ويستدل أيضاً من النحت البارز الذى يمثل ملك الكوشيين معتلياً ظهر فيل — على وجود أحد الفنانين الهنود على الأقل فى منطقة مروى — إلا أن مصر القديمة ظلت الأساس الأول الذى تستوحى منه مدينة مروى مؤثراتها . إذ يبدو تأثرها الواضح بالفن المصرى . فالآلهة التى يقدسونها فى معابد مروى هى نفس الآلهة المصرية كما أن ملوكهم ظلوا يطلقون على أنفسهم أسماء ملوك مصر السفلى والعليا . كما كانوا يحيون حياة الفراعنة المقدسة . ومن أجل ذلك تزوجوا من الأخت الملكية الكبرى Queen Sister كما مجدوا الأم الملكية Queen Mother [1] وأموا رعاياهم فى الصلوات الخاصة التى يمارسونها وقت بذر المحصول ووقت حصاده وارتفعوا إلى مصاف الآلهة فى نظر رعاياهم الذين ينتظرون منهم حكماً مطلقاً استبدادياً خليقاً بالآلهة .

ويبدو واضحاً أنه مع منتصف القرن الأول الميلادى كان لا يزال هناك عشرون ملكاً أو أكثر فى ذلك الإقليم قبل خمود الملكية تماماً ، وكان لعشرة منهم فقط مهندسين معماريين على درجة كبيرة من الكفاءة . أما آخر ستة ملوك منهم فلم يكونوا يمتلكون من المواد البنائية وفنونها ما يمكنهم من تغليف واجهات أهراماتهم الصغيرة المصنوعة من الطوب ولو بواجهة رقيقة

---

(١) تطلق عبارة Queen sister على ما يعرف فى التاريخ المصرى القديم بالأخت الملكية الكبرى وهى الملكة الشرعية زوجة الفرعون الشخصية . كما تطلق عبارة Queen Mother على الأم الملكية وهى أم الفرعون وكان لها نفوذ كبير فى الدولة . (المترجم).

من الأحجار . ولقد كان السبب فى تدهور مروى وفقرها دائماً هو ازدهار الإمبراطورية التجارية اكسوم Axum فى الركن الشمالى من مرتفعات الحبشة وكانت اكسوم بالطبع تمثل أحد فروع مملكة سبأ السامية التى تمت فى جنوب شبه جزيرة العرب خلال الألف سنة السابقة لميلاد المسيح . وكانت اكسوم كما عرفنا من البحارة السكندريين مع بداية العصر المسيحى قد أصبحت أكبر سوق لتجارة العاج فى شمال شرق إفريقية . وكانت عاصمتها تنمو فى أحضان مدنية زاخرة بالآثار الحجرية الرائعة كالقصور والمعابد والمسلات : وكان ملكها على علاقات تجارية بإغريق الإسكندرية يتحدث لغتهم ويتناول طعامه فى صحاف من الذهب والفضة ، كما يتسلح بأسلحة حديدية مستوردة . وكانت قوافله وحملات صيده تجوب أعالى النيل عند خط عرض الخرطوم . وخلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين كانت قوة اكسوم قد نمت وتوطدت وفى منتصف هذه الفترة كانت جيوشها قد جهزت آخر حملة لغزو الكوشيين فأحرقوا مدينة مروى وتسببوا فى انهيار المملكة انهياراً كاملا . فانتهت بذلك دولة مروى :

ويعتقد «اركل» Dr. A.G. Arkell أكبر مؤرخى وعلماء التاريخ السودانى أن هذا التخريب الذى حل بالكوشيين قد بدأ به تاريخ العصور الوسطى لنطاق السفانا الشبه صحراوى ابتداء من النيل حتى بحيرة تشاد وربما تعداها أيضاً . ويعتقد « اركل » أن ملوك الكوشيين قد تقهقروا بأسرهم غرباً إلى كردفان ودارفور . واستدل على ذلك بوجود نماذج من الطوب والفخار الخاص بهم هناك . كما خططوها بنظامهم المميز وتركوا فيها آثارهم وشعاراتهم الملكية . وإذا ثبت أن « اركل » على حق فيما يزعمه ، فإنه سوف يستطيع أن يحكم بأن أبناء الكوشيين الذين حكموا مصر فى يوم من الأيام قد امتد حكمهم ليشمل ذلك الإقليم الواقع بين النيل شرقاً وبحيرة تشاد غرباً . إلا أن الحفائر الأثرية فى تلك المنطقة تشير إلى أن مجرى الحوادث فيها لم يكن بمثل هذه البساطة ، وفى نفس الوقت فإن الافتراض الذى أتى به اركل ربما كان أقرب ما يمكن إلى الحقيقة التى يمكن أن نحصل عليها لعدة سنوات مقبلة .

— ٤ —

المدنية السودانية

مع النطاق الشبه صحراوى بإفريقية ، مبتدئين من البحر الأحمر شرقاً حتى مصب السنغال غرباً ثم إلى الجنوب مع المرتفعات الوسطى التى تمثل العمود الفقرى لشعب البانتو عند منابع النيل حتى روديسيا الجنوبية — مع هذا الامتداد الكبير نستطيع أن نحدد محور المدنية السودانية(1) كما سوف نطلق عليها فى هذه الدراسة . ومن أهم ملامح هذه المدنية اتحاد عناصر إفريقية مختلفة تحت لوائها ، وكلها ذات مصالح مشتركة تنتظمها ممالك لها نظم متشابهة إلى حد يبعثنا على القول بأنها استمدت جذورها من مصدر عام واحد، وكان لكل مملكة من تلك الممالك ملك تقدم له فروض الولاء والطاعة . فقد كانت تنسب إليه مصادر القوى الكهنوتية المقدسة . وكان الملك يقبض على زمام الحكم بقوة وعزم ، بعيداً عن العامة الذين يتعامل معهم من وراء حجاب خاص ولا يراه أخلص خلصائه إلا نادراً . ربما فقط عندما يتناول غذاءه أو شرابه . وفى كل عام يقوم الملك بتقليب أول رقعة من أجل الزراعة كما يبذر أول كمية من الحبوب فى الأرض . وتعتمد خصوبة الأرض وانتظام الغيث على إرادته الطبيعية . كما أن الملك لا ينبغى أن يموت موتاً طبيعياً . وإنما يعجل بموته عندما تتقدم به السن أو يصاب بمرض غامض . فيقدم إليه السم ليتناوله ، أو يخنق خنقاً مقدساً وتحنط جثته بعد وفاته وكذلك يفعل سائر أفراد حرسه

---

(١) يطلق عليها العالم الأنثربولوجى الألمانى هـ . بومان اصطلاح السودانية الحديثة Neo-Sudanese تمييزاً لها عن مدينة أقدم أنشأها الزنوج واصطلح على تسميتها المدينة المتزنجة القديمة Palaeo-negritic Civilization . (المؤلف)

الخاص . كما تتضمن حفلات الدفن الرسمية عادة تقديم القرابين من الضحايا البشرية الذين يأخذون شعورهم وأظافرهم من الجثث لتصبح جزءاً مقدساً من المقبرة الملكية . وتشير الكتب الكهنوتية الخاصة لهذه الممالك إلى ارتباطها بالقمر أو بالنار المقدسة التى تبقى دائماً وفى كل مكان مشتعلة تحت حراسة مشددة كرمز حى لحياة الملك وسلطانه .

وكانت مثل هذه الممالك تأخذ شكل التجمعات التى تلتف حول نواة تتمثل فى دولة كبيرة أو أكثر . ولكن كانت هذه الممالك المتجمعة حول النواة تمثل ممالك عقيمة أصغر من النواة حجماً وأقل تنظيما . ولقد كانت مثل هذه الممالك تشير دائماً إلى وجود مركزية فى الكيان السياسى . فى حين كانت الممالك المتجمعة تمثل مجرد عائلة غير مترابطة لم تصل بعد فى تنظيمها مبلغ النواة . كما لم تكن الدولة السودانية النموذجية دولة إقطاعية فى الوقت الذى لم تكن فيه أيضاً تعتمد على وضع وراثى أو على قوة أسرة كبيرة فى الدولة . لقد كانت أقرب ما تكون إلى الدولة ذات الحكومة الاستبدادية . حكومة بلا أوراق ولا حبر ولا مكاتب ولا أجهزة تليفون . فكلها أجهزة تعتمد على موظفين يعينهم الملك وفق رغباته الخاصة ، يعينون وينقلون ويرقون ويفصلون طبقاً لرغباته السامية . وكانت تكفى مجرد إيماءة من رأسه المقدسة أو كلمة من فمه المقدس لتعبر عن هذه الرغبة وكان يدور فى فلك الملك كوكبة من الموظفين يزيدون أو يقلون طبقاً لحالة الدولة الاقتصادية . ولهم صبغتهم الرسمية فى الدولة . كما كان هناك من الألقاب ما يشبه الألقاب الفرعونية القديمة كلقب الأم الملكية والأخت الملكية . وكذلك عدد محدود من المناصب يطلق على أصحابها الزوجات العظام . وكان على رأس الإدارة عدد قليل من الرؤساء ذوى المكانة السامية فى الدولة . وعادة كانوا يبلغون فى عددهم أربعة رؤساء : ومن هؤلاء الرؤساء ينحدر هرم الإدارة من رؤساء الأقاليم والمقاطعات التابعة لحكومة الكهنة يختارون عادة من خدم وأبناء وأحفاد هؤلاء الرؤساء بعد أن يتلقوا تعليما خاصاً فى القصور الملكية . ولقد كان الغرض الرئيسى من هذه

الإدارات هو جمع الإتاوات والهدايا للملك ولحاشيته شبه الحضرية فى عاصمته وكذلك لجمع « مواد » البذخ المختلفة كالنساء والجعة والمواد الغذائية والمواد التجارية النادرة كالعاج والجلود والذهب والنحاس والملح والكولا ولقد كانت التجارة الخارجية احتكاراً ملكياً باستمرار . كما كان الفنانون والعمال المهرة وسائر طوائف المتخصصين يتركزون فى العاصمة الملكية ولهم نفوذ خاص تؤيده الدوائر الملكية . ولذلك كانوا يميلون إلى حب التسلط إحساساً منهم بمكانتهم التى جاءت مما أضفته عليهم الدوائر الرسمية من مميزات ؛ خاصة أولئك العاملون فى أشغال المعادن . ونستطيع أن نؤكد فى هذا المجال أن المملكة السودانية كانت تتكون أساساً من فرض كيان جديد فوق مجتمع القرية بمن فيه من فلاحين وزراع وليست نتيجة تطور المجتمع تطوراً طبيعياً . فأساس تكوينها هو الفتح والغزو ولذلك فلم يتردد بومان وغيره من القول بعد دراسات أثنولوجية أن هذه الممالك كانت من صنع عناصر دخيلة أكثر استنارة من الوطنيين الأصليين . لهذا كانت الدولة السودانية امتداداً لغيرها مما يجاورها .

وتنبغى الإشارة إلى أن الطرق الأثنوجرافية لدراسة النظم السياسية لعدد من الممالك تتفاوت تفاوتاً زمنياً كبيراً ، دراسة مقارنة ، تعتمد على وصف أمور متباينة جمعت من عدد كبير من الدول فى أواخر أيامها فى معظم الأحيان فى فترات مختلفة ، يجب أن تتم بحرص شديد . فمثل هذه الطرق ربما كانت تشخيصاً أولياً للمشكلة لا أكثر وهذه المشكلة قد لا تجد لها جواباً إلا فى صفحات التاريخ الذى نجهله نحن . فالمؤرخ لا يقنع بافتراضات غامضة ، بل إنه يبحث فى التاريخ المعروف لمثل هذه الممالك ويجب أن يبحث بقدر الإمكان ترتيب الأحداث التى ترويها الشواهد التاريخية . لهذا نقول إن تاريخ بعض هذه الممالك السودانية ليس سوى امتداد لممالك أخرى مجاورة . أو فى ضوء تاريخها الحالى دون ما علم بجذور تاريخها ومهده . وهناك ثلاث حالات تفيد بأن مثل هذه الممالك كان موجوداً بالفعل منذ الألف الأولى قبل الميلاد .

فمملكة غانا بمركزها الذى يبعد خمسمائة ميل عن شمال غرب غانا الحالية — تعتبر من المناطق التى استطاع الفزارى الجغرافى العربى أن يكتب فيها فى القرن الثامن . وبعد ثلاثة قرون ، حينما صارت مملكة غانا معروفة للعالم الإسلامى معرفة لا بأس بها ، وذلك عن طريق تصديرها للذهب إلى شمال إفريقية ، استطاع الجغرافى المغربى « البكرى » فى قرطبة أن يصفها بما يفيد اتخاذها الأوثان فى عبادتها ؛ يقول البكرى :

« بدأ الحفل بقرع الطبول التى تسمى الدبه Daba المصنوعة من الكتل الخشبية المجوفة . وحينما وصل الملك خرت الجموع المحتشدة ساجدة تهيل على رءوسها الأتربة إظهاراً للتحية والاحترام للملك . . إن دين الشعب فى غانا عبادة الأوثان وتقديسها وحينما يموت الملك ، يبنون فوق قبره قبواً ضخماً من خشب الساج . ثم يحضرونه مسجى على فراش مغطى بستائر . ثم يضعونه داخل ذلك القبو ومعه أدوات الزينة الخاصة به ، والحراب التى كان يمتلكها وأوانيه التى كان يستخدمها فى مأكله ومشربه مليئة بمختلف أنواع الطعام والشراب . ثم يغلقون باب القبو ، ويغطونه بالأبسطة فى الوقت الذى تكون فيه الجماهير من الشعب المحتشد يهيلون التراب فوقه حتى يصير أشبه بالأكمة الكبيرة . وحينئذ يحفرون حول هذه الأكمة خندقاً بحيث يتعذر الوصول إليها إلا من اتجاه واحد هو اتجاه مدخل المقبرة . ثم تقدم القرابين والمشروبات المسكرة ترحماً على ملكهم الراحل » .

أما المملكة الثانية بعد مملكة غانا فهى مملكة كانم فى شمال شرق بحيرة تشاد وكذلك مملكة زغاوة التى كتب عنها اليعقوبى فى القرن التاسع عشر . فى حين كتب عنها أيضاً المهلبى فى القرن العاشر بما يشير بوضوح إلى أن هذه الممالك كانت ممالك دينية على غرار الممالك السودانية . يقول :

« تعتبر مملكة زغاوه من أعظم الممالك التى عاصرت الممالك السودانية فعلى حدودها الشرقية كانت مملكة النوبا Nuba الواقعة عند أعالى النيل . وكانت

المسافة بينهما تستغرق عشرة أيام، لقد كانوا عبارة عن عدة قبائل تعيش فى المنطقة . وكانت طول أرضهم تبلغ رحلة تسعين يوماً بين المساكن والحقول التى تترامى على جانبى الطريق وكانت مساكنهم مصنوعة كلها من الجص وكذلك كانت قلعة الملك . ذلك الملك الذى كانوا يجلونه ويقدسونه غير مقيمين وزناً لله العظيم . ويتخيلون زوراً وبهتاناً أنه لا يأكل الطعام ولكنه كان يأكله سراً فى مسكنه . ولو أن فرداً من رعيته جرأ على اعتراض طريق الجمال التى تحمل إليه الزاد فإن الملك لا يلبث أن يرديه قتيلا فى الحال . لقد كان هذا الملك يمثل السلطة الوحيدة على رعاياه . وكان يأخذ ما يريد من ممتلكاتهم . وكانت حيواناتهم تتمثل فى الماعز والأبقار والجمال والخيل . أما الدخن فكان يمثل غلة الزراعة الرئيسية فى أراضيهم كما كانوا يزرعون معه الفول والقمح . وكان معظم العامة يعيشون عرايا أو يغطون أجسامهم بقطع من الجلد . وكانوا يقضون وقتهم فى الزراعة ويتعهدون حيواناتهم بالرعاية . وكان دينهم يتمثل فى عبادة الملك الذى كانوا يعتقدون أنه يهب الحياة والموت والصحة والمرض .

وأخيراً كان ما جاء به الرحالة والجغرافى والكاتب العربى الكبير المسعودى فى بغداد الذى استطاع أن يسافر بنفسه بحراً عن طريق الخليج العربى متجهاً إلى الجنوب حتى وصل إلى صوفالا على الساحل الشرقى لإفريقية فى موزمبيق حالياً وذلك فى عام ٩٢٢ ميلادية . وقد سجل بصورة واضحة النشاط التجارى الهام فى الذهب والعاج التى كانت تصدر بحراً من صوفالا إلى عمان ومنها إلى الصين والهند ، والتى كانت تأتى من الظهير الأرضى لصوفالا حيث كانت تأتى أصلا من دولة إفريقية كبيرة فى روديسيا الجنوبية . وكان ملك هذه الدولة يلقب بعدة ألقاب سامية مثل : ابن السيد الأعظم ، وإله الأرض والسماء وكان أول الحكام الإفريقيين معرفة بالعرب الذين كانوا يترددون على الساحل الشرقى لإفريقية . وهناك احتمال كبير فى أن المسعودى كان يقصد المملكة التى كان حكامها مسئولين عن المراحل الأولى للمبانى الحجرية

عند زمبابوى الكبرى والتى يؤرخها علماء الآثار اعتماداً على طريقة التاريخ الكربونى(١) بالقرن الحادى عشر. ويتضح من وصف الرحالة البرتغاليين للمجتمعات التى وجدوها فى هذا الإقليم منذ خمسة قرون أن معظم الملامح الرئيسية لنظام الممالك السودانية السياسى تتمثل فى تلك المجتمعات برغم انهيار كيانها السياسى .

ويعتبر التوزيع الجغرافى لهذه الممالك الإفريقية التى ترجع إلى الألف الأولى للميلاد دليلا على وجود أكثر من مملكة من هذا النوع . ولذلك فيجب أن نفترض أنها كانت الممالك الوحيدة التى بهرت المثقفين من العالم الخارجى وجذبت انتباههم . كما يجب أن نفترض أيضاً أنه بعد التقدم الذى أحرزته إفريقية فى العصر الحديدى وما كانت تتبعه بدقة فى تأريخ الوقائع — سوف تظهر إلى الوجود سلسلة منتظمة من الشواهد الثابتة تشير إلى مراكز المدنية السودانية المبكرة . وربما رجعت بأصولها إلى أبعد مما تشير إليه المراجع المخطوطة . فمثلا وجد علماء الآثار البلجيكيين حالياً على ضفاف نهر لولابا العليا مقابر عديدة أرخت بصورة مبدئية بالقرن الثامن أو التاسع الميلادى وبها مقابر تشير إلى أنه فى هذه الفترة كان نحاس كاتنجا قد بدأ تعدينه وصهره إلى حلى وسبائك تأخذ شكل حرف "H" وكانت تستخدم كعملة للتبادل . ولم تظهر حتى الآن مقابر ملكية خاصة ، أو ما يشير إلى وجود عواصم تثبت تقدم العناصر الإفريقية هنا ورقيها تكنولوجياً . ولم تختلف هياكل هؤلاء عن مثيلتها لشعب اللوبا (Luba) الذين انتظمتهم ممالك من نوع الممالك السودانية . ولكن استناداً إلى التقاليد التاريخية لهذه المنطقة فإنها تبدو مشابهة إلى حد كبير

---

(١) هذه طريقة جديدة فى التأريخ ، اكتشفها الدكتور ليبنى سنة ١٩٤٥ ، وتعتمد على قياس مقدار الكربون ١٤ المشع ، وهــذا الكربون موجود فى كل المواد العضوية ، الذى تمتصه أثناء حياتها ، ثم يبدأ فى الإشعاع بعد موت المادة العضوية ، بسرعة منتظمة أمكن الوصول إليها . فمعرفة ما تبقى منه فى المادة العضوية الميتة يبين بدقة الوقت الذى كانت فيه حية بالسنين . وقد استخدمت هذه الطريقة بنجاح كبير فى تقدير عمر الآثار . (المترجم)

لتلك الممالك . وإلى الشمال فى أوغندا ورواندا أورندى ، والأجزاء المجاورة لإقليم كيفو بالكنغو حيث كان تكوين الممالك السودانية القديمة أولا أو إعادة تكوينها ثانياً ، قد تأثر فى بعض التفصيلات خلال خمسمائة سنة بهذه المناطق وخلال تاريخها التقليدى كان الاكتشاف الحديث للسدود الترابية والتى تشير إلى أن تاريخها يرجع إلى عهد أبعد ، إلى الوراء ، إلى عصر أشبه بعصر الحضارة التى قامت فى روديسيا وكاتنجا . وإلى الشمال الشرقى من أوغندا كانت هناك ممالك شمال غرب الحبشة الوثنية المعروفة باسم كافا kaffa ، اناريا Enarea . وكانت هذه الممالك تقدم دليلا يؤيد ذلك .

ولو أن أثار التنظيم السياسى للممالك السودانية فى شمال شرق إفريقية وفى إقليم البانتو لا يزال – باستثناء روديسيا – أمراً تخمينياً إلا أن المناطق شبه الصحراوية الواقعة إلى الغرب من مملكة كانم كانت أقل تنظيماً من ذلك بكثير على الرغم من أن الدقة النسبية لتأريخ ذلك لا تزال تحتاج إلى تأييد . فلقد سجلت العادات والتقاليد على يد العلماء السودانيين الذين كانوا يدينون بالإسلام فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . وكانت تشير إلى أن أصولا واحدة من هذه الممالك السودانيه على الأقل كانت ترجع إلى مملكة صنغاى الواقعة إلى الشرق من ثنيه نهر النيجر العظمى . والتى تعتبر إلى حد كبير أقدم من مملكة كانم وغانا القديمة . وإلى الشمال من نيجيريا بجوار جمهورية النيجر الحالية كانت أصول ممالك الهاوسا قد استقرت فعلا قبل نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ، فى أرض الفلتا العليا فى وسط ثنية النيجر فى اتجاه أراضى النوبى Nupe واليوربا فى وسط وغرب نيجيريا ، برغم أن الكثير لم يكتشف بعد

وبعد هذا البحث الموجز يمكن أن نخرج بنتائج رئيسية ، أولها أن تكوين الممالك فى النطاق شبه الصحراوى ونطاق البانتو بإفريقية كان عبارة عن عملية تضمنت انتشار قدر مشترك من الأفكار السياسية من منطقة إلى أخرى . وثانى هذه النتائج أن الخطوط الأولى لانتشارها كانت خطوطاً داخلية تسير على محورين رئيسيين غرباً وجنوباً ابتداء من نقطة الأصل فى أعالى وادى النيل .

وثالث هذه النتائج أن أساس هذا القدر المشترك من الأفكار العامة قد وضع قبل ظهور الإسلام والمسيحية . بمعنى أن الأفكار الرئيسية الخاصة بهذه النظم كانت تسير مخالفة مثيلتها لدى العقيدتين الإسلامية والمسيحية . وعلى هذا يمكن اعتبار وادى النيل نقطة انطلاق ولا بد أن تكون هذه العناصر قد بدأت تنتشر منها خارج هذا الإقليم قبل أن يصل الإسلام والمسيحية إليها . فالإسلام لم يبدأ انتشاره بصورة جدية فى الإقليم السودانى النيلى قبل القرن الحادى عشر . أما المسيحية فقد انتشرت من مصر إلى النوبة Nubia فى القرن السادس . وبحلول القرن السابع كانت المسيحية قد وطدت أقدامها فى المنطقة لتقف سداً منيعاً أمام التوسع الإسلامى نحو الجنوب قرابة أربعة قرون . ولو أردنا أن نبحث فى جذور المدنية السودانية فعلينا أن نعود إلى الوراء لنقلب صفحات التاريخ السودانى خلال الستة قرون الميلادية الأولى . ففى بداية هذه الفترة كانت مملكة مروى لا تزال فى أوج مجدها . وليس هناك شك فى أن المثل المصرية القديمة التى تسربت خلال مروى هى العنصر الأساسى فى المدنية السودانية . ولم يكن هذا يمثل فصول القصة كاملة . فبحلول القرنين الثالث والرابع ، كانت السيادة السياسية والاقتصادية لحضارة اكسوم ذات الأبعاد العميقة الجذور . ولكن مع نهاية القرن الرابع بدأت اكسوم تتحول إلى المسيحية فصارت دولة تدين بهذا الدين متمتعة فى نفس الوقت بنفوذ سياسى ودينى مرتبطة بالدولة البيزنطية فى مصر . ثم اتسعت عن طريق تكريس جهودها للتوسع فى جنوب شبه الجزيرة العربية بعد أن عبرت مضيق باب المندب . وفى هذا الاتجاه يجب أن نبحث فى العنصر الثالث الرئيسى والخطير من مكونات المدنية السودانية .

ولا يمكن البحث فى جذور هذا العنصر وفهمه فهماً كاملا بدون الوقوف على الدور الخطير الذى لعبته بعض الأسر الوافدة من اليمن قبل ظهور الإسلام لتنتشر بتقاليدها على امتداد إقليم السودان الأوسط الغربى . حقيقة أتت مثل هذه التقاليد فى إفريقية من المناطق التى شملتها المدنية السودانية ، ولكن هذه

التقاليد الوافدة كانت مستترة فى هذه المرة تحت النفوذ الإسلامى . كما أن القالب الذى حفظت فيه كيانها وصاغته يوضح نفوذ التقاليد العربية الإسلامية واحتفاظها بالعناصر العربية فى عصر الجاهلية وليس من شك فى أن هذه التقاليد بمفهومها الحالى كانت تستطيع فرض تفسيرات نظرية وضعها علماء المسلمين الأوائل لتلائم الموقف الذى وجدوه فى السودان . ولا شك أنه كانت هناك أسباب قوية تدفع بالاعتقاد بأن جنوب غرب آسيا بصفة عامة وشبه جزيرة العرب بصفة خاصة طردت سكانها الزائدين على حاجتها عبر البحر الأحمر وبرزخ السويس قبل تدفق العناصر الإسلامية إلى إفريقية فى بداية القرن السابع الميلادى . وكان قدوم الجمل إلى إفريقية — التى كانت قد تأثرت بالرومان والبيزنطيين فى شمال إفريقية خلال الخمسة قرون الميلادية الأولى — قد صحبته هجرات بشرية تأثرت بها جماعات البدو فى الصحراء الكبرى والصحراء الليبية . وتأثرت كذلك بتقدمها الحضارى . ومرة أخرى كانت فترة الانهيار التى حلت باكسوم واليمن خلال القرن السادس قد ارتبطت بفترة المجاعة التى تسبب فيها انهيار سد مأرب الجبار فى الربع الثالث من القرن السادس تقريباً ، حيث حدثت هجرة ضخمة للعناصر اليمنية الزراعية المستقرة عبر البحر الأحمر إلى السودان . ومرة أخرى ينبغى أن نتذكر أن اليمنيين كانوا قد تخلصوا تماماً من احتلال اكسوم لهم بعد أن طلبوا العون من الفرس الساسانيين ، فى عصر كسرى الأول وكسرى الثانى اللذين لم يلبثا أن استجابا لاستغاثتهم ، فلم يتجهوا إلى اليمن فحسب ، بل اتجهوا إلى مصر البيزنطية . غير أن الفتح الفارسى الساسانى لمصر ، لم يستمر أكثر من عشر سنوات . ولكنها كانت فترة حاسمة بالنسبة لتاريخ المدنية السودانية . فقد أعقب حضارة مروى حضارة المجموعة س[1] (X. Group) فى شمال النوبة . وتشير أدواتها إلى

(١) يقسم علماء الآثار آثار النوبة وحضاراتها إلى أقسام ينسبونها إلى مجموعات بشرية دخلت النوبة فى فترات تاريخها المختلفة ، ويسمون كل مجموعة بأسماء مجهلة ، هى المجموعة أ ، والمجموعة ب والمجموعة ج والمجموعة س . وكل مجموعة تقترن بحضارة أو مرحلة حضارية معينة ، وربما بمجموعة بشرية معينة أيضاً. انظر آركل : تاريخ السودان حتى ١٨٢١ بالانجليزية (المترجم).

وجود النفوذ الساسانى بمنطقتها فقد كان من أدواتهم التى وجدت بعض الشكائم والبفط الحديدية التى وجدت فى عدة مناطق سودانية متفرقة .

وعلى الرغم من أننا لم نتوصل بعد إلى تقارير نهائية مضبوطة عن أصول المدنية السودانية إلا أن هناك من الدلائل ما يشير إلى تأثرها بأفكار المصريين وعناصر جنوب غرب آسيا التى وصلت إليهم فى العصر المروى وما بعده مباشرة . وبالمثل كان للعناصر العديدة التى وصلت من قلب إفريقية أثر كبير فى تمييع هذه المدنية وتعديل مظاهرها الرئيسية ، وعلى هذا فإن الحضارة السودانية كانت نمواً طفيلياً تفرض نفسها على الأساس الزراعى السابق لظهورها متأثرة بالمجتمع الزراعى القديم فى الوقت الذى أعطتها هى فيه أفكاراً جديدة عن التنظيم السياسى والتكنولوجى خاصة فى مجالات استخراج المعادن وتعدينها وكذلك فى التجارة . ويبدو أن رسل هذه الحضارات قد تحركت إلى الجنوب الغربى من وادى النيل – وانتشرت بصفة خاصة بمساعدة الحصان والفرسان المقاتلين الذين شقوا طريقهم خلال الشعوب الزراعية التى كانت موجودة آنذاك فى جنوب الصحراء الكبرى واستطاعوا أن يتحكموا فى طرق التجارة التى تعبر الصحراء الكبرى ويسيطروا عليها ، وتصل إلى العناصر الرومانية والبيزنطية ثم أخيراً للعناصر الإسلامية فى شمال إفريقية .

وربما كانت هناك فى القرن الإفريقى خلال الفترة التى عاصرت حضارة اكسوم السابقة للمسيحية – طراز سابق لمجموعة كاملة من الممالك السودانية انتشرت فى المنطقة ليعمل فى استغلال الذهب والعاج فى الأجزاء الشمالية الشرقية الداخلية . كما أنه ربما وصل المدنيون الأوائل وتجار العاج إلى إقليم البحيرات وكاتنجا وروديسيا من هذا الاتجاه ، مستخدمين أرقى الوسائل الفنية لنشر نفوذهم السياسى مستندين إلى تقاليدهم الخاصة ، فتمكنوا من الوصول بذلك إلى الأجزاء الجنوبية معلنين افتتاح طرق جديدة توصلهم إلى الموانىء البحرية على ساحل إفريقية الشرقى . ذلك هو جزء بسيط من إفريقية لا تزال معلوماتنا عنه فى حاجة إلى المزيد : ولكنه من الضرورى على الأقل لفهم

واضح للعصور التاريخية المتأخرة لهذه القارة من أن نعترف بالحقيقة التى تقول بأن المجتمعات الزراعية المفككة التى تحولت إلى دول لم تظهر أساساً إلا فى الأجزاء الوسطى من القارة وليست فى الهوامش الشرقية أو الغربية . هذه الحقيقة ستجعل من تاريخ إفريقية وحدة لا تتجزأ . الأمر الذى كادت تفتقده إفريقية لو أن القوى التى دفعت لقيام هذه الممالك قد وفدت إليها عبر المحيطات سواء من الشرق أو من الغرب .

— ٥ —

مدنية البحر المتوسط فى شمال وغرب إفريقية

فى الفصلين السابقين استطعنا أن نقف على بعض أسباب الانتشار الكبير للمساهمة التى أسدتها مصر القديمة لإفريقية الزنجية ، خاصة النفوذ المصرى الذى تغلغل إلى مملكة الكوشيين فى سودان وادى النيل . وكما كان لمصر مثل هذه العلاقات مع الجنوب ، فقد كان لها علاقات منتظمة بدول الشمال عن طريق تجارتها البحرية ، خاصة مع سوريا وقبرص وكريت . ولهذا أسهمت الحضارة المصرية بنصيب فى كيان مدنية البحر المتوسط بلا جدال ويجب ألا ننكر حقيقة هامة فى تاريخ إفريقية ، وهى أن أهل هذه القارة فى الأجزاء الشمالية منها ، ظلوا — طوال ألف وخمسمائة عام منذ تأسيس أول مستعمرة فينيقية فى شمال القارة فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وحتى فتح العرب لها فى القرن السابع الميلادى — تابعين لمدنية البحر المتوسط ومتأثرين بنفوذها . ولم يكن هؤلاء يمثلون أية عناصر زنجية فبشرتهم قوقازية بيضاء ، ولقد كان الإغريق يلقبونهم بالليبيين تمييزاً لهم عن الأثيوبيين أو ذوى البشرة المحترقة الداكنة كما كانوا يسمون الزنوج . وكان الليبيون هؤلاء تابعين فى لغتهم إلى عائلة اللغات الحامية ، كما كانوا أيضاً يعتبرون أسلاف بعض الجماعات التى تعيش فى عزلة كالبربر فى الإقليم الجبلى من شمال القارة . ولقد شمل امتدادهم مسافة طويلة على أطراف بلدان البحر المتوسط فى إفريقية ، وعلى الرغم من هذا ، فلم تسلم العناصر الزنجية فى جنوب الصحراء الكبرى من خطورتهم .

ولقد كان ثمة امتداد آخر للتجار الفينيقيين إلى الغرب من الموانى البحرية

لسوريا . فقد استغلوا نشاطهم فى التجارة بمنطقة حوض البحر المتوسط الشرقى فى مثل هذا الانتشار الأمر الذى كان من الدوافع الأولى لانتشار مدنية البحر المتوسط فى شمال إفريقية . كان هؤلاء الفينيقيون يطمعون فى بادئ أمرهم فى الحصول على المعادن النفيسة بشبه جزيرة ايبيريا أكثر من طمعهم فى الاستحواذ على تجارة القارة الإفريقية . ولما كانوا يحبون الأسفار الطويلة ويميلون إلى التعامل مع الأراضى التى يعرفونها جيداً ، فقد أقاموا لهم مواقع متباعدة على مسافات ثابتة على طول الساحل الشمالى لإفريقية . ولهذا كان لموقع قرطاجنة الممتاز كأحد هذه المواقع أهمية كبيرة إذ كانت تستطيع بهذا الموقع أن تتحكم فى مدخل حوض البحر المتوسط الغربى لقربها من مضايق صقلية . وسيطرتها على السهول التونسية التى تعتبر أكبر مساحة زراعية فى شمال إفريقية بعد مصر. وحينما كانت المدن الأم فى سوريا قد فقدت استقلالها أخيراً فى خلال القرن السادس قبل الميلاد ، كانت برقة قد أصبحت مستعمرة إغريقية . فى هذا الوقت أصبحت قرطاجنة هى العاصمة لسلسلة المدن الممتدة على الساحل الشمالى لإفريقية ابتداء من خليج سرت حتى الساحل المراكشى المطل على المحيط الأطلنطى .

ولم يتعد كثير من مراكز الاستقرار الفينيقية مرحلة نشأتها الأولى كمحطات بحرية ولم يكن عدد المستعمرين كبيراً . وربما عجزت مستعمرات فينيقيا عن النمو فى إفريقية نمواً كبيراً . ومع هذا فقد استطاعت قرطاجة وتوابعها من أن تنشر نفوذها على نشاط البربر الوطنيين بالمنطقة . فلقد تسلل النفوذ القرطاجنى على هؤلاء البربر عن طريق سيطرتها العامة على الأجزاء الشمالية الغربية من إفريقية والتى يمكنها الوصول إليها بسهولة ، وكذلك لنفوذ فينيقيا الواضح على السهل التونسى . ولما كان الفينيقيون بارعين فى انتهاز فرص التجارة أنى وجدوها ، ولما كانت مهارتهم فى التجارة تعززها الزراعة فقد تحولت مراكز الاستقرار مهما كانت صغيرة على الساحل الإفريقى إلى مدينة صغيرة تمكن رجال القبائل من البربر من اكتساب بعض المعارف عن الحكم والإدارة عن طريقها .

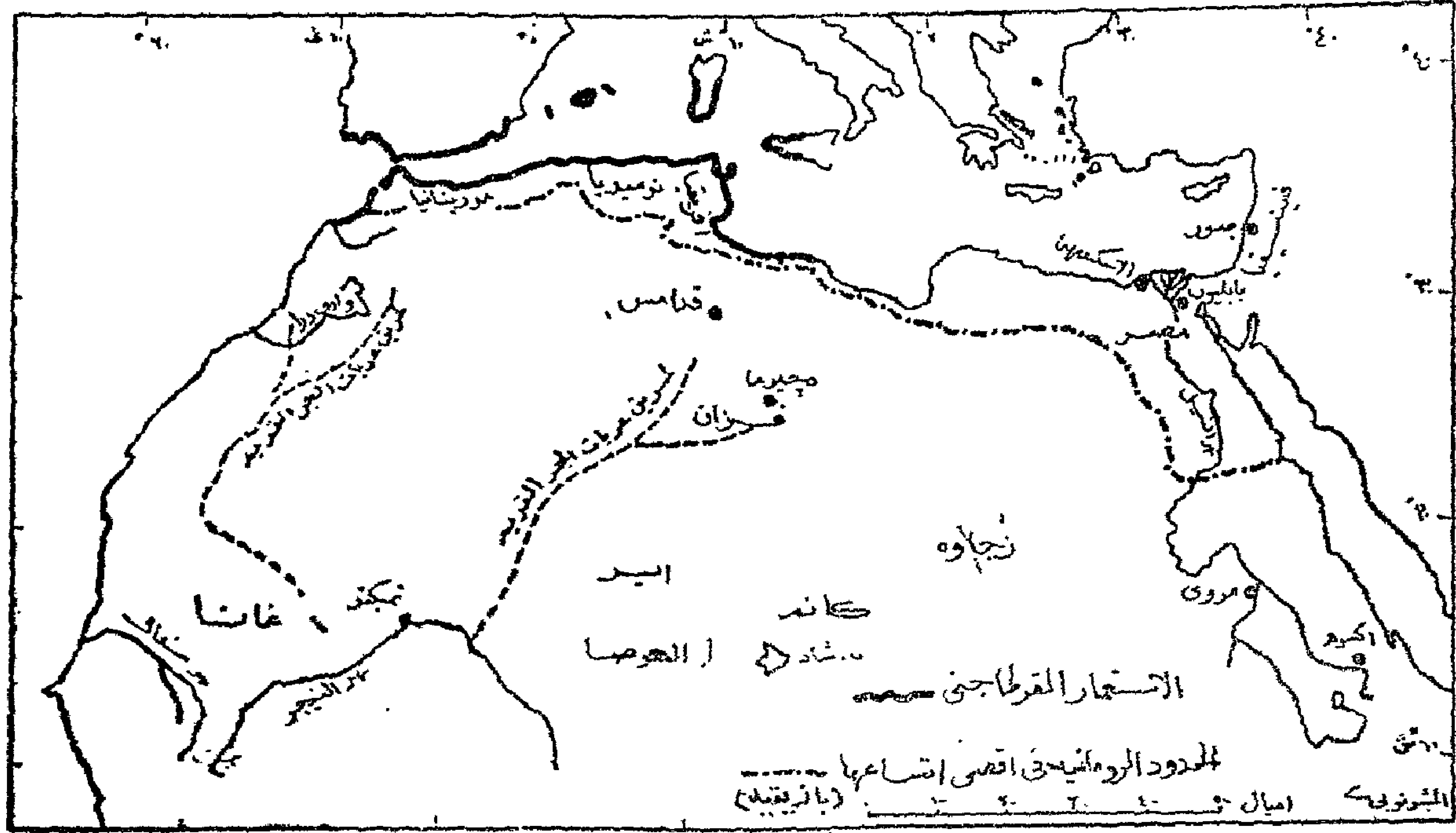
أما فى المناطق الزراعية الخصبة الفسيحة ، أو فى المناطق التى يمكن أن يمارسون فيها نشاطهم التجارى بصورة كبيرة غير محلية ، فقد ظهرت المدن ذات النفوذ والسلطة الواضحة فيما حولها من المناطق . ولقد كان نمو قرطاجنة نفسها أحد هذه الظاهرات . وربما كان السبب فى ذلك يرجع إلى مسئولياتها تجاه التوسع الفينيقى الذى ازدادت الحاجة إليه بعد نشوب الحرب بينها وبين الرومان أولا للسيطرة على صقلية وثانياً للمحافظة على كيانها . فقد نما سكانها نمواً كبيراً . فبلغوا نصف مليون نسمة فى عددهم . ولقد كان على هذه المدينة أن تحمى نفسها عن طريق توسعها فى مناطق الحوز الجغرافى الخاص بهـــا (الظهير الأرضى) لهذا تحولت الأجزاء الشمالية الخصبة من السهل التونسى ليصبح من أملاك قرطاجنة فى الوقت الذى بدأت فيه عناصر البربر تتحول إلى الزراعة وتصبح مصدراً للعمال الزراعيين .

وفى الوقت الذى كانت فيه لغة الفينيقيين ــ اللغة البونية ــ فى شمال غرب إفريقية هى لغة قرطاجنة أصبحت أيضاً اللغة السائدة فى التجارة والإدارة والحياة المدنية . وبينما كان هناك نشاط زراعى على الساحل فى ظل حياة آمنة تسيطر على المنطقة فى شمال تونس وحولها ، كانت هناك عملية أخرى تفرض نفسها على أحداث المنطقة بصورة سريعة . ففى هذه المنطقة وعلى امتدادها الكبير فى الأقاليم الساحلية المجاورة كان عنصر البربر القرطاجنيين (المتأثرين بقرطاجنة) قد بدأ فى الظهور . وكان هناك أمران يستحقان الاعتبار . فمع نهاية عصر قرطاجنة كان رؤساء قبائل البربر فى جبال نوميديا الموازية للسهل التونسى قد بدأوا فى تنظيم فلولهم فى دولة زراعية مستقرة . ولما كانت بعض العناصر التى يمكن أن نسميها باليهودية قد اشتركت فى حركة الاستعمار الفينيقى منذ البداية ، فقد تسربت بعض عناصر الديانة اليهودية إلى شمال إفريقية ، بل وصلت إلى القبائل البربرية خاصة لدى القبائل الموجودة فى جنوب تونس والمجاورة لطرابلس .

وفى صقلية وغيرها من أجزاء النصف الشمالى للبحر المتوسط قامت منافسة

بين المستعمرات الإغريقية والفينيقية . واستطاعت قرطاجنة أن تنجح فى إبعاد الإغريق عن شمال إفريقية إلى الغرب من خليج سرت . واستطاع الإغريق أن ينشروا مـــدنيتهم فى برقة ومصر فقط . فتحولت مصر إلى أعظم ثغرة لنفوذ الإغريق ليتسللوا منها إلى داخـــل القارة خاصة بعد غزو الإسكندر الأكبر لها عام (٣٣٢ ق . م) ولم يلبث هذا الفاتح الجديد أن توفى بعد عشر سنوات من هذا التاريخ بعد أن كانت الإمبراطورية العالمية التى أنشأها قد زالت ودمرت . ولكن حلمه فى إدماج مدنيات الشرق والغرب كان قد تحقق فى بقعة صغيرة عند مصب النيل الكانوبى القديم وهى الإسكندرية فقد صارت هذه المدينة بفضل بطليموس وفى عهده أعظم المدن الإغريقية . فقد اعتنى بها قائد الإسكندر هذا فاهتم بجمع الضرائب شأنه شأن الفراعنة وذلك من مصدر الرزق الوحيد فى وادى النيل وهو الزراعة ثم بعد أن أثروا ثراء فاحشاً من هذا المورد أضافوا مورداً جديداً يتمثل فى الضرائب التى كانت تفرض على التجارة الضخمة بين آسيا وأوروبا . ولقد نتج عن هذا اندماج الحضارة الإغريقية وفلسفتها وآرائها بالحضارات الشرقية ولم تكن السامية أقل هذه الحضارات شأناً . وفى الوقت الذى تحولت فيه مصر بالتدريج إلى الإغريقية بلغ تعداد عاصمتها الإسكندرية ثلاثمائة ألف نسمة . وكان اليهود والإغريق يمثلون الأغلبية من السكان . الأمر الذى جعلها أقوى منطقة اشتد فيها الجدل الدينى والفلسفى بين طوائفها المختلفة مما أعطاها دوراً ظلت محتفظة به حتى نهاية العصر الهلينستى وخلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد .

وفى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد استطاع مواطنو الجمهورية الرومانية الناشئة من إذلال قرطاجة العظيمة وحرقوا مكانها . ولم تكن لديهم أى فكرة عن إنشاء امبراطورية فى إفريقية ولكنهم حينما أدركوا قيمة السهل التونسى كمستودع للغلال يغذى شعوب المنطقة بأعدادهم المتزايدة فى مدن المنطقة ووجدوا أن ذلك يحمل أكبر الأخطار بالنسبة لكيانهم فى المنطقة— حطموا قرطاجة ووجدوا أن خير سبيل لتوطيد أقدامهم هنا لن يتم إلا عن طريق



شمال افريقيا والصحراء الكبرى فى العصور القديمة

(شكل رقم ٤)

إخضاع الأقاليم المجاورة أو التحكم فيها فاستولوا على نوميديا (الجزء الشرقى من الجزائر حالياً) ولم يلبثوا أن احتلوا الشريط الساحلى الغربى حتى سهول مراكش المطلة على المحيط الأطلنطى . ولكن بقاءهم هنا كان محفوفاً بخطر القبائل الرحالة التى كانت تشن غاراتها بصفة مستمرة على المناطق الزراعية والمراكز المدنية على حد سواء . ووجدوا أن الحل الوحيد لتجنب هذه الأخطار هو أن يمدوا لنفوذهم على مناطق هذه القبائل وأقاليمها التى تمتد حتى الهامش العشبى للصحراء الكبرى . ولهذا ففى خلال القرن الأول الميلادى أصبحت كل من مصر وبرقه تحت حكم الرومان . وبذلك امتلكوا إمبراطورية إفريقية يبلغ امتدادها من الشرق إلى الغرب بنحو ٤٠٠٠ ميل . كما طوقوا كل المناطق الزراعية شمال الصحراء الكبرى .

لم تكن هذه الإمبراطورية الإغريقية تمثل نفوذاً مستقلا أو قائماً بذاته وإنما كانت تمثل الحد الجنوبى فقط من إمبراطوريتهم فى حوض البحر المتوسط . وكانت هناك منطقتان لها أهمية خاصة للرومان الأولى هى أقاليم إفريقية التى تشمل حالياً تونس والساحل الموازى لطرابلس ونوميديا . والثانية كانت مصر . ففى إفريقية ونوميديا كانت قرطاجة قد قطعت شوطاً بعيداً فى تحويل عناصر البربر إلى عناصر زراعية مستقرة . كما كانت هناك ما يقرب من ٥٠ أو ٧٠ مدينة من مدن الرومان المعروفة فى شمال غرب إفريقية . كما أن معظم السكان بهذه المدن لم يكونوا من العناصر الرومانية بقدر ما كانوا من عناصر البربر المتأثرة بالرومان . أما فى مصر فقد كان تأثير الحكم الرومانى يبدو أقل نفعاً وقيمة على الرغم من اهتمامهم بمصر أكثر من اهتمام بطليموس بها ، إلا أن الرومان لم يستطيعوا أن يؤقلموا أنفسهم بسرعة بظروف الكيان المصرى فظلوا أجانب بها . وتحولت مصر — عن طريق السخرة والاستغلال الهدام لمواردها — إلى منطقة متدهورة بعد أن استنزفت مواردها الزراعية التى كانت سبباً فى انتعاشها دائماً . والتى صنع الرومان الكثير من أجل إحيائها من قبل .

ولقد كان أعظم ما قدمته الإمبراطورية الرومانية للقارة الإفريقية ذلك

الحدث العرضى الذى تمثل فى اجتذاب شمال هذه القارة إلى نطاق مدنيات الشرق الأوسط . مما سهل ومهد لانتشار المسيحية فيها . ولقد كان أعظم مركزين لهذا الدين الجديد هما الإسكندرية وقرطاجة . ففى كلتيهما — كما فى باقى أجزاء البحر المتوسط — كانت الجاليات اليهودية المحلية قد تهيأت لاستقبال الدين الجديد والدخول فيه . فقد كانت الإسكندرية وهى محط بشارة القديس مرقص — المدينة الوطنيــة لكل من اريوس واثناسيوس[1] الذين قامت حولها الخلافات المذهبية التى ثارت فى بداية القرن الرابع الميلادى حول دستور الإيمان المسيحى Nicene Creed [2] الذى لا تزال تخضع له كل الفروع الكبرى للكنائس المسيحية . وأكثر من هذا فإن الآباء المسيحيين الأول أمثال القديس أوغسطين St. Augustine كانوا من قبائل البربر الليبيين والذين تلقوا ثقافتهم فى قرطاجة . وفى خــلال القرن الرابع والخامس والسادس الميلادى أصبحت المسيحية دين الدولة فى إمبراطورية الرومان . ويوماً بعد يوم كان نفوذها يقوى ودعائمها تتوطد فى هذه الإمبراطورية . وكان هناك تيار جارف يعارض حكم الرومان فى نفس هذه الفترة فى كل من مصر وإفريقية ونوميديا وكان هــذا التيار المعارض يتمثل فى اتجاهات مذهبية أو طائفية معينة . ففى القرن الرابع الميلادى قامت حركة فى شمال غرب إفريقية يطلق عليها الدوناتية Donatism وكان مذهباً مجدفاً تتمثل فى مقاومة عناصر البربر للحكم الرومانى خاصــة فى نوميديا . وبعــد انعقاد مجمع خلقدون Chalcedan سنة ٤٥١ التف المصريون بقلوبهم حول المــذهب اليعقوبى وازدادوا ولاء للكنيسة القبطيــة معارضين الكنيسة الملكانية الأرثوذكسية . وعلى الرغم من منافسة مبشرى الملكانيين للكنيسة القبطية فى دعوتها فى مملكة النوبة ووريثة ممالك مروى فى

---

(١) يعتبر الأرثوذكس أنفسهم أتباع أريوس فى حين أن الكاثوليك يتبعون اثناسيوس وكل طائفة من الطائفتين تؤيد ما جاء به صاحب المذهب فى جدالهم المذكور . (المترجم).

(٢) وهو دستور الإيمان المسيحى « تؤمن بإله واحد . . الخ » (المترجم)

سودان وادى النيل إلا أن النوبة أبت إلا الخضوع للكنيسة القبطية معتنقة المذهب اليعقوبى بفضل المبشرين المصريين والسوريين هناك .

وفى القرنين الرابع والخامس الميلادى كان فى إفريقية – كما كان فى أوروبا – قوة رومانية فى طريقها الحتمى إلى الزوال . ومما عجل بذلك الأمر دخول الجمل من آسيا فى القرون الميلادية الأولى إلى منطقة شمال إفريقية . ففى مناطق الظهير الأرضى لتونس وطرابلس ، ظهرت عناصر بدوية جديدة من البربر تنذر بالخطر ، قادمة من مناطق الاستبس بالصحراء الكبرى[1] وكانت هذه العناصر هى عناصر زناته الذين كانوا قد نجحوا فى اكتساب بعض المهارات السياسية بعد تسرب شىء من التعاليم اليهودية . ومن المحقق أنهم عرفوا سريعاً كيفية اغتنام الفرص التى قد تسنح لعمل شىء ما فى هذه المنطقة وذلك بفضل استخدام الجمل . ولم تكن هذه الفرص أكثر من فرص السلب والنهب معتمدين على الهامش الصحراوى الجاف الذى يستطيعون منه مهاجمة الجماعات المستقرة الآمنة فى الأقاليم الرومانية . الأمر الذى أضعف من سلطة الرومان على هذه المناطق ، فانقلبت الأحوال التى سادته طوال عصور قرطاجة والرومان رأساً على عقب . ثم بدأت عناصر البدو الرعاة فى التوسع والانتشار على حساب المدنيات الزراعية المستقرة . وكانت عمليات الغزو الأولى هذه قد عجلت بغزو الأسبان لشمال إفريقية على أيدى قبائل الوندال فى القرن الخامس وتبع ذلك إعادة إخضاع هذه المناطق بوساطة العناصر البيزنطية فى خلال القرن السادس . ولم تكن العناصر البربرية قد رحبت بالوندال – وهى قبيلة ألمانية من العناصر الآرية المسيحية – فى بادئ الأمر وقد ظنت خطأ أنهم المنقذ الوحيد لهم من عسف الرومان . إذ لم يلبث الوندال أن بدأت عصراً من الاضطهاد الدينى فعمت الفوضى الأهلية مما أثار ضدهم النفوس . فئة وحيدة فقط رحبت بهم ، هى رعاة الجمل الذين وجدوا فى

(١) مع ضرورة مراعاة الفترة الزمنية لوجودهم ومقارنة ذلك بالظروف الجغرافية التى كانت تسود آنذاك (المترجم) .

الفوضى التى أحدثوها مرتعاً خصيباً لنشاطهم الهدام إزاء المراكز المدنية المستقرة بالمنطقة .

ولقد كانت بداية النهاية لتاريخ شمال إفريقية الذى ارتبط بالبحر المتوسط تتمثل فى انحلال الإمبراطورية الرومانية القديمة . ولا شك أن هذا يلخص لنا مدى أهمية المناطق الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى فى تطور أحداث المنطقة فيما بعد . ويجب أن نتأكد أولا من أنه لم يكن لحكم قرطاجة أو حكم الرومان القدرة على النفاذ عبر الصحراء الكبرى . فإمبراطورية قرطاجة لم تكن إمبراطورية إقليمية بقدر ما كانت إمبراطورية تجارية وبحرية ، وأن ما جاء بالتقرير المبهم الذى خلفته لنا رحلة هانو Hanno البحرية فى القرن الخامس قبل الميلاد ليشير إلى أن القرطاجنيين كانوا ينظرون بأمل إلى احتمال إنشاء علاقات تجارية مع هذه المناطق التى تقع جنوباً على المحيط الأطلنطى . ولا شك أن هناك عدة تفسيرات مختلفة لهذه الرحلة ولكن ينبغى أن ندرك بصفة عامة أن السفن القرطاجنية القديمة لم تكن لتلائم الرحلات المحيطية . وهذه الرحلات بالذات كانت توازى الشريط الساحلى الصحراوى القاحل الذى كان يمثل عائقاً أمام امتداد أى نفوذ تجارى إلى الداخل أو يشجع حتى على الاستقرار فى أى بقعة جنوب مراكش . أما الرومان فقد ارتبطوا فقط بالأجزاء الواقعة شمال الصحراء الكبرى لحاجتهم الوحيدة إلى حماية الإمبراطورية الإقليمية من خطر العناصر البدوية . إلا أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن واحات دجيرما (وهى واحات garama القديمة) فى شمال فزان تمثل أقصى امتداد جنوبى لهذه الإمبراطورية .

ولا جدال فى أنه فى إحدى الفترات القديمة حدث تماس لكلتا قوتى البحر المتوسط من جهة والسودان الغربى من جهة أخرى . فقد كان حجم مدينة لبتس ماجنا Leptis Magna الرومانيـــة وازدهارها الواضح الملموس والتى كانت تلاصق طرابلس الحالية يمكن تفسيره فى ضوء موقعها عند نهايات طرق التجارة التى كانت تعبر الصحراء الكبرى مخترقة جنوب فزان :

وكذلك يقال إن مدينة Lixus القرطاجية الواقعة على الساحل المراكشى المطل على المحيط الأطلنطى يعكس أيضاً موقعها عند نهاية طرق التجارة عبر صحراء موريتانيا . ولقد كتب هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد تقريراً يقول إن جماعات الـ Geramantes وهى جماعات بربر فزان قد تعودوا على الإغارة على الأثيوبيين[1] (وكان يقصد بالطبع الزنوج) بعرباتهم التى يجر الواحدة منها أربعة خيول وهذا التقرير يوضح بما لا يقبل الشك صحة ما ترويه الرسوم العديدة على الصخور التى وجدت مرسومة على طريقين رئيسيين كلاهما يقود إلى ثنية النيجر العظيم . وكانت عبارة عن عربات تجرها الخيول وكان الطريق الأول من فزان والثانى من جنوب مراكش . وهذه الطرق بدورها تؤيد الفروض العلمية التى أثيرت بشأن كلتا المدينتين السابق ذكرهما . كما ترتبطان باثنين من طرق القوافل الرئيسية فى الأزمنة التاريخية . ومنذ أن حل الجمل محل العجلات فى الصحراء الكبرى صار من المؤكد أن هذه الرسومات ترتبط بالأزمنة القديمة .ولو ربطنا ذلك بملاحظات هيرودوت لتوصلنا إلى دلائل واضحة تشير إلى وجود علاقات منتظمة بين شعوب البحر المتوسط وزنوج إفريقية منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل .

ولقد كانت القبائل البربرية الرعوية تمثل العامل الوسيط بطبيعة الحال فى مثل هذه العلاقةعبر الصحراء فاتصالهم بالزنوج إذن أمر قديم جداً. حتى أنهم يذهبون فى تأريخه إلى ما قبل مدنية البحر المتوسط . ومن المحتمل أن هذه العلاقة ظلت قائمة منذ كانت الظروف المناخية الرطبة فى الألف السادسة أو الخامسة قبل الميلاد هى السائدة . فكانت الصحراء الكبرى تمثل منطقة عشبية هائلة فتحركت العناصر الزنجية إلى الشمال الذى يتمثل حالياً فى وسط الصحراء الكبرى . وكان عامل الجفاف الذى بدأ يحل تدريجياً ويزحف على المنطقة يعود بالعناصر الزنجية مرة أخرى إلى الجنوب تاركين معظم أجزاء الصحراء

(١) Ethiops باليونانية تعنى ذوى البشرة المحروقة ، وكان اليونان يقصدون بهذه الكلمة سود البشرة عموماً ، فهى إذن مرادفة لكلمة السودان العربية . (المترجم)

الكبرى إلى البربر على الرغم من أن بقايا الشعوب الزنجية قد بقيت فى الواحات وكذلك فى منطقة تبستى . أما التجارة فقد كانت – كما جاء فى وصف هيرودوت لها – تجارة مدهشة فى عناصرها . وهذا بطبيعة الحال نتيجة طبيعية بسبب اختلاف البيئة ونمط الحياة الذى يميز كلا من البربر والزنوج . ولقد كانت لهم علاقات خارج النطاق الرعوى الجنوبى مع إخوانهم رعاة نطاق البحر المتوسط القريبين من المناطق الزراعية والمدنية فكانت هذه الجماعات تقطع المسافات الطويلة بتجارتها عبر الصحراء فى مواسم معينة ليتم مثل هذا التبادل .ولقد كانت الصادرات الرئيسية للسودان الغربى كما يروى التاريخ تتمثل فى الذهب والرقيق والعاج وريش النعام والجلود . أما أهم الواردات فكانت الملح الذى لا يوجد بكثرة لديهم فى السودان فى حين كانوا يحصلون عليه من الصحراء الكبرى . ومن الواضح أن كلا الطريقين القديمين للعربات يؤدى إلى أجزاء من السودان حيث يوجد تبر الذهب الذى كانت العناصر الزنجية تعمل على جمعه حتى بداية العصر الإسلامى .

أما غانا – أقدم الممالك السودانية التى عرفها التاريخ ، فقد كانت تقع إلى الشمال مباشرة من أودية الأنهار التى تحمل هذا الذهب شمال النيجر والسنغال وذلك الإقليم أصبح معروفاً للعرب باسم وانجاره Wanagara وحينما صارت غانا معروفة تماماً خاصة بعد رواية الفزارى المعروفة فى مراكش باسم « أرض الذهب » والتى كانت تشير إلى أن ثمة اتصالات كانت بين غانا وشمال إفريقية . هذه الاتصالات كانت فى الفترة التى كتب فيها الفزارى روايته فى القرن الثامن . ومن المؤكد أن ثراء غانا وما خلفها من إمبراطوريات فى السودان الغربى قد نشأ من تصدير الذهب إلى الشمال – وكذلك من توزيع الملح والواردات الأخرى إلى الجنوب . لهذا كله صارت التجارة هى العنصر الأساسى فى تطورهذه الممالك .

ويبدو أن النفوذ الشمالى لم يكن مرجعه دائماً التجارة فلا جدال أن أساس السكان فى غانا القديمة كان يتمثل فى جماعات السوننكا Soninka وهم إحدى

جماعات الماندى اللغوية الكبرى من الشعوب الزنجية . ومنذ القرن الحادى عشر الميلادى على الأقل ، وربما قبل ذلك بكثير كان ملوك غانا من العناصر الزنجية ، إلا أن الدلائل التاريخية التى تشير إليها المصادر التقليدية للعلماء السودانيين فى القرن السابع عشر الميلادى تقرر أن ملوك غانا الأول كانوا ممن أطلق عليهم اصطلاح « الشعوب البيضاء » ولم تكن هذه هى القصة الوحيدة التى تؤيد ذلك فأساطير جماعات الهوسا فى نيجيريا الشمالية ، وتلك التى تعتبر أكثر غموضاً مثل جماعات كانم — بورنو فى الشرق والسنغال فى الغرب ، تقول بأنه كانت هناك ممالك نشأت عن طريق الهجرة من الشمال ومن الصحراء ومن الشرق فى اتجاه وادى النيل أيضاً .

أما التفسيرات القاطعة لهذه الأساطير وغيرها فليس من السهل حالياً الإدلاء برأى قاطع حولها لعدم وجود الكثير من الشواهد الأثرية التى تعززه . ولكن يجب أن نأخذ فى اعتبارنا نقطتين رئيسيتين ، الأولى تتعلق بنفوذ الأجزاء الشمالية ، والثانية تتعلق بالسؤال الذى يتردد حول علاقة هذه الممالك بتطور الممالك السودانية فى غرب إفريقية .

وربما قيل إن ازدهار التجارة مع البحر المتوسط كان أمراً له أهمية بالنسبة لممالك الساڤانا فى غرب إفريقية خاصة فى أقصى هذا الغرب . إلا أنه يجب أن ندرك — والأمر كذلك — أن النفوذ الحضارى الذى تسلل إلى هذه الأجزاء قادماً من الشمال لم يكن نفوذاً حضارياً تابعاً للبحر المتوسط بقدر تبعيته الحقيقية للبربر . وفى حين كانت التيارات الاقتصادية التى خلفتها مدنية البحر المتوسط قد استطاعت أن تعبر الصحراء إلا أنه يمكن القول بصفة عامة أن حضارة البحر المتوسط لم تتعد حدود النطاق الزراعى بشمال القارة . وبطبيعة الحال كان الأثر العام لانتشار مدنية البحر المتوسط هو تقوية الفروق بين جماعات البربر التى استقرت فى سهول وأودية شمال غرب إفريقية وجماعات البربر الرعاة فى نطاق الساڤانا والصحراء . وازدادت قيمة هذه الفروق بدخول الجمل وكذلك بدخول الإسلام بعد ذلك ومع بداية العصر الإسلامى أصبح بربر

الصحراء يتمثلون فى جماعات الطوارق . وكانت روابطهم القبلية مع البربر المستقرين لا تزال باقية . ولهذا ميز التاريخ العربى بين جماعات طوارق الغرب وجماعات القبالة من البربر المستقرين فى شرق الجزائر والذين منهم جماعات صنهاجة إلا أن الطوارق استطاعوا المحافظة على تراثهم الأموى[1] الذى انتهى فى مناطق الاستقرار كما احتفظوا دون غيرهم — وربما طوروا — الحروف الكتابية الخاصة بالبربر المسماة تيفاناغ Tifanagh فى حين كان كلا التنظيمين السياسى والاجتماعى لجماعات البربر تنظيماً معقولا إلا أن هذه التنظيمات كانت بالنسبة للطوارق تنظيمات حكومية دينية مع وجود فوارق بين طوائف النبلاء والإقطاعيين والعبيد . وكان أكثر ما يميز النبلاء عن غيرهم لدى هذه الجماعة أنهم يضعون على وجوههم لثاماً يحجب أجزاء الوجه عند العينين . وكان النبلاء منهم لا يتزوجون بنساء غير نبيلات . فى حين كان العبيد من الزراع والصناع فى الواحات من أصول زنجية . وبمرور الزمن أصبحت طائفة التابعين هى الأخرى من الزنوج .

ويعيش الطوارق حالياً فى وسط الصحراء الكبرى فقط فى الثلث المحصور بين غدامس وتمبكتوواير . وفى خارج هذا المثلث كانت تنتشر القبائل العربية أو المتعربة . وقبل حدوث التعريب لم يكن هناك شك فى أن القبائل فى الغرب ،وهم الملثمون أو جماعات الصنهاجة الملثمة كانت من الطوارق كما يروى مؤرخو العرب الأوائل . ومن المحتمل ألا تختلف قبائل زغاوه التى كانت تســود شرق الصحراء الكبرى عنهم كثيراً . وعلى الرغم من ذلك فقد كان من السهل تميزهم عن غيرهم من قبائل الصحراء وذلك لقربهم من وادى النيل الذى أكسبهم بعض مميزات الحضارة المصرية ومملكة مصر المقدسة .

---

(١) أى الانتماء والتسلسل من الأم، وهى صفة عامة بين الحاميين عموماً ولا تزال موجودة آثارها فى شعوب شرق السودان (بين النيل والبحر الأحمر) الحامية . أما الساميون فالانتماء والتسلسل فيهم من الأب . (المترجم)

ولما كانت أساطير السودان الغربى والأوسط تنسب أصول هذه الممالك إلى أبناء الشمال فإنه من الواضح أنها كانت تشير إلى أسلاف الطوارق أو إلى زغاوه . لهذا نقول حسب رواية البكرى فى القرن الحادى عشر الميلادى أن الملك فى حكم ممالك غانا كان وراثياً من ناحية الأم . كما أن الاسم الذى كانوا يطلقونه آنذاك على الملك هو تانكامامين Tankamamin يبدو طوارقياً وربما توجد دلائل هذا النظام الوراثى الأموى فى ممالك بورنو أيضاً فى حين تشير بعض أساطير جماعات الهاوسا إلى أن الملكية فيها أيضاً كانت أموية . ولا شك أن وجود اللثام فى مناطق الهاوسا وبورنو يعتبر علامة مميزة تشير إلى وجود بقايا عناصر النبلاء فقد كان حكام ممالك بورنو الذين كانت ممالكهم تتركز فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر فى كانم حينما يريدون الزواج ، فإنهم يراعون دائماً التوجه إلى الشمال لاختيار زوجاتهم من طبقة النبلاء هناك .

ومن الثابت أن القبائل الرعوية فى الصحراء الكبرى والتى تدين أساساً بوجودها إلى حضارة البربر الليبيين ، ظلت عدة قرون تابعة للسودان الغربى والأوسط . وواضح أيضاً أن جنودهم من الأشراف والذين كان يسمح لهم وضعهم كفرسان بسيادة أجزاء واسعة من السافانا ، قد تمكنوا من اغتصاب القوة السياسية هناك فى أكثر من مناسبة ، وتوطيد أقدام بعض أسرهم فى حكم هذه المناطق . وهذا يختلف عما يقوله بعض الكتاب الأوروبيين بكثير عن الإقناع من أن الملكية فى نطاق السودان الغربى والأوسط إنما نشأت نتيجة علاقات معينة بين العناصر الرعوية البيضاء وعناصر الفلاحين السود . فمثل ذلك القول لا يزال يحتاج منا إلى بحث مستفيض قبل الاقتناع بصحته .

وتمثل مناطق كانم — بورنو من جهة والهاوسا من جهة أخرى مجموعتين منفصلتين من التقاليد والعادات التى تعتبر أساس ممالكهم . ومن هنا فربما خرجنا بنتيجة تقول بأن رعاة الصحراء استطاعوا التوغل إلى المناطق الزنجية المنظمة فى دول كنتيجة لنفوذ يرجع أساساً إلى وادى النيل . ثم لم يلبثا أخيراً

أن انصهرا واندمج أهل الشمال بتقاليدهم الخاصة، بالزنوج الزراع الذين كانت لهم آنذاك مجتمعات مدنية راقية وتقاليد ملكية زنجية . وبالمثل كان اليوربا فى الشمال الغربى (وكانوا يمثلون مجتمعاً مدنياً راقياً) — والسنغاى فى غرب نهر النيجر — وإن كان أقل وضوحاً من سابقه . ولا تزال تظهر هناك فى أقصى الغرب ممالك الموسى داجومبا فى حوض فولتا العليا التى انصهر أفرادها انصهاراً كاملا مع غيرهم هناك .

أما فى أقصى الغرب حيث مملكة غانا القديمة ، فإن الصورة تختلف ، فنحن نعلم القليل عن غانا القديمة إذ ليس لدينا عنهم إلا ما جاء به الكتاب العرب . وكان ذلك فى فترة تاريخية متأخرة — فلو بحثنا مثلا عن دلائل تؤيد وجود مملكة دينية هناك مستندين إلى أقوال « البكرى » لوجدنا ما يؤيد ذلك بالفعل . ولكن هناك اختلافاً واضحاً بين ما كتبه العرب عن غانا وبين ماكتبوه عن كانم . فلم يكن « المهلبى » وحده الذى أكد وجود مملكة دينية فى كانم ، بل إن المقريزى فى القرن الخامس عشر تحدث عن مثل ذلك مما يؤيده . أما بالنسبة لغانا ومالى التى كان العرب على معرفة جيدة بها فالأمر يختلف . فالعرب الذين كتبوا عن غانا كانوا لا يزالون متأثرين لدرجة كبيرة بثرائهم التجارى وعلاقاتهم مع الشمال عن طريق صنهاجة للصحراء وكذلك بنظامهم الدينى الوثنى . ولهذا فإن ابن حوقل فى القرن العاشر قرر أنه شاهد حوالة مالية حررها أحد التجار السودانيين لأحد الوكلاء فى مراكش بما يساوى ٢٠,٠٠٠ جنيه من الذهب . ولقد أورد البكرى تفاصيل السلع التى كانت لدى ملوك غانا كالملح والنحاس وسائر السلع الواردة إلى غانا والصادرة منها :

ومن الممكن القول إن هذا ليس إلا وجهة نظر المسلمين لأقاليم ظلت خاضعة لحكمهم لمدة قرنين على الأقل . فالبكرى مثلا يقرر أن معظم وزراء ملك غانا كانوا من المسلمين . كما يحدثنا عن تلك المدينة الإسلامية ذات المبانى الحجرية الضخمة بمساجدها الاثنى عشر والتى تجاور العاصمة الوطنية ذات المبانى المصنوعة من اللبن : ومن ناحية أخرى فإن كل الدلائل تشير إلى أن ملوك

كانم قد دخلوا فى الإسلام قبل ملك غانا . وبرغم ذلك فإنه فى الواقع أن الاختلافات الواضحة بين تقديرات العرب لكل من غانا وكانم ترجع إلى قوة المؤثرات الشمالية العظيمة ونفوذها على غانا قبل الإسلام . وبالطبع كانت رسوم العربات التى وجدت فى الصحراء تبرهن بصورة واضحة على علاقات أقصى السودان الغربى بسكان الصحراء الكبرى الذين انجذبوا إليها بسبب وجود الذهب بها . مثل هذا الانجذاب لم يستمر أبعد من غانا إلى الشرق كما أنه يبدو أن نفوذ الصحراء الكبرى هو الآخر لم يتسلل إلى السودان الأوسط إلا بعد أن توطدت الممالك الزنجية بها . ولكن إلى الغرب حيث كانت غانا القديمة ، فإنه يبدو أن النظام الملكى الدينى لم يصلها من الشرق بقدر وصوله إليها من الشمال . أو قبل وصوله من الشرق بالطبع .

— ٦ —

إمبراطورية العرب فى إفريقية

يعتبر عام ٦٣٩ ميلادية هو بداية ظهور الطلائع العربية فى مصر . ومع بداية القرن التالى لهذا التاريخ ، كان العرب قد شملوا بانتشارهم كل إفريقية شمال الصحراء الكبرى كما كانوا قد غزوا جنوب القارة الأوروبية أيضاً . ولقد اقتطع شمال إفريقية من نفوذ البحر المتوسط طوال ١٥٠٠ سنة . ولم تمض قرون قلائل حتى أصبحت شعوب تلك المنطقة جزءاً من العالم الإسلامى وحضارته . ولم تعبر موجة المد العربى الأولى هذه الصحراء الكبرى ، بل لم يبدأ العرب فى اختراق هذه الصحراء من الشرق حتى بعد انهيار مملكة النوبا المسيحية فى دنقله خلال القرن الرابع عشر . أما فى الغرب فلم يبدأ العرب اختراق الصحراء بجحافلهم الجرارة قبل حوالى القرن الثانى عشر . أما السودان الغربى فلم يكونوا قد وصلوه بعد . ولو أننا اعتبرنا الصحراء الكبرى عائقاً للتقدم العربى الحقيقى فإن ديانة العرب وحضارتهم قد انتشرت بلا جدال من القاعدة الراسخة فى شمال إفريقية خلال المناطق الزنجية وبذلك أصبح السودان كله فى يوم من الأيام جزءاً من العالم الإسلامى .

ويمثل غزو العرب لإفريقية حلقة من سلسلة التحركات البشرية المماثلة التى تمت خلال القرن السابع منتقلة من شبه جزيرة العرب إلى ما جاورها من مناطق على فترات متقطعة من التاريخ . ولقد كانت تحركات الفينيقيين واليهود أحد هذه التحركات التى تمت فى الفترات الأولى من هذه السلسلة . ولقد كان السبب الرئيسى لهذه الحركات هو التزايد السكانى حيث إن شبه

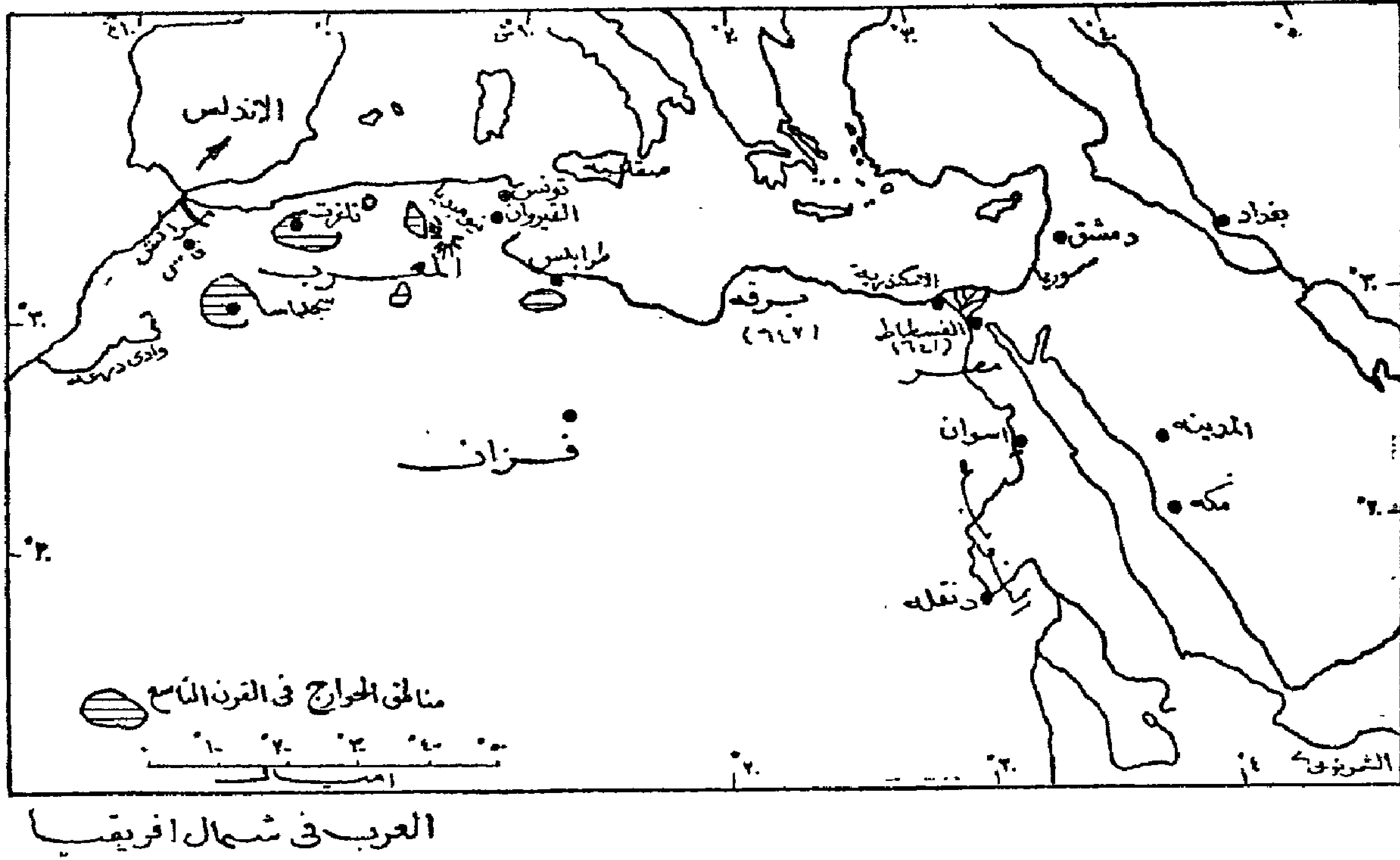
الجزيرة العربية فيما عدا الأطراف الجنوبية الشرقية منها ، كانت صحراء جرداء . ولقد كانت هذه الجماعات التى انتقلت فى القرن السابع الميلادى خارج شبه الجزيرة العربية تمثل عناصر بدوية صميمة . وكان بعض هؤلاء المهاجرين يمارسون إلى جانب حياتهم الرعوية البسيطة عملية الوساطة التجارية إذ كانوا يقومون بتوصيل تجارة الهلال الخصيب . أو يقومون بسلب هذه التجارة فى أثناء مرورها . وربما فى أحيان أخرى يعملون كجنود مرتزقة فى جيوش الإمبراطوريات التى كانت تقوم هناك . وبالتدريج أصبحت هذه الصحراء أصغر من أن تعول ساكنيها ، فصار لزاماً على من فيها أن ينتقلوا منها إلى الهلال الخصيب ليشاركوا أصحابه فى خيراته ويسهموا فى تكوين سكانه .

ولم يكن الأمر مقصوراً فى هذه الحركة البشرية التى انتقلت من شبه الجزيرة العربية إلى خارجها فى القرن السابع — على السفر وراء الرزق فقط ، بل ليسهم هؤلاء العرب فى نشر الإسلام كأحد الأديان العالمية الكبرى ، ولقد كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى العرب فيما بين عامى ٦٢٢ ، ٦٣٢ تتلخص فى عبارات قلائل، ولكنها كانت ذات تأثير كبير على تاريخ العالم . ومن هذه العبارات عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولقد وجد العرب فى الدين الجديد ما أنساهم انقساماتهم الداخلية وصراعهم القبلى . كما أن القرآن الكريم (وهو كلمات الله إلى رسوله عن طريق الوحى) قد بلور لديهم معنى الإيمان بأن اللغة العربية لغة المعرفة الحقة والحكمة والجمال طالما نزل بها الكتاب الكريم . واستطاع الإسلام أن يفجر الطاقات الكامنة لدى هذه القبائل العربية الأمر الذى مكنهم من الانتشار والخروج من عالمهم فى شبه الجزيرة العربية حاملين لواء هذه الدعوة الجديدة . فجمعتهم وحدة هدف حيوية .

وبعد وفاة محمد عليه السلام عام ٦٣٢ بدأت الجماعات العربية سلسلة من الهجمات الجزئية على حدود أعظم إمبراطوريتين كانتا آنذاك . وهما الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الساسانية الفارسية . وربما كان ذلك فى بادئ الأمر لا تمثل أكثر من غارات أو هجمات قليلة الأهمية ، ولكن المحاربين العرب

لم يلبثوا أن اكتشفوا مقـــدرتهم العسكرية للدفاع عن أنفسهم أمام هاتين القوتين . فقد كانت الجيوش الساسانية ، والبيزنطية تملك التفوق فى العدد والعتاد الحربى والتنظيم الفنى ، ولكن مجنديهم يفتقرون إلى ما كانت القبائل العربية تتمتع به من روح الإسلام ، التى كانوا يلتزمون بتنفيذها كجزء من الإيمان بهذا الدين ، بالإضافة إلى ما كانت تتمتع به القبائل العربية من سرعة الكر والفر التى عودتهم عليها طبيعة الصحراء . وصار « الجهاد » لدى العرب – أى الحرب ضد الكفار – مثله كمثل الصلاة والصوم والحج والإيمان المخلص لله ولرسوله – أمراً لا بد أن يتمسك به المسلم الصحيح .

أما عن سوريا (٦٣٤ – ٦٣٦) فقد كانت على وشك الاحتلال من أحد طرفى الهلال الخصيب . ففى الشرق كان العرب قد هزموا أراضى الرافدين وفارس وأصبحت المناطق الهندية ، فى السند وسيحون على وشك الوقوع فى أيديهم . وفى الغرب كانت مصر مطمعاً وهدفاً من أجل ثرائها وغناها . وعلاوة على هذا كان العرب فى سوريا ، بل وفى شبه الجزيرةالعربية نفسها لا يتمتعون بحماية طبيعية كتلك التى كانت تتمتع بها القوى البيزنطية فى الإسكندرية الذى كانت تحميها المسطحات البحرية المقابلة . وفى عام ٦٣٩ جاء عمرو بن العاص إلى مصر فاتحاً ومعه بضعة آلاف من الرجال ليضيف إلى انتصارات العرب نصراً جديداً . ولم تكن القوة البيزنطية فى مصر من القوة والمنعة بحيث تصمد كثيراً أمام هذا القائد ، فلم تلبث أن انهارت . وأصبحت مصر وشعبها فى أيدى الغزاة الجدد . وقد كان الفتح العربى لمصر بسيطاً ، إذ أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تخضع البلاد وتستغلهاما أوغر قلوب القبط عليها ، وبعد هزيمة القوة البيزنطية فى مصر سنة ٦٤٠ تمكن عمرو بن العاص من إبرام اتفاقية خاصة مع الأقباط الذين وافقوا على دفع الجزية بانتظام مقابل تركهم يمارسون شعائر الدين المسيحى وحماية ممتلكاتهم . وفى عام ٦٤١ سقطت قلعة بابليون الواقعة عند رأس دلتا النيل فى أيدى العرب ، وبعد عدة سنوات كان البيزنطيون قد غادروا الإسكندرية . فآلت هذه المدينة العظيمة



العرب فى شمال افريقيا

(شكل ٥)

التى ظلت عاصمة لمصر نحو ألف سنة إلى العرب ولكنها كانت أكثر تأغرقاً ورومية مما يحتمله العرب فبدأوا فى تشييد عاصمة جديدة أخرى لهم . ولم تكن هذه العاصمة الجديدة إلا الفسطاط المجاورة لبابليون والتى تقع فى وسط القلب الزراعى لمصر ، والتى يسهل الوصول إليها من سوريا ومن الصحراء العربية حيث تكمن مصادر القوة العربية المركزية .

وبعد أن سيطر العرب تماماً على مصر السفلى سارعوا فى إعادة وضع الحدود الجنوبية التاريخية للبلاد عند الشلال الأول بتحصين أسوان ضد غارات النوبيين . ومن أجل هذا الغرض جندت حملة إلى النوبة عام (٦٥١ — ٦٥٢) فهاجم العرب دُنقله العاصمة الشمالية للنوبيين . ولكن العرب تمكنوا من إبرام اتفاقية معهم تقضى بتعهد النوبيين بحماية مصادر الذهب والرقيق مقابل ترك العرب لهم دون أن يهاجموهم أو يزعجوا أمنهم فى النوبة. ولم يكن النوبيون بمقتضى هذه المعاهدة التى حددت العلاقة بين مصر والنوبة نحو ستة قرون يدفعون الجزية للعرب . وإنما كانت النوبة ترسل إلى مصر ٣٦٠ عبداً سنوياً كما كانت تكفل الحرية الكاملة للعرب التجار فى التنقل والعبادة فى أراضيهم نظير احترام العرب لاستقلالهم وإمدادهم بحاجاتهم من الملبس والمأكل والخيول

أما عن موقف العرب من المناطق الغربية أو المغرب ، فإنه أمر تحتاج إلى وصف أكثر . فقد وصل العرب إلى برقة سريعاً ،غير أن خمسمائة ميل من الصحراء القاحلة التى تقل فيها موارد المياه كانت تفصل بين حدودها الغربية وسهول تونس الخضراء ومدنياتها وهى مساحة خطيرة حتى على راكبى الإبل السريعة من العرب فى حين ظل الشريط الساحلى الضيق تحت سيطرة البيزنطيين وأساطيلهم البحرية . وأكثر من هذا فقد أسفرت غزوات العرب لهذه الأجزاء عن اختلاف كبير بين طباع القبائل البربرية وطباع المصريين فغزو المغرب لم يكن معناه مجرد هزيمة للبيزنطيين ، بل إن كثيراً من البربر ظلوا معادين لقوات الغزو الدخيلة أيضاً . كما كان وراء هؤلاء المستقرين إخوة لهم من القبائل الرعوية مستعدين لاستغلال أى ثغرة ينفذون منها عند تراخى أى

حكومة زراعية مستقرة فى المنطقة؛وأمام زناته واجه العرب عدواً يمكن أن يقارن بهم من حيث طباعهم البدوية سواء فى الصلابة أو الحركة أو التماسك التى كانوا يحاربون بها للمحافظة على وحدتهم القبلية .

أخيراً — تمكن عقبة بن نافع أن يكون أول المغامرين فى مخاطرة أنجبت نتائج عظيمة وإيجابية فى المنطقة التى كان العرب يطلقون عليها « أرض النفاق » فشيد عقبة مدينة القيروان جنوب تونس ليجعل منها قاعدة للعمليات العسكرية الخاصة بالتقدم إلى الأجزاء المجاورة . وعندما قام بإحدى حملاته العسكرية إلى الغرب فيما بين (٦٨١ — ٦٨٣) استطاعت جماعات البربر أن تطوقه هو ورجاله ليقعوا جميعاً فى شراكهم . ولم تلبث أن سقطت القيروان وبدأ العرب يقاسون من أكبر كارثة حلت بهم حينما نزل فرسان الأسطول البيزنطى ليقطعوا الامتداد العربى الساحلى فى المغرب عن مصر . وبنهاية هذا القرن كانت تسود المنطقة قبائل البربر المستقرة والجيوش البيزنطية . ولكن بعد غروب قوة البيزنطيين بفضل الأسطول العربى الجديد[1]وقعت قرطاجة فى أيديهم فأنشأوا فى مكانها بدلا منها تونس . وبدأت تونس فى الاهتمام والنهوض بنفسها . فى حين وقف البربر الرعاة بمعزل عن هذا الصراع المرير أملا منهم فى الإفادة مما سيعقب ذلك من وهن يدب فى أوصال المتنازعين . ولكن قبائل جبال أوراس Aures اتحدوا مع بعضهم البعض ، عاقدين لواء الزعامة لامرأة ذات نفوذ وسطوة عرفت باسم « الكاهنة » . فزحفت بقواتها من معاقلها فى الجبال هابطة إلى السهل الساحلى لتقف وجهاً لوجه أمام العرب ، وذلك بعد سقوط قرطاجة عام ٩٦٥ . ولم يكن فى استطاعة العرب حتى عام ٧٠٥ ميلادية أن يوحدوا الأقاليم الحيوية الزاخرة بالحياة المدنية الآمنة فى شمال إفريقية ليضموها إلى إمبراطوريتهم باستثناء السهل التونسى الذى استطاعوا أن يفرضوا عليه نفوذهم من القيروان . ولقد كانت نوميديا تمثل

(١) عندما وجد العرب أن سيطرة البيزنطيين على البحر قد مكنتهم من استرداد الإسكندرية لفترة وجيزة أدرك العرب حاجتهم إلى بناء أسطول بحرى عام ٦٤٥ . (المؤلف)

دائماً مركزاً لمعارضة أى نفوذ أجنبى وظلت كذلك لمدة قرون . أما فى الأجزاء الأخرى من المغرب فقد دهش العرب لمدى السهولة التى تلقت بها القبائل البربرية هناك تعاليم الإسلام السمحة وتحمسوا لها . وبسرعة تمكنوا من إدماجها فى تقاليدهم القديمة وعقائدهم الوثنية . ولكن هذه العناصر كانت وشيكة الإيمان برسالة التوحيد التى جاء بها الساميون خلال نفوذ قرطاجة الفينيقى القديم ، وكذلك خلال القرون التى استغرقتها الدعوة اليهودية والمسيحية . ولقد كان غزو المسلمين لشبه جزيرة ايبريا قد بدأ فى عام ٧١١ ذلك الغزو الذى كان الفضل فيه لعناصر البربر كما كان للعرب .

وفى هذه الآونة كانت الإمبراطورية العربية فى إفريقية ، شأنها فى ذلك شأن الأجزاء الأخرى ، قد بدأت تقاسى من التصدع والانهيار . فقد كانت هذه الإمبراطورية قد بدأت فترة ازدهارها وقوتها خلال فترة الحماس التى صاحبت ظهور الإسلام . ولكن حينما بدأ العرب فى الاستقرار والتمتع بجنى ثمار انتصاراتهم ، بدأت انقساماتهم الداخلية تظهر . وبدأت الشحناء تدب بين صفوفهم بعد أن ثارت من جديد خلافاتهم القديمة . وبطبيعة الحال كانت هذه الخلافات تثور وتقوى بين آونة وأخرى . ولم يبق الإسلام مدة طويلة يمثل قوة متماسكة كما كان فى بدء الدعوة . فقد ظهرت الخلافات فى الرأى بصورة متزايدة حينما صار من الضرورى الوقوف على تعاليم محمد عليه الصلاة والسلام بعد وفاته وتنفيذ ما جاء به كما ثار الجدل حول المكان الذى يجب أن تستقر فيه قوة المجتمع الإسلامى بعد وفاة الرسول والمنهج الذى سوف يسير عليه المسلمون، خاصة بعد أن أصبح الإسلام ديناً ودولة فى نفس الوقت .

ولقد ظهرت بعض الخلافات الأولى فى إفريقية ولكن موضوع الخلاف هذا يخرج عن نطاق هذا الكتاب ولا يسمح به إلا كتب الفقه والتاريخ الإسلامى الطويلة[1]. وإنما الأصل فيها قديم يرجع إلى الفترات الأولى من

---

(١) ارجع إلى كتاب « جب » عن الإسلام وكتاب « برتراند لويس » عن العرب فى الإسلام . (المؤلف)

ظهور هذا الدين . وما ارتبط بها من بحث فى أصل العقيدة الإسلامية . ففى بداية الأمر تولى شئون الإسلام أربعة من الخلفاء بعد وفاته عليه السلام ، وكانوا جميعاً من المقربين للرسول ومن صحابته . وكان الخليفة الثالث هو « عثمان » وكان ضعيفاً ومتحيزاً ، فشاعت روح الاستياء والضجر فى عدة أماكن . ولكن عثمان لم يلبث أن قتل فى عام ٦٥٦ م . وجاء من بعده خليفته « على » الذى تزوج فاطمه بنت الرسول . ولكنه لم يجد التأييد المطلق لخلافته . فقد كان معاوية حاكم سوريا وجيشه يناصبونه العداء . وفى عام ٦٥٧ تمكن معاوية من خديعة « على » بعرض موضوع الخلاف بينهما أمام فئة من المحكمين وكانت النتيجة خذلان « على » ومنذ عام ٦٥٩ ، كان « معاوية » هو الخليفة الحقيقى ،فكون الأسرة الأموية التى حكمت العالم الإسلامى وأدارت شئونه من سوريا حتى عام ٧٥٠ .

وحينما كانت غالبية المسلمين منأنصار السنة (الذين كانوا ينقسمون فيما بينهم إلى عدة مذاهب داخلية) يؤيدون الخلافة الأموية ، كانت هناك طائفتان كبيرتان تقفان ضدها وتناوئها . وهما الشيعة والخوارج . ولم يكن الشيعة يمثلون فى الواقع أكثر من أنصار « على » ومساعديه ، ثم تطور الأمر بينهم أخيراً ليضعوا أساس المذهب المعارض للأمويين . وكانت وجهة نظرهم تتلخص فى أن حكام الإسلام الشرعيين يجب أن يكونوا من نسل الرسول وعصبته الذين ينحدرون من نسل على وزوجته فاطمه بنت الرسول (ومن هنا كانت اصطلاحات العلويين والفاطميين) وبعد انتصار معاوية ، بدأ الشيعة ينشرون رأياً غامضاً يقول إن خلفاء على يمثلون أئمة مختفية لهم سلطة روحانية حقيقية . وقد قالوا بهذا برغم تكذيب عامل الزمن الذى يمكن أن تسود فيه مثل هذه الآراء . وربما كان بعض الشيعة قد اقتبسوا ذلك من المسيحية . فطوروا مذهب « المهدى » ذلك الرائد الذى سوف يظهر فى الوقت المناسب من أجل

الأعداد ليوم القيامة[1]. أما الخوارج فهم فئة من البدو كانوا من أتباع على ولكنهم انقسموا وخرجوا عن طاعته بعد أن رفضوا مبدأ التحكيم الذى بمقتضاه تؤول الخلافة إلى غير « على »، ورأوا فى ذلك مخالفة لإرادة الله . وعلى هذا كان الخوارج يمثلون فئة متعصبة دينياً ؛ وكان هذا التعصب أمراً ترفضه المبادئ الإسلامية رفضاً تاماً . ولكنهم كانوا يرتبطون مع بعضهم البعض تحت ظل الظروف القبلية ، فى نفس الوقت الذى تظللهم فيه مثل هذه الاتجاهات التعصبية .

وفى منتصف القرن الثامن تعرضت الإمبراطورية العربية لمحنة شديدة أخرى انتهت حينما حلّ العباسيون محل الأمويين . ولم يحكم العباسيون الدولة الإسلامية من دمشق قلب الإمبراطورية الاستراتيجي فى سوريا . ولكن من المدينة الجديدة بغداد تلك التى شيدت فى واحد من أغنى أقاليم الإمبراطورية فى العراق . وعن طريق الزراعة والتجارة التى كانت لها جذور ثابته فى هذا الإقليم تمكن العباسيون من الارتقاء بالإمبراطورية إلى قمة العلم والمدنية . وعن هذا الطريق استطاع العرب توطيد أقدامهم بصورة لا بأس بها . ولم يكن مجرد الغزو هو السبب الجوهرى وراء توسع العرب بقدر ما كان استغلال المناطق التى كانت تخضع لهم ، فلم تكن القوة الحقيقية كامنة فى أفراد القبائل العربية وإنما كانت تتركز فى أولئك الجنود المحترفين ورجال الإدارة الذين كانوا يختارون عادة من مماليك الخليفة الأتراك .

ولقد كان لتحول مركز الإمبراطورية إدارياً وروحياً إلى الشرق نتائج هامة فى إفريقية . فبدأ الانحلال يدب فى أوصال الأقاليم الغربية . فها هى

---

(١) انقسم الشيعة عدة طوائف فمنهم طائفة قالت بأن الوصى قد كلفه الله بتبليغ الدعوة الإسلامية إلى « على » ولكنه أخطأ وأنزله على « محمد » . فريق آخر كان يقول بأن الله سبحانه وتعالى قد حلت ذاته بشخص على وهذه الفئة هى التى كانت تدعى أنها تملك هذه القوى الروحانية ، كما كانت تؤمن أيضاً بأن المهدى المنتظر الذى سيظهر على الأرض ويقيم العدل فيها بعد قتل المسيخ الدجال إنما هو من أبناء « على » . (المترجم)

أسبانيا تفقد أهميتها وفاعليتها بالنسبة للعباسيين . فقد كانت لها حكومة مستقلة من قبل الأمويين كما بدأت جماعات البربر فى المغرب ينزعون نزعة استقلالية مستغلين الفرص التى قدمتها الانقسامات الداخلية بين المسلمين ليثبتوا ذاتهم وشخصيتهم على الإقليم . وأصبحت معظم القبائل الموجودة على هوامش مراكز الاستقرار الذين كانوا يقومون بالتجارة والرعى مع السودان من الخوارج . وبهذه الطريقة أصبحوا منذ ذلك الحين مسلمين لهم سلطة خارجية مستقلة ، كما كان كثير من البربر الأوائل قد وجدوا فى الدوناتيزمية (البربرية القديمة) الطريقة التى يستطيعون بها أن يكونوا مسيحيين دون الخضوع لروما . وكانت هناك مجتمعات كاملة من الخوارج ذات ممالك خاصة ازدهرت خلال القرنين الثامن والتاسع كما فى سجلماسة أعظم مركز للقوافل فى جنوب مراكش، وكذلك فى طرابلس وفى تونس وربما حول تاهرت Tahert فى وسط المغرب أيضاً . كما ذهب بعض البربر أبعد من ذلك فتسببوا فى تصديع الكيان العربى الإسلامى فى المنطقة ؛ ليس لمجرد نزعتهم القبلية وإنما أيضاً لنزعتهم الإقليمية المتطرفة . لهذا كان « إدريس بن عبدالله » أحد « العلويين » المهاجرين قد اختارته القبائل البربرية فى مراكش إماماً فى عام ٧٨٨ ، ولم تلبث هذه الإمامة أن تدعمت لتتحول إلى مملكة كبيرة فى غرب المغرب . وعلى الرغم من أن « إدريس » قد فشل فى تشييد أسرة ثابتة إلا أن أربعين عاماً من حكمها كانت كفيلة بتزويد مراكش وإعدادها لتتخذ لها أول مدينة وطنية كعاصمة لها هى فاس . وبذلك وضع البذور الأولى التى تفجرت ثمارها فيما بعد تنادى بفكرة المملكة المراكشية المتحدة .

وكانت التغيرات السياسية فى منطقة إفريقية وفى مصر أقل خطراً من ذلك فقد ظل العرب فى حكم منطقة إفريقية ولكن فى عام ٨٠٠ نجح أحد الحكام فى جعل الحكم وراثياً فى أسرته التى كان يسمى أفرادها بالأغالبة والذين استقلوا عن بغداد فى كل شىء إلا التبعية الاسمية. أما الموقف فى مصر فقد كان أكثر تعقيداً ، فقد أصبح الحكم فيها مقصوراً على الأتراك المقربين من بلاط

الخليفة العباسى . وبنهاية القرن التاسع ، كان المرشحون من هؤلاء الذين يحكمون مصر من أصدقاء هذا البلاط قد ملوا من إرسال إيرادات الدولة إلى سادتهم فى بغداد . فبدأوا فى تحويل هذه الإيرادات إلى أنفسهم ، فشيدوا مدينة فاخرة زاخرة بالقصور أسموها « العسكر » على امتداد الفسطاط وأنشأوا لهم جيشاً من العبيد الأتراك الذين كانوا ينشدون باستخدامهم إقامة إمبراطورية مستقلة فى سوريا والحجاز ، وليقاوموا جيوش المماليك أو العبيد الأتراك الذين كانوا يوفدون من بغداد لتأديبهم أو محاربتهم . وعندما حل عام ٩٣٥ كانت مصر قد سقطت تماماً من يد الخلافة العباسية . ولم يكن من السهل القول بأن هذا الحدث قد حقق للشعب المصرى استقلاله . فقد بقى ذلك الشعب خاضعاً لحكم أسر أجنبية صدت الكثير عن مصر من تهديدات القارة الأسيوية عن فيهـــا من الطامعين فى مواردها (!) ونادراً ما أثبتوا عجزاً فى إقامة نظام حكم يرضى طموح سادتهم ورؤسائهم . أما تونس فقد كانت أسعد حظاً . فقد تمكن الأغالبة وأقرباؤهم العرب من الاحتفاظ بالسلطة كاملة فى أيديهم . ولهذا تمكنوا من إعادة الحياة الزراعية والاقتصادية التى ورثوها عن الرومان خلال الحكم الإسلامى الجديد . إلا أن هذه الظروف برغم كل هذا لم تكن فى ازدهار مثيلتها فى مصروليس من شك فى أنهم مارسوا ذلك بطريقة فريدة خاصة بهم وبتفكيرهم .

وبرغم أن غزو العرب لشمال إفريقية لم يمكنهم من إقامة إمبراطورية سياسية ثابتة ، إلا أنه بلا شك استطاع أن يحقق تغيرات اجتماعية دائمة فقد هدم الإسلام المسيحية آخر وأهم تراث خلفته مدنية البحر المتوسط كدين ونظام وهو المسيحية . وربما كان من أسباب ذلك أن جماعات البربر لم يعتنقوا كل تعاليم المسيحية وإنما جزءاً يسيراً منها . الأمر الذى جعل منها بعد أن خضعت المنطقة للإسلام ديناً محلياً أكثر منه عالمياً . ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يفسر اختفاء المسيحية من المدن خاصة تلك التى استطاع اليهود من قبل أن يحافظوا على وحدتهم فيها . ومن الواضح أن أسباب ضعف المسيحية هنا كان سببه

الانشقاق الديني الذى سببته الدوتاتيزمية وما تبع ذلك من اضطهاد أولا من الكنيسة الرسمية الرومانية ثم من الوندال الآريين وأخيراً من البيزنطيين الأرثوذكس . ومن المحتمل أن تكون هذه المضايقات قد ساعدت على تحطيم الكنيسة الدوتاتيزمية المحلية بدون تقوية العناصر الكاثولوكية .

وكانت الحالة فى المغرب تختلف اختلافاً كبيراً بالطبع عنها فى مصر حيث تعوّد الناس على النفوذ الإغريقى والاضطهاد الأجنبى الذى جعلهم يتمسكون بكنيستهم تمسكاً قلبياً . وأصبحت الكنيسة القبطية جزءاً لا يتجزأ من حياتهم . كما أن اللغة القومية الجديدة قد تشكلت خارج إطار اللغة المصرية القديمة . فاصطلاح « قبطى » فى الواقع مرادف لكلمة « مصرى » وعليه فإن الكنيسة القبطية لا يمكن مقارنتها بالكنيسة البيزنطية الرسمية لا مادياً ولا معنوياً على الإطلاق . ولكنها أخيراً . . أخيراً جداً اختفت بعد غزو العرب . فبرغم أن معظم المصريين أصبحوا يدينون بالإسلام بعد ذلك ، إلا أن هذا يعتبر أقل المضايقات التى قابلت كنيستهم . فلو أن المسيحية كانت قد تعرضت لاضطهاد على فترات متباعدة لأمكن أن تصمد ، بل وتقوى أيضاً . ولكن الأقباط لم يتمكنوا من مقاومة ذلك التيار المنتظم الذى حمل إليهم أعداداً لا تحصى من العناصر العربية والجنود والعديد من أتباع الحكام ، وأحياناً قبائل كاملة كانت تتدفق على مصر من الأقاليم المجاورة لها : من سوريا ، ومن الجزيرة العربية لتمارس الضغط والاضطهاد . وصار لزاماً على الأقباط أن يستمروا فى عملية تكيف بطريقة أو بأخرى وباستمرار مع نظام الحكم . وأخيراً فى خلال العصر العباسى حينما فقد العرب تلقائياً كيانهم كقوة حاكمة متسلطة — بدأت أغلب العناصر القبطية تندمج ببطء شديد مع السكان العرب فى مصر الحديثة .

وقد ظلت أقلية مسيحية فقط متمسكة بدينها بقوة وجلد لتبقى شاهداً على أنه لعدة قرون كانت إفريقية شمال الصحراء الكبرى قد شاركت فى مدنية البحر المتوسط ، وأصبحت الآن الأطراف الجنوبية لعالم البحر المتوسط القديم جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامى الجديد وحضارته . فقرطاجة الفينيقية قد

مهدت الطريق للعرب والإسلام فى المغرب . فسحنة العرب ولغتهم كانت أقرب إلى البربر من الإغريق أو الرومان وعلى ذلك فقد تمكنوا من ضمهم إلى نطاق مدنيتهم . وأصبحت لذلك مدنية الإسلام أعمق جذوراً فى شمال إفريقية وأكثر قدرة على الاتساع جنوباً فى مناطق الزنوج ، منها فى نطاق البحر المتوسط . وعلى أى الحالات فقد ظلت عناصر مدنية البحر المتوسط باقية خلال حضارة الإسلام فى شمال إفريقية . وتعلم العرب أنفسهم الكثير من إمبراطورية البحر المتوسط خاصة فى مصر . ولم يكن الفضل فى انتشار الحضارة الإسلامية جنوباً للعرب بقدر ما كان للعناصر التى دانت بالإسلام فى إقليم البحر المتوسط بشمال إفريقية[1] .

(١) نقلنا وجهة نظر المؤلف بأمانة، ولا يحتاج تفنيدها لمجهود . فالإسلام ثالث الديانات التوحيدية الكبرى التى ظهرت فى حوض البحر المتوسط وقريباً منه . والقرآن الكريم كتاب منزل يأمر المؤمنين به بالإيمان بالله وكتبه ورسله ، ولا محل للقول بأن الإسلام هدم المسيحية فى المغرب ، بل الأصح القول أن الإسلام حل فى قلوب المؤمنين محل مسيحية سطحية – باعتراف المؤلف – فى المغرب كما أن الأقباط فى مصر لم يلقوا اضطهاداً على يد العرب ، بل العكس هو الصحيح . ويبدو أن المؤلف قد تحسر على ذلك ، فلو لاقوا اضطهاداً وعنفاً على يد العرب – فى رأيه – لتمسكوا بالمسيحية . ومن هنا نرى التناقض واضحاً فى كلام المؤلف . فانتشار الإسلام فى مصر جاء نتيجة – باعتراف المؤلف – لتسامح العرب .

أما الأسر الإسلامية التى حكمت مصر ، فلم تكن فى رأى المصريين أو المسلمين عامة أجنبية ، وكان الإسلام رابطة عليا تربط المسلمين جميعاً . وبذلك فلم تكن أسر الطولونيين أو الإخشيد أن الأيوبيين أو المماليك فى نظر المسلمين عامة أو المصريين أجنبية . (المراجع) .

— ٧ —

شمال وغرب إفريقية خلال عصر ازدهار الإسلام

إن أعظم الأعمال التى حققها الإسلام فى إفريقية لم يتم إلا بعد انحلال الإمبراطورية العربية . فقد كان العرب يرون فى قدرة الشعوب الإفريقية على التطور ما يحقق أغراضهم الخاصة بنشر أفكارهم الجديدة فى هذا الجزء المتسع من العالم . وخلال الفترة ما بين عام ٨٠٠ ، ١٣٠٠ م حينما كانت مدنية الإسلام لا يمكن أن يباريها فى مجال الفكر والفن والعلم والإدارة أى جزء من أجزاء العالم كما كانت أيضاً الفترة التى ازدهرت فيها بعض الممالك الإفريقية الكبيرة . ولقد لعب البربر فى شمال إفريقية دوراً عظيما فى تاريخ العالم الغربى والأجزاء الآسيوية القريبة ، كما كانت هناك أضخم وأعظم الممالك السودانية جنوب الصحراء الكبرى حيث وجد الإسلام فيها مرتعاً خصيباً يستطيع أن يجول فيه ويصول .

وللوقوف على كنه هذا التقدم لا بد لنا من العودة إلى الوراء إلى فترة الانقسامات الخطيرة التى تعرض لها الإسلام . فقد تولى العباسيون السلطة بمساعدة الشيعة وتأييدهم . وفى ذلك الوقت جعلوا من أنفسهم خلفاء للعالم الإسلامى كله ، نابذين ذلك السلم الذى ارتفعوا عليه حتى لا يستخدمه غيرهم كذلك . إلا أن الشيعة الذين ظلوا مضطهدين قد ضاعفوا جهودهم لينخروا فى عظام الدولة . ومع نهاية القرن الثامن كان أحد دعاتهم قد غادر اليمن متوجهاً إلى المغرب . وهناك قوبل بالترحاب من قبائل كتامه أحد فروع القبالة الذين كانوا يعارضون باستمرار الحكومات المستقرة . وكان قد شاع وجودها فى

إفريقية الصغرى والتى تسببت فى زوال حكم الأغالبة هناك . وكان هذا الوافد بمثابة (مهدى) هذه الفترة وصل بنفسه من اليمن لاستجلاء الموقف . وفى عام ٩١٠ كان تنصيبه خليفة قد جعل من الواضح أنه يطمع فى أن يكون أكثر من مجرد قائد لحكومة البربر . ولقد كان هدف الفاطميين — وهو الاسم الجديد لأسرة هذا الوافد — هو أن تكون زعيمة العالم الإسلامى كله . ولتحقيق هذا الهدف انتقلت عاصمتهم من القيروان إلى مدينة المهدية المحصنة فى الشرق . ولقد أثبتت التجارب أن بداية الزحف على مصر فى هذه الفترة لا شك أمر سابق لأوانه . فللتأكد من أن القوة البحرية والحربية لديهم ستفى لتحقيق هذا الغرض ، كان على الفاطميين أن يجبروا قبائل المغرب على مساعدتهم أو على الأقل يخضعونهم لنفوذهم . ولقد كان هذا الأمر بداية المتاعب لقبائل كتامه . وفى عام ٩٦٩ كانت مصر قد سقطت فى أيدى الفاطميين واعترفت سوريا والحجاز بالخليفة الفاطمى (المعز) الذى وصل إلى القاهرة واتخذها عاصمته الجديدة التى تجاور العسكر والفسطاط وجاء معه أعوانه وخزائنه . ولم يقف عند هذا الحد فقط ، بل جلب معه رفات أسلافه الراحلين أيضاً ليجعل إقامته دائمة فى مصر .

وأصبح لوصول العرب إلى المغرب نتائج عكسية تستحق الذكر فلم يقف الأمر عند الحد الذى ساد فيه حكام البربر وجنودهم الشعوب العربية فى سوريا وأجزاء من الجزيرة العربية ، بل تعداه إلى سيطرة التجار البربر على جزء كبير من تجارة المشرق العربى ، والأجزاء الآسيوية القريبة الأخرى . ومع ذلك لم تقم إمبراطورية متحدة للبربر فى شمال إفريقية . وظل الخلفاء الفاطميون يحكمون مصر على الأقل بصفة رمزية حتى عام ١١٧١ م ، ولكن كما سنرى فيما بعد ، لم يلبثوا أن فقدوا سيطرتهم على المغرب . كما انتهى على أيديهم تدخل مصر فى شئون جنوب غرب آسيا وأصبحت أقاليم سوريا مهددة باستمرار وغير مأمونة . كما عادى الناس هناك مذهب الشيعة . وكان ثمة خطر فى البداية من الجيوش البيزنطية التى ربما تفكر يوماً فى غزو المنطقة

من جديد . ولكن سوريا لم تلبث أن اجتاحتها جيوش السلاجقة الأتراك الذين تدفقوا على الإمبراطورية الإسلامية من الشرق . فسقطت بغداد فى أيديهم سنة ١٠٥٥ ، ودخلوا دمشق سنة ١٠٧٠ وأخيراً فى سنة ١٠٩٦ كانت الحروب الصليبية الأوروبية تطرق أبواب المنطقة . ثم أصبحت سوريا إقليماً إسلامياً منفصلا ، تحكمه جيوش الأتراك أو القادة الأكراد الذين يدينون للسنة . وكان ذلك إيذاناً بإخضاع مصر هى الأخرى بلا نزاع ، خاصة حينما حاول الصليبيون التحول إلى الجناح الجنوبى وأخيراً تمكن صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يحتل باسمه مكان الصدارة ، رمزاً للقوة والبأس . وفى عام ١١٧١ أعلن فى مصر رسمياً قيام أسرة أجنبية جديدة تحت اسم « الأيوبيين » .

ومنذ بداية هذه الفترة أصبحت مصر درعاً قوياً يحمى إفريقية من التدخل الأجنبى . ولقد ظلت هذه الأسرة فى الحكم حتى عام (١٢٥٠) إلا أن حكمها فى تلك المدة كان أسطورة عن القوة حطمها المماليك المصريون . تلك الشرذمة من أفراد الطبقة العسكرية الراقية المعتدة بنفسها والتى جاءت من أسواق الرقيق فى وسط آسيا والتى تنحدر أصولها أساساً من سلالة الأتراك . وبرغم أنهم أصبحوا فيما بعد يمثلون العنصر الجركسى (القوقازى) المتسلط إلا أنهم كانوا جديرين بالحكم فعلا عام ١٢٦١ حينما طلبوا من العباسيين المهاجرين من بغداد أن يقيموا الخلافة من جديد فى القاهرة . وظلت هذه الخلافة المزيفة فى مصر حتى بعد غزو الأتراك عام ١٥١٧ . واستطاع بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) وقلاوون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) صدّ المغول عن إفريقية ، كما قضوا على الصليبيين أيضاً . ووصلت مصر إلى قمة القوة العسكرية التى لم تبلغها بعد ذلك إلا عندما جاءها محمد على فى القرن الثامن عشر . وبرغم أن نظام الحكم المملوكى منذ نهاية القرن الرابع عشر تقريباً كان يثبت تفوقاً ظاهرياً ، إلا أن القوة الحقيقية لهم كانت فى طريقها إلى الزوال . فقد شغلهم نضالهم المستمر من أجل الاحتفاظ بمركزهم هنا عن العناية بأمور الرى والزراعة التى تعتبر أساس القوة والثراء لمصر ، فأودى ذلك بها إلى الحضيض . وأكثر من هذا فقد أتلف

المماليك خلال حكمهم مركز الدولة التجارى وذلك بابتزازهم التجارة واحتكارهم لها .

ولقد كانت إمبراطورية الفاطميين فى المغرب لا تشمل قبائل البربر ومواطنها الأصلية . كما أن الخليفة الفاطمى لم ينتقل بجيشه إلى مصر . كما عهد المعز بالولاية إلى زعيم الصنهاجة ، غير أن هذا بمجرد أن أعلن استقلاله فقد سيطرته على وطنه الأصلى فى مناطق القبالة أمام الفرع المنافس لأسرته . وكان رد الفاطميين على ظهور ممالك الصنهاجة المستقلة ، هو إرسال عدد من القبائل البدوية المشاغبة فى مصر العليا لمضايقتهم . فأرسل إليهم قبائل بنى هلال البدوية التى وصلت المغرب عام ١٠٦١ . ولقد كان وصولهم هناك يعنى تحولاجديداً فى تاريخ الإقليم . ولقد ظل العرب حتى ذلك الحين فى المغرب يمثلون أعداداً نسبية ضئيلة تمثل القشرة العليا للسكان ولكنها اختلطت اختلاطاً لا يقبل الشك مع عناصر البربر . ومنذ صار الإسلام ديناً لمعظم البربر . واللغة العربية هى لغتهم ولغة التعليم والثقافة والإدارة والتجارة لديهم . ظلت معظم العناصر البدوية على وفاء للهجتها البربرية المحلية . ولقد كانت غزوات الهلالية تمثل هجوماً تقوم به قبائل بأكملها تستهدف السلب والنهب قبل كل شىء والاستحواذ على مناطق جديدة للرعى . ولم تكن بهذا تمثل إلا بقية من القبائل العربية البدائية تمتلك القليل من الحضارة الإسلامية التى كانت قد استحوذت فعلا على المغرب صاحب المدنيات العريقة . ويصف « ابن خلدون » المؤرخ العربى التونسى الكبير بنى هلال وغيرهم من البلاد بأنهم « أسراب من الجراد تحطم كل ما يقف فى طريقها » وأصبحت ممالك صنهاجة التى اضطلعت بمسئولياتها فى مجال المدنية والزراعة فى السهل الساحلى الإفريقى ، تعانى من التلف والتخريب الذى بدأ يحل بمناطقها وبدأت زناته تظهر فى الأفق . إلا أن تزايد وصول البدو إلى المنطقة جعل قبائلهم تختلط وتستعرب . ولهذا فإن مجتمع البربر بدأ بالتدريج فى الانحلال من الشرق ليصبح ممثلا فى جماعات متنافسة تجمع بين صفات العرب والبربر تتصارع فيما بينها . ولقد تعودت قبائل البربر على

ممارسة حياتها فى المناطق الجبلية الحصينة حيث القبالة والأوراس . فكانت حياتهم فى مظهرها الخارجى . ولو قدر للمغرب أن ينجو من البداوة ، فإنه كان بفضل مراكش فقط ــ حيث قام الأدارسة الذين كانوا قد بدأوا فعلا فى غرس فكرة مملكة البربر العظمى ــ واستطاعوا أن يسيروا قدماً فى تنفيذ هذه الفكرة برغم أنها ليست من وحى المراكشية أنفسهم ، وإنما كانت من وحى بعض الطوارق الذين كانوا فى الصحراءالكبرى .

ولم تكن الصلات بين العرب والإسلام من جهة وبين سكان الصحراء الكبرى والسودان خارج وادى النيل من جهة أخرى على درجة كبيرة من الترابط . ولكنه فى خلال العصر الأموى كانت جماعات من العرب تجوب مناطق فزان وجنوب مراكش . ونحن نعلم أن غانا وكانم خلال فترات ازدهارها وبعد مضى قرنين من زوال ملوك كانم ، بدأت تتحول إلى الإسلام وكان ذلك بلا جدال نتيجة لعلاقاتهم بكل من « إفريقية » ومصر . ولكن قبل غزو الهلالية كان العرب فى المغرب من القلة بمكان بحيث لم يتمكنوا من السيطرة على الصحراء الكبرى سيطرة مباشرة . وكان شأنهم شأن الرومان والقرطاجنين من قبلهم يميلون إلى ترك الصحراء والمسئوليات المباشرة لحركة التجارة الصحراوية للعناصر الطوارقية، وعلى أى حال فإنه مع بداية القرن الحادى عشر كانت عملية انتشار الإسلام على الأقل فى الأجزاء القريبة من الصحراء الكبرى قد انتقلت بصورة واضحة إلى أفراد قبائل الصنهاجة الطوارقية التى كانت تتحكم فى طريق القوافل بين غانا ومراكش لتمكنهم من القيام بدورهم فى تنشيط تعاليم الدين من جديد . وكان لهذا الدور نتائجه البالغة الأهمية لكل من المغرب والسودان الغربى على السواء .

والقصة التقليدية التى يرويها ابن خلدون وغيره من المؤلفين المسلمين تقول بأن زعيماً من قبائل صنهاجة توجه إلى مكة لحج بيت الله . وكانت هذه الرحلة دافعاً له ليعبر عن مدى الزيف الذى يحيط بالعقيدة الإسلامية التى يعتنقها شعبه . وحينما عاد إلى وطنه جاء معه ببعض المثقفين فى الدين مثل

« ابن ياسين » ليأخذ على عاتقه مهمة القيام بحملة إصلاح وتهذيب بين شعبه . ولم تقابل الصنهاجة تلك الدعوة بالترحيب . فارتدت على أعقابها معتصمة برباط[1] فى جزيرة . وهناك استطاعت أن تجمع الصفوة القادرة على تنفيذ برنامجها من علية القوم حول هدف واحد . وكان هذا بداية دولة المرابطين (أو شعب جزيرة الرباط) ولقد انتشرت دعوة المرابطين وما أن اعتنقها رجال قبائل صنهاجة حتى هبوا فزعين يهاجمون الشمال والجنوب على حد سواء جناح بزعامة أبى بكر الذى اتجه إلى الجنوب ليهاجم إمبراطورية الزنوج فى غانا وجناح ابن تاشفين واتجه إلى الشمال إلى مراكش . وفى عام ١٠٦٩ كانوا قد انتشروا فى طول هذا الإقليم وعرضه . ولم يلبثوا أن اتجهوا شرقاً حتى حدود صنهاجة فى شرق المغرب . وفى عام ١٠٨٦ استجاب « ابن تاشفين » لنداء مسلمى أسبانيا لمساعدتهم ضد الاضطهاد المسيحى الذى بدأ من جديد وفى عام ١١٠٣ كان كل مسلمى أسبانيا تحت نفوذ المرابطين .

ولقد كانت حركة المرابطين ذات دوافع دينية جعلتهم يقومون بهذه الحركة ليكسروا شوكة العناصر الإسلامية المتعصبة فى المغرب من جهة ولتحويل الزنوج عن عبادة الأوثان فى السودان من جهة أخرى . ويجب أن نراعى أيضاً الظروف السياسية والاقتصادية الصعبة التى أحاطت بالمنطقة الغربية من الصحراء الكبرى آنذاك . فمراكش كانت من قبل مملكة تدب فيها الفوضى والاضطراب . فغزوات الفاطميين برغم نجاحها عسكرياً إلا أنها لم تلحق بالبلاد هزيمة حقيقية . ومن أسباب ذلك العداء القطرى للقبائل الرحل ضد أى حكم أجنبى ؛ ومن الأسباب الأخرى أيضاً أنهم استعدوا الأمويين فى أسبانيا . ولم يكن النصر الحقيقى للفاطميين أو للأمويين . وإنما كان لقبائل زنانه فى الغرب . وقد كان لتفوق زناته وتغلغلهم نتيجتان هامتان . الأولى أن معظم امتدادهما كان

---

(١) الرباط هو معسكر إسلامى حصين حيث يتلقى المسلمون الأتقياء تدريباً عسكرياً إلى جانب تعاليم الدين . ففكرة الرباط إذن وثيقة الصلة بفكرة الجهاد . ولا يعرف بالضبط محل رباط ابن ياسين ، وربما كان أول رباط فى جزيرة قريبة بالمحيط الأطلنطى . (المؤلف)

يشمل مناطق مشيخات الصنهاجة فى جنوب مراكش . ومن هنا استغاثوا بأقربائهم الطوارق فى الصحراء الكبرى . والثانية أن مجىء زناته قد زعزع اقتصاديات نهايات الطرق الصحراوية التجارية المراكشية التى كانت تجوبها الصنهاجة الطوارق ، وفى نفس الوقت كانت الصنهاجة فى الصحراء الكبرى قد بدأت تعانى من نمو غانا التى نجحت فى نهاية القرن العاشر فى فرض الجزية على أوداغوست Awdaghost التى تمثل مركزهم التجارى والرئيسى فى الجنوب . وعلى هذا فإن المسئولية الأساسية لمهمة ابن ياسين إنما جاءت كرد فعل للتطورات الضارة بمصالح الصنهاجة سواء فى مراكش أو فى السودان .

ولقد قام المرابطون فى المغرب بأعمال رائعة فعلا . فقد جعلوا من أنفسهم سداً يحول بين الحكم الفاسد والضرائب الجائرة وبين الناس معتصمين بالقرآن الكريم ، وكذلك ضد غزوات زناته الأجنبية وتمكنوا بذلك عن طريق المدينة الحديثة مراكش أن يقيموا إمبراطورية ناجحة ، تسيطر على النصف الغربى من المغرب . وبمرور الوقت كانت هذه الأعمال قد بدأت تفقدهم بساطة إيمانهم وطاقاتهم العسكرية وارتباطهم بحياة الصحراء . وبدأوا يظهرون أمام القبائل المراكشية كعناصر أجنبية تحمى حريات المواطنين فى مقابل ما يشبعون به بطونهم من الجزية التى يأخذونها منهم . ولقد قام ابن تومارت وهو أحد العلماء الذين عادوا المرابطين فى جنوب مراكش يندد بهم ويقول إن انغماسهم فى حب الدنيا يتعارض مع دعوتهم الخالصة لله ووحدانيته الأمر الذى وجد آذاناً صاغية بين قبائل مصموده البربرية المنتشرة فى جبل أطلس بمراكش . وكانت هذه القبائل على عداء قديم مع الصهناجة . إلا أنه كانت تنقصهم الوحدة التى يمكن أن تجمعهم للوقوف فى وجههم . وفى حوالى عام ١١٢٥ شيد ابن تومارت الرباط وأطلق على نفسه المهدى . وفشل المرابطون فى الوقوف أمامه بصورة سريعة . كما أن الفكرة التى كان يتبناها وهى فكرة (الموحدين) قد لقيت تأييداً كبيراً بين القبائل الجبلية المعادية للصهناجة . وفى سنة ١١٤٧ كان « عبد المؤمن » وهو خليفة المهدى ومن قبائل زناته قد استولى على الأقاليم المراكشية حاملا لقب الخليفة .

وعلى الرغم من أن الموحدين قد حلوا محل المرابطين بصورة سريعة فى أسبانيا أيضاً إلا أن « عبد المؤمن » كان يدرك جيداً أن الخطر الجسيم الذى يمكن أن يحيق بنظام حكمه لن يأتيه من المسيحيين فى الشمال وإنما من الشرق . فقد كانت هناك ممالك صنهاجة التى تعادى ذلك التحالف بين زناته ومصموده ، وبالإضافة إلى ذلك أيضاً كانت هناك عمليات التخريب الشديدة التى تمت على أيدى البدو فى مجالات البربر . وفى عام ١١٥٩ دخل «عبد المؤمن» تونس ليضم بذلك المغرب كله تحت لواء حكومة بربرية واحدة . وأصبح المغرب الآن قوة عظيمة للعالم الإسلامى وعالم البحر المتوسط . فقد قام الموحدون بأعمال رائعة فى مجال الفن على أيدى فصول التعليم التى أنشأوها فى المغرب والتى تعلموا فيها الكثير من الأسبان . كما أصبحت مراكش وفزان وتلمسان والرباط مدناً جميلة متحضرة . وفى مقابل ذلك كله ؛ وإلى جانب الاهتمام بالجيش والأسطول تم مسح أراضى هذه الإمبراطورية الجديدة وفرضت الضرائب المنتظمة ، العادلة حسب إنتاجية الفرد . وميّز الموحدون فى كل هذا تمييزاً واضحاً بين كل من قبائل مصموده وزناته من جهة ، وبين باقى البربر من جهة أخرى . وعندما بدأوا فى تنفيذ مشروعاتهم بصورة جديدة ، ظهر هذا التمييز بصورة خطيرة فى مختلف المصالح والإدارات . فبرغم الأعمال العظيمة التى تحققت على أيدى الموحدين آنذاك إلا أنهم فشلوا فى نشر فكرة الدولة بين القبائل البربرية العديدة. وكان هذا الفشل الذريع معناه ضعف محاولاتهم فى التغلب على الصعاب الجسيمة التى تواجه إمبراطوريتهم ، والتى كان مصدرها النجاح المطرد للقوة الأسبانية من جهة وتهديد البدو من جهة ثانية .

وكانت مشكلة نجاح الإمبراطورية تحت هذه الظروف تشابه — ولكن بصورة مصغرة — تلك المشكلة التى واجهت فجر الإسلام : هل تعود السلطة إلى الصحابة أم إلى نسل الرسول ؟ ولقد أثبت « عبد المؤمن » بجدارة نجاحاً وقوة فى تدعيم حكم وراثى بالمنطقة . وقد استطاع الخلفاء الموحدون حتى عام ١٢١٣ أن يثبتوا جدارة وقدرة تؤهلهم لحكم البلاد . إلا أن عائلة زناته فزعت

غرب افريقيا في عصر ازدهار الاسلام

(شكل ٦)

لهذا النجاح المطرد الذى سبب البغضاء بين عناصر البربر الأخرى . وأصبح ذلك الأمر يمثل خطراً على الإمبراطورية التى بدأ يهددها من جديد نشاط كل من مسيحيي أسبانيا وبدو وسط المغرب . وفى سبيل درء هذين الخطرين قسم الخليفة « الناصر » أحد خلفاء الموحدين (١١٩٩ — ١٢١٣) حكومته ، فعين واحداً من « الحفصيين » — وهى واحدة من أبرز العائلات التى ظهرت بين الموحدين — ليحكم شرق الإمبراطورية من تونس . ولسوء حظ الموحدين أن الحفصيين حققوا نجاحاً كبيراً فتقهقر البدو ولكن الحروب ضدهم زادت من تحطيم وحدة المغرب ، وامتدت غرباً فى اتجاه مراكش . أما شمال تونس التى كانت تحت حكم أحد الحفصيين الأكفاء ، فقد أصبح جزءاً يمثل جزيرة مستقرة نسبياً منفصلة عن الغرب . وبحلول عام ١٢٣٠ كانت مملكة الحفصيين المستقلة قد قويت شوكتها واستطاعت أن تبرم اتفاقات تجارية مع أوروبا واجتذبت كثيراً من تجارة الصحراء إليها .

أما فى الغرب فقد كانت هيبة الموحدين تتعرض لخطر شديد تمثل فى هزيمتهم أمام المسيحيين فى أسبانيا عام ١٢١٢ (بقيادة لاس ناڤاس دى تولوزا) وحدد ذلك بداية نهاية القوة المراكشية ليس فى أسبانيا فقط ،ولكن فى مراكش أيضاً . فقد ذابت مملكتهم فى الأجزاء القبلية ، وفى خلال ذلك الارتباك استطاعت زناته أن تظهر منتصرة على الموحدين . ففى عام ١٢٣٥ كانت إحدى جماعاتهم فى تلمسان تجتمع حول « عبد الواحد » لتسود مداخل مراكش الشرقية . ومجموعة ابن مارين نشرت بالتدريج نفوذها من حدود الصحراء على قلب مراكش . وفى النهاية استطاعت أن تنصب نفسها على مراكش سنة ١٢٦٩ . كخلفاء للموحدين الذين خرجت من أيديهم مقاليد الأمور .

ولقد غربت الآن شمس إمبراطورية البربر . وأضحت وحدتهم التى فرضوها على المغرب هباء لا وجود له ، بل صارت هناك ثلاث وحدات بقيت لتميز تاريخ المنطقة الجديد . فى الشرق نجد تونس حيث كان الحفصيون على رأس مملكة مزدهرة دامت حتى عام ١٥٧٤ بفضل سهول تونس الزراعية

وتجارتها مع جنوب أوروبا والسودان . وفى الغرب نجد مراكش حيث كانت أول أسر المارنيين وما أعقبها من حكم للوطاسيين (١٤٦٥ – ١٥٥٤) التى جاهدت من أجل ضمان فكرة مملكة مركزية واتخاذ سياسة ثابتة ضد غارات القبائل الجبلية وقبائل الاستبس وأيضاً ضد أى غاز أجنبى جديد . أما فى الوسط فتوجد تلك الوحدة السياسية التى أطلق عليها أخيراً اسم الجزائر والتى كان بها أتباع « عبد الواحد » الذين كانوا يمثلون عناصر رعوية ترعى الماشية غير عابثة بثراء تونس فى الشرق أو مراكش فى الغرب ولا بحكوماتهم المنظمة أيضاً ، وإنما كانت تمثل مجرد قوة بسيطة من البدو تهدد أمن المجتمعات المتحضرة .

ولقد بدأ المرابطون يتحركون ضد غانا القديمة فى السودان الغربى حوالى عام ١٠٦٢ ولكنهم قوبلوا بمقاومة عنيفة وفشلوا حتى عام ١٠٧٦ فى اغتصاب عاصمتهم أو سلبها ولا شك أن هذه المقاومة المستمرة من جانب غانا إنما تعتبر مقياساً لمدى ما بلغته مقدرة الممالك السودانية من تجنيد الجيوش والطاقات والموارد الزنجية فى السودان الغربى . وعلى الرغم من أن بدو الصحراء استطاعوا أن يحرزوا بعض الانتصارات العسكرية إلا أن انقسامهم على أنفسهم حول تقسيم الغنائم المستلبة أفقدهم القدرة على الانتفاع بهذه الانتصارات . وفى خلال سنوات قلائل استطاعت غانا أن تسترد استقلالها إلا أنها لم تستطع أن تسترد كامل قوتها السابقة . فلقد كانت التجارة عبر الصحراء الكبرى والتى كانت تمثل جانباً كبيراً من القوة الاقتصادية للإمبراطورية قد انهارت على أيدى المرابطين منذ ظهروا على مسرح المنطقة . وأكثر من ذلك فإن الزراعة فى نطاق الساحل الجاف المحيط بالعاصمة القديمة قد فشلت فى تعويض التلف الذى أحدثه بدو الصحراء بقطعانهم . وبانحلالها الاقتصادى على هذا النحو . بدأت غانا فى الانهيار داخل نطاق وحدتها القبلية . ولكن فكرة الإمبراطورية لم تمت فى السودان الغربى ، وإنما بعدت فقط إلى الجنوب ، إلى الأراضى الزراعية الأفضل والبعيدة عن الصحراء والتى تقع فى مأمن من غزوات الرعاة

المخربين . وكانت التركة التى خلفتها غانا القديمة قد آلت أخيراً إلى إحدى أسر الماندى فى وادى النيجر الأعلى . وتحت زعامة سانديانا ، الذى حكم من عام ١٢٣٠ تقريباً . حتى عام ١٢٥٥ وكانت إمبراطورية الماندى العظيمة التى أطلق عليها اسم مالى قد ظهرت على مسرح المنطقة .

ومن المؤكد أن سانديانا قد ارتقى إلى السلطة كزعيم وثنى . ولكنه هو وخلفاؤه من بعده لم يلبثوا أن عرفوا قيمة الفوائد التى ستعود عليهم وعلى ممالكهم سياسياً واقتصادياً باندماجهم فى الإسلام . وفى آخر أيامهم كان ملوك غانا على ما يبدو قد استعانوا بمستشارين لهم من المسلمين . ومن المرجح أنهم كانوا من غير أبناء الأجزاء الشمالية . ولقد كان من نتائج هزيمة المرابطين أن نما الإسلام وقوى بين السودانيين أنفسهم . فتحول سنديانا إلى الإسلام وفى عصر ازدهار مالى فى نهاية القرن الرابع عشر تحول خلفاؤه كأباطرة إلى الإسلام تحولا كاملا لا شك فيه . ومنذ تلك الفترة ومعظم ممالك السودان الغربى تحكمها ولو بصفة اسمية عائلات إسلامية .

ومن المزايا التى جنتها الممالك الزنجية فى نطاق السفانا فى غرب إفريقية بعد اعتناقها الإسلام ، أنه أعطاهم مركزاً ثابتاً إزاء حكومات الشمال الإفريقى وتجارته . فقد كان الأمن والطمأنينة أمراً ضرورياً لنجاح هذه الممالك السودانية ومنذ حوالى القرن الثالث عشر كان تجار السودان أنفسهم قد اعتنقوا الإسلام أيضاً . فقد رأوا بثاقب نظرهم مقدار ما يمكن تحصيله من تجارة المناطق السودانية نفسها الواقعة تحت الحكم المباشر لملوكهم المسلمين . فأصبحوا من أعظم الناشرين للدعوة الإسلامية فى السودان الغربى . وعلى سبيل المثال فإن تجار الماندى فى القرن الرابع عشر هم الذين تمكنوا من نشر الإسلام فى مناطق الهوسا .

ولقد كان الإسلام والحضارة الإسلامية من أهم العوامل التى أسهمت فى حل معظم المشكلات الداخلية التى واجهت الإمبراطورية السودانية . فقد كان الملك أو الإمبراطور يطالب ببقاء الملك فى أسرته كحق شرعى له . فى حين

استطاع حكام مالى ومشاى أن يمدوا سيطرتهم على أقاليم أخرى . فغانا بامتدادها إنما تعكس مدى الثراء والقوة التى استطاعت بها أن تتحكم فى كل تجارة السودان تقريباً . كما أن جيوشهم استطاعت أن تفرض نوعاً من النظام فى المنطقة بحكم القانون فزاد الأمن والسلام فى الوقت الذى زادت فيه مكاسب هذه الممالك من التجارة عن طريق العملاء والعبيد فى العاصمة .

وكلما اتسعت الإمبراطورية ابتعد أباطرتهم عن الشعب إذ لم يستطع الأباطرة أن يثقوا بالرؤساء المحليين ، فتحول هؤلاء إلى المقاومة ، وبدأ الأباطرة محاولة استرداد مراكز المقاومة المحلية لتخضع لهم عن طريق إرسال رجالهم وجنودهم لإخضاع المناطق الهامشية وحكمها باسمهم ، إلا أن ذلك لم يحل المشكلة الأساسية لضمان ولاء أقربائهم فى مثل هذه المناطق . فلم يكن حكام الأقاليم الجدد يفعلون أكثر من تحويل الولاء إلى أنفسهم . وإذا كان الحاكم الإقليمى من أقرباء الرئيس واستطاع أن يحقق بعض النجاح هناك فإن ذلك يمثل خطراً كبيراً . فكان لذلك من الأفضل أن يختار الرؤساء حكام الأقاليم من العبيد وليس من أسرهم .

ولضمان استمرار التأييد الكامل للإمبراطورية المتسعة كان من الضرورى أولا خلق إدارات مركزية ذات سلطات مطلقة يربطها بمركز الإمبراطورية اتصالات مستمرة لضمان السيطرة على أطرافها . كما كان من الضرورى أيضاً ضمان الولاء الكامل للإمبراطورية خوفاً من نزعة أى من هؤلاء الحكام الإقليميين فى الاستقلال بإقليمه عن الإمبراطورية مستغلا قرابته للامبراطور . وكان الإسلام وحده الذىيستطيع أن يكفل كلا الغرضين ويحققه . فبنمو المدارس الإسلامية والمعاهد فى السودان ، ظهرت طبقة متعلمة مثقفة تضم بعض العلماء استطاعوا تنظيم إدارات الإمبراطورية وتجارتها على أكمل وجه ، فمثل هذه الطائفة لم تستغل مركزها أو قرابتها ، وإنما استطاعت فى الواقع أن تشيع الأمن والنظام فى إدارات الإمبراطورية المختلفة . ومن جهة أخرى فلم يكن يبدو أن الإسلام قد تغلغل بدرجة كبيرة فى نفوس غالبية الشعب بحيث

يمكنهم من تحقيق الغرض الثانى بدرجة كبيرة على الأقل قبل القرن التاسع الميــلادى .

وينبغى أن نؤكد فى هذا المقام أن كلا من مالى وصنغاى يمكن اعتبارهما إمبراطوريتين، ففى غضون القرن الرابع عشر كانت رسائل أباطرة مالى ترسل من عاصمتهم فى نيانى عند أعالى النيجر إلى الغرب قريباً من المحيط الأطلنطى إلى كل المناطق شمال نطاق الغابات وشرقاً على طول نهر النيجر حتى حدود الهوسا . ولكن مع بداية القرن الخامس عشر ، حينما كانت القوة المركزية لمالى قد انحطت انهار كل ذلك التنظيم . وعلى الرغم من أن قوتهم اعتمدت على الولاء لوثنيتهم إلا أن حكام صنغاى قد تعلموا الكثير من إمبراطورية مالى المنظمة واستفادوا من ضعفها . فبدأت جيوش « على السنى » (١٤٦٤ — ١٤٩٢) تحول مالى إلى مجرد ولايات تابعة إلى صنغاى . ولكن خليفته « محمد » (١٤٩٣ — ١٥٢٨) كان أكثر من مجرد منقذ للإسلام ومجدد لتعاليمه فى المنطقة . ذلك الدين الذى هدمه « على السنى » تماماً خلال اندفاعه فى تضخيم صنغاى وكانت النتيجة قيام إمبراطورية أضخم من مالى فى المنطقة عاصمتها جاو على ثنية النيجر وتبعد شرقاً عن نيانى بحوالى سبعمائة ميل . ولم تكن ذات امتداد غربى كبير بطبيعة الحال . فى حين وصلت إلى مناطق استخراج الملح من الصحراء الكبرى شمالا قرب مراكش ، أما امتدادها شرقاً فقد شمل معظم بورنو .

ولقد اجتذبت قوة وثراء ورخاء هذه الإمبراطورية إعجاب المسلمين فى معظم الأجزاء الإسلامية الأخرى التى دهشت لحسن تنظيمها وتنسيقها . فكتب عنها الرحالة ابن بطوطة وهو من الأوائل الذين ارتادوا إمبراطورية غانا هذه بعد رحلة له فى إمبراطورية مالى عام ١٣٥٢ — ١٣٥٣ يقول :

« إن الشعوب الزنجية نادراً ما تعانى من عسف أو ظلم ، وإنما تفزع لذلك أكثر من أى شعب آخر . ولا يمكن أن يترفق السلطان بمجرم اقترف إثماً فى حق الدولة . إن هناك أمناً كاملا وطمأنينة تخيم على ربوع البلاد . ولا يمكن

للمسافر هناك أو الساكن أن يستفزه الخوف من سطوة لص أو قاطع طريق » :

ويستمر فى سرد رخاء المنطقة فى مجالات الزراعة والتجارة موضحاً مدى التسهيلات التى يلقاها التجار هناك . وقبل زيارة ابن بطوطة بسنوات قلائل كان مانساموسى — الذى ربما كان من أعظم أباطرة مالى — قد اتخذ طريقه إلى مكة ليؤدى فريضة الحج عن طريق القاهرة كما كان يفعل أجداده من قبل . وأخذ معه قدراً كبيراً من الذهب مما أثر على سعره بالهبوط فى القاهرة فى أثناء وجوده هناك ولقد حددت رحلة مانساموسى منطقة السودان الغربى على خريطة لتمثل أعظم ممالك العالم آنذاك . وبمعنى أدق فقد وطدت هذه الرحلة أركان دولة مالى التى احتلت مكانها فى خريطة غرب إفريقية السياسية بجدارة كإحدى دول العالم الكبرى . وقد ظهرت مالى وإمبراطوريتها سيدة الزنوج فى أول خريطة لإفريقية رسمت فى أوروبا (فى عام ١٣٧٥) . وبلا شك يرجع ذلك إلى محمد الملهم فى جاو حينما حاول أن يبين مدى ما يتمتع به من مظاهر الثراء والرفاهية خلال رحلته للحج عام ١٤٩٥ — ١٤٩٧ .

ولقد كانت الممالك السودانية العظيمة والمدن قد أصبحت جزءاً من العالم الإسلامى بدون أن تفقد شخصيتها السودانية المميزة واستطاعت مدارسها ومساجدها أن تجتذب طالب العلم والدين من أجزاء أخرى من العالم فكانت جامعة تمبكتو التى ذاعت شهرتها تقوم بنفس دور معاهد القاهرة الدينية . ولكن بطبيعة الحال كانت التجارة أكثر من أى شىء آخر يربط السودان بشمال إفريقية . ويبدو أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين مجرى الحوادث فى السودان ومثيله فى المغرب خلال القرون التى أعقبت انهيار حكم المرابطين . ويبدو أنه مع بداية عصر الإسلام بدأت طرق التجارة تتحول إلى المغرب عبر الصحراء الكبرى فيما بين مراكش وغانا . وكان السبب فى ذلك بالطبع يتلخص فى سهولة تبادل الذهب فى جنوب غانا بالملح من جنوب المغرب بين كلتا الوحدتين . ولكن نهضة مالى تميزت بانتقال مركز القوى نحو الشرق فى السودان الغربى كما أن أقاليم الصادر هى الأخرى بدأت أسهمها تسير من

المنطقة الغربية فى اتجاه النيجر إلى المراكز الجديدة فى جاو وتمبكتو . ويبدو أنه كان من الممكن أن يكون هذا الطريق الشرقى قد اكتسب أهمية من القوة السياسية والاقتصادية فى السودان والتى كان سببها أولا انهيار طرق تجارة الغرب القديمة على أيدى المرابطين ، وثانياً إلى الحقيقة القائلة بأن أكبر قوة فى المغرب كانت للحفصيين فى تونس . وربما كان أيضاً يرجع إلى أن قوة مملكة كانم فى وسط السودان خلال القرن الثالث عشر قد وصلت شمالا حتى فزان وكانت معاصرة فى تلك الآونة لفترة تقدم مملكة الحفصيين .

— ٨ —

شرق وشمال شرق إفريقية خلال العصور الوسطى والحديثة

لم ينتشر الإسلام فى شرق وشمال شرق إفريقية بنفس السرعة ، ولم تكن له نفس النتائج التى حققها فى مصر وشمال إفريقية . وحتى اكسوم تلك المملكة المسيحية الحبشية التى كانت كثيراً ما تغير على جنوب شبه الجزيرة العربية حتى ميلاد الرسول ، قد تركت فى أمان عدة قرون أعقبت الإسلام . ولقد استفاد العرب المسلمون فى القرن السابع من ضعف هذه المملكة المسيحية المؤقت ، فاستولوا على ميناء مصوع وجزر دهلك المجاورة . وتروى لنا كتابات العرب فى القرن التاسع والعاشر على لسان اليعقوبى وابن حوقل ، أنه فى هذه الفترة كانت الحبشة وما زالت تسيطر على معظم ساحل البحر الأحمر المقابل لليمن . ولقد امتد هذا التأثير حتى شواطئ خليج عدن وحتى زيلع على الساحل الشمالى للصومال . وقد تمكنت جماعة من التجار المسلمين أن تستقر فى الأجزاء الساحلية خاصة عند الموانى ، ولكنهم كانوا يدفعون الجزية لملك الحبشة ، ولم يعتبر العالم الإسلامى الحبشة أرضاً للجهاد .

ولقد كان ظهور الإســلام فى الواقع نقطه تحول فى تاريخ الحبشة إذ فكك وحدتها وتجانسها وارتباطها السابق بعالم البحر المتوسط . مما ترتب عليه استبدالهم بتجارة العرب المسلمين فى موانى البحر المتوسط المصريين واليونانيين واليهود الذين كانوا هناك من قبل . ولم تقم أى مشاحنات بين المسلمين والمسيحيين زهاء ستة أو سبعة قرون تقريباً إذ لم يكن هناك ما يدعو

لمثل ذلك كما كان مع الصليبيين الذين شكلوا تاريخ البحر المتوسط الأوسط ، وربما كان سبب ذلك هو أن كنيسة الحبشة كانت تتبع الكنيسة المصرية والسورية التى تدين بالمذهب اليعقوبى (الطبيعة الواحدة الذى أدانه مجمع خلقدونه عام ٤٥١) . وبذلك استفادوا من التسوية التى عقدها القبط مع العرب فى مصر . وقد كان الأساقفة الأحباش خلال العصور الوسطى وحتى فى خلال الحروب الصليبية موجودين فى القاهرة . كما كان الآلاف من الحجاج الأحباش يمرون فى مصر لزيارة الأراضى المقدسة مع دقات طبولهم وراياتهم المرتفعة وكانوا يتوقفون للاحتفال بالصلاة والعبادة ، والواقع أن « صلاح الدين » الذى يمثل العدو اللدود للصليبيين المسيحيين هو الذى أهدى كنيسة القدس للحبشة لتكون قبلة المسيحيين ومركزهم الدينى .

ولم يكن الخطر الحقيقى على الحبشة الوسطى ليأتى إليها من مسلمى الشمال وإنما من وثنيي الجنوب ، ولا نستطيع سرد تفاصيل ذلك الخطر الذى أحدق بهم لعدم وقوفنا على تفاصيل الأزمة التى حدثت هناك . ولم يكن ثمة ما يشير إلى حدوث كارثة سوى رسالة خطها ملك الحبشة فى أواخر القرن العاشر إلى أخيه الملك جورج ملك النوبة يروى له فيها كارثة خطيرة حلت بالبلاد فدمرتها وتركتها خاوية على عروشها نتيجة لغزوات دولة وثنية مجاورة عليها . ومن المحتمل أن تكون هذه الدولة هى دولة أجاو فى منطقة داموت على النيل الأزرق . وتعتبر فترة استرداد المملكة المسيحية فى الحبشـــة أكبر فترة بطولية فى تاريخ الحبشة إلى حد ما . ولقد قاد المعركة ضد الوثنيين فى هذه الأزمة أفراد سلالة ملكية جديدة تسمى زاجوى وكانوا يعيشون فى مراكز حصينة داخل كهوف صخرية محاطة بالجنود . ولم يكن انتصار المسيحية هنا وليد دعاية عقائدية ، ولكنه كما حدث لإيرلندا فى القرن الخامس والسادس كان بفضل الكنيسة والرهبان الذين تأثروا بالشخصيات المقدسة وزهدوا فى الدنيا وعملوا للدين ونصرته . وفى خلال قرنين ونصف استطاعت هذه الأسرة الملكية أن تمد حدود الدولة السياسية والدينية شمالا لتشمل مقاطعات امهره ـــ

شرقي وشمال شرق افريقيا من القرن السابع حتى الثامن عشر

(شكل ٧)

لاستا – جوچام – وداموت . وأصبحت امهره وليست مقاطعة تيجره الشمالية مركزاً لهذه المملكة ، وكان هذا الامتداد الجنوبى رداً على تهديدات الوثنيين هو الذى سمح بتوسع الإسلام من ساحل البحر الأحمر إلى الداخل طول الحدود الشرقية للمملكة المسيحية . ومنذ بداية القرن العاشر نمت عدة على دول إسلامية ابتداء من ميناء زيلع وفى اتجاه الشمال مع طريق التجارة الطبيعى نهر هواش نحو شوا الجنوبية متتبعة إلى حد كبير طريق الخط الحديدى الحديث إلى أديس أبابا . وكان يقوم بحكم هذه الدول سلالة صومالية الأصل تعمل فى تجارة الرقيق والعاج والذهب مع الوثنيين والدول المسيحية . وكان من الطبيعى أن يمتد نشاط التبادل التجارى ليشمل سودان وادى النيل وربما أوغندا وشمال كينيا ، فكانت وظيفة هذه الممالك الرئيسية هى التجارة، وبذلك حلت فى القرون الوسطى محل نشاط مروى ثم أكسوم القديمة كدول تجارية فى وسط إفريقية ولم يكن كل هذا يهدد مركز المملكة المسيحية هناك . وبدأت المملكة المسيحية الجديدة بعد أن استردت سلطتها ومركزها فى المنطقة فى أواخر القرن الثالث عشر وبعد أن آلت إلى مجموعة الملوك الأول من أسرة سولومونيك، بدأت التحرش بالمسلمين ونجحت فى خلال القرن الرابع عشر فى أخذ الجزية منهم ، وكان كل هذا فى الوقت الذى لم يصل فيه العداء بين المسلمين والمسيحيين هنا إلى حرب دينية سافرة . وفى القرن الخامس عشر قوى حكم الحبشة . وفكر سكان مدن المنطقة كمسلمين وليسوا كتجار فى تنظيم الثورات فى سبيل الانتصار أو الاستشهاد المقدس .

وكانت نتيجة الثورة الأولى زوال أكثر الدول الإسلامية وتحطيمها مثل « ايفات » التى طورد حاكمها حتى زيلع حيث قتل عام ١٤١٥ وسقط شمال ايفات تحت حكم الحبشة المباشر . إلا أن قادة المسلمين وأفراد الأسرة الملكية استطاعوا بعدأن تراجعوا إلى اليمن تجميع شتاتهم واسترداد بعض قوتهم فعادوا إلى الجزء الشرقى القصى من الساحل الصومالى ليبدأوا فى إنشاء أول دولة إسلامية أطلق عليها « دولة عادل » معلنة الجهاد ضد الحبشة جهاداً على أيدى

قوة حقيقية منظمة . وفى أوائل القرن السادس عشر كان الأتراك العثمانيون قد وصلوا إلى مصر ومعهم الأسلحة النارية المختلفة ، واستطاعوا أن يصلوا بها إلى موانى البحر الأحمر فى الجنوب وفى بلاد العرب أيضاً . ووجدوا فى دولة عادل مجتمعاً إسلامياً مترابطاً يستطيع استخدام هذه الأسلحة ضد الأحباش المسيحيين . وكادوا يقضون على هذه الدولة لولا تدخل البرتغاليين فى آخر لحظة عام ١٥٤٢ .

وتشير الحقائق المستخلصة من البحوث الحديثة أنه من رأس جواردافوى حتى الساحل الشرقى لإفريقية أن العصر الإسلامى لم يكن نقطة التحول التاريخية الحقيقية فى تاريخ هذه المنطقة كما كان يعتقد . وترى المدرسة القديمة أن تاريخ العصور الوسطى لهذه المنطقة إنما كتبته عناصر العرب التى استقرت هناك منذ بداية العصر الإسلامى يرجع المؤرخون المسلمون أصول هذه العناصر إلى العرب قبل الإسلام . إلا أن تاريخ الحضارة الإسلامية فى الساحل الشرقى لا ترجع إلا إلى القرن الثالث عشر ،ولم تكن تمثل حضارة ذات أهمية تذكر إذ كان استقرارهم هنا مقصوراً فى وجوده على الاتصال بالأجزاء الداخلية شمال نهر روفيوما . وعلى العكس من ذلك تدل الاكتشافات الحديثة والعثور على العملة الرومانية على أن مركز الثقل التجارى قد عاد إلى الساحل الشرقى منذ القرن الرابع الميلادى . ومن بعض المراجع « كدليل البحار » المسمى «بريبلوس بحر أرتريا» وكذلك بعض فقرات من « جغرافية بطليموس »(١) يمكن أن نستدل على أن تجار الإسكندرية قد عرفوا جبال كلمنجارو والبحيرات الكبرى عند منابع النيل فى القرن الرابع . كما تشير إلى أن النشاط التجارى فى شرق إفريقية قد كان يتمثل فى العاج الذى لقى رواجاً لم يلقه فى أى فترة حتى القرن الثامن عشر .

---

(١) رغم أن كلوديوس بطليموس قد عاش فى القرن الثانى للميلاد ، فان رأى المختصين على أن الآراء التى ضمنت فى كتابه الجغرافيا تمثل ملخصاً للمعرفة السكندرية فى القرن الرابع الميلادى . (المؤلف)

وهناك نقص كبير فى الوثائق المكتوبة والآثار التى يمكن أن تلقى الضوء على الفترة من القرن الرابع حتى العاشر ، وهى الفترة التى شهدت أخطر التطورات فى تاريخ شرق إفريقية كله ، إذ احتل زنوج البانتو المنطقة الساحلية ، ومما له دلالة أن دليل بحر أرتريه الذى يصف ساحل شرق إفريقية كله حتى زنجبار جنوباً لم يشر مطلقاً إلى السود . أما جغرافية بطليموس فيذكرهم فى أقصى الجنوب حتى موزمبيق شمالا ، وعلى هذا فشمال موزمبيق كان أهله من الصومال أو الأحباش . ومرجعنا الآخر ما ذكره المسعودى فى القرن العاشر من أن السود لم يتعد امتدادهم الشمالى نهر جوبا على حدود كينيا الحالية والأراضى الصومالية وأكثر من هذا فقد عرف الرقيق الأسود فى تلك الآونة من شرق إفريقية إلى سواحل المحيط الهندى . وهناك مراجع عن هذه السواحل من الجزيرة العربية وبلاد فارس وأندونيسيا والصين ترجع إلى القرن الثامن . ويشرح أحد الكتاب الصينيين الفرق بين حياة الصوماليين الرعاة الذين يعيشون على اللبن وشرب دماء الماشية وحياة « المولين » السود وربما كانوا المالندى على ساحل كينيا . فتاريخ إفريقية الوسيط إذن يمتاز بانتشار العناصر البانتوية على سواحل كينيا وتنجانيقا فى الفترة التى وصلت فيها مواد غذائية جديدة مثل الموز وجوز النخيل من جنوب شرق آسيا على أيدى الملاحين العرب العاملين فى تجارة المحيط الهندى الواسعة فى سلعة الرقيق . وربما كان انتشارها أيضاً معاصراً لفترة استعمار أندونيسيا لجزيرة مدغشقر فى خلال هذه الفترة . كما أن التقدم الكبير فى النشاط البحرى لمملكة الهندوس المسماة بسريفيجيا فى سومطرة كان مرده اكتشاف موارد تجارية استطاعت عن طريقها التحكم فى نقل معظم تجارة المحيط الهندى من القرن الثامن حتى القرن الثانى عشر .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم مسألة استقرار العرب فى شرق إفريقية فقد كانوا يشاركون فى التجارة الكبيرة الخاصة بالمحيط الهندى . وكانت العناصر المستقرة الأولى فى القرن الثامن تابعة لمذاهب الجزيرة العربية وشرق

إفريقية التى كانت من أنصار الشيعة ، وكانت هذه العناصر قادمة من عمان على الخليج العربى . إلا أن عناصر سنية تبعتهم فى القرن التاسع قادمة من شيراز على الجانب الفارسى من الخليج العربى . وكانت عناصر السنة هذه هى التى أسست مدن مقديشيو وبرافا على الساحل الصومالى . والذين اكتشف أحفادهم الذهب فى منطقة الزمبيزى فى القرن العاشر كما أسسوا مدينة كلوه التى استخدمت كميناء تجارى . إلا أن عدد المستوطنين أو المهاجرين لم يتزايد فى فترات لاحقة فكان نصيب أهل المنطقة من التجارة الكلية للساحل الشرقى ضئيلا . ومن ثم كانت ضرورة بقائهم واستقرارهم مؤقتة . وقد استطاعوا فى هذه الفترة تأسيس أربعين مدينة مشيدة بالأحجار وبعيدةعن الساحل الشرقى الإفريقى كما أن هناك مسجداً فى جزيرة زنجبار يرجع إلى أعمالهم . وتشير الاكتشافات الحديثة فى خرائب أحد القصور بمنطقة حصن كبوا فى جزيرة كلوه إلى وجود آثار الفن الفارسى الذى ينسب إلى الفترة من القرن العاشر إلى الثانى عشر .

وتروى آثار المنطقة أنه فى منتصف القرن الثالث عشر وحتى وصول البرتغاليين فى نهاية القرن الخامس عشر ، كان يخيم على ساحل شرق إفريقية هدوء وسلام شاملان . وقد استقرت جماعات إسلامية متحضرة على طول الساحل الصومالى الكينى التنجانيقى فى تشييد بيوتهم من الكتل الصخرية . كما استوردت الفخار من سيام والخزف الصينى القديم ومعادن الصين . وقد صك سلاطين كلوه نقودهم النحاسية فى هذه الفترة فى دور صك النقود ليمكن تداولها فى أى مكان من إفريقية جنوب الصحراء الكبرى . وكانت كلوه تعيش كما كانت من قبل على تجارة روديسيا وربما كاتنجا أيضاً حيث تحكموا فى ميناء صوفالا ، وفرضوا ضرائب باهظة على السفن المارة وعلى حمولتها وفى كل الاتجاهات . وعرفت ماليندى وممباسا منذ القرن الثانى عشر بمناجمها الغنية فى الذهب الذى كان يصدر إلى الهند وكذلك مصانع الصلب لعمل السيوف وغيرها . وكان يوجد فى مقديشيو مصنع للنسيج ينتج الأقطان

والملابس المصنوعة من وبر الجمال لتباع فى أسواق مصر . وقد كان الرقيق والعاج من أهم صادرات المدن الصغيرة على طول الساحل ويبدو أن التحول الاقتصادى الذى حدث فى القرن الثالث عشر كان نتيجة لاستغلال الطرق التجارية التى كانت موجودة من قبل . وإذا كان التقدم المادى واضحاً فعلا إلا أن أهم ظاهرة فى القرن الثالث عشر كانت التقدم فى الأمور الثقافية والفنية التى انعكست على رخاء المنطقة ، وقد امتد ذلك الأثر إلى المسلمين فى المحيط الهندى على الجانب الآخر من مجال توسعهم .

شهد القرن الثالث عشر بداية توغل المسلمين فى الهند وأندونيسيا توغلا كبيراً كما شهد أيضاً إسلام الهندوس ، وبناء حضارتهم فى مدن الملايو وجاوا وسومطره . ومن المحتمل أن تكون هذه العناصر اندمجت مع عناصر إسلامية أخرى فى منطقة الساحل إلا أن المستقرين هناك من المسلمين كانوا قلة وكانت الروابط بينهم فى نفس الوقت ضعيفة حتى أن أحفادهم فقدوا العقيدة والإيمان . وفى بداية القرن الثالث عشر كانت معظم تجارة المحيط الهندى تمر عبر الأراضى الإسلامية . وكانت الاستفادة منها تتطلب تعاوناً جديداً . ففى هذه الفترة ظهر الأثر الدينى واضحاً فانعكس على المساجد والمقابر الإسلامية على طول الساحل . وربما بدأت اللغة والحضارة السواحلية تتخذ طابعها وتنتشر بين مسلمى البانتو على السهل الساحلى .

وتشير الوثائق أنه كانت هناك اتصالات بين الحضارة الإسلامية على الساحل الشرقى وبين الداخل الإفريقى من الشرق أيضاً . ففى بيئة البانتو تعيش العناصر الصومالية السواحلية الذين عملوا فى التجارة بعد دخولهم الإسلام فتبادلوها برياً مع الجالا الوثنيين فى جنوب مملكة الحبشة . كما حدث اتصال بحرى مع جماعات جنوب كلوه ، واتصالا برياً آخر فى مناطق الذهب على الساحل وفى روديسيا ومناجم النحاس فى كاتنجا . ولم يكن هناك أى اتصال يذكر بين ساحل زنجبار وبين منطقة البحيرات التى كانت منطقة ازدحام سكانى فى شرق إفريقية . وتشير الدلائل الأثرية إلى قيام ممالك منظمة ظهرت

فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر على الأقل . إذ لم تكشف الحفائر فى بيجو غرب أوغندا وعند موقع السد الترابى الذى شيد فى القرن الخامس عشر إلى وجود أى أثر مهما كان ضئيلا من الساحل والسبب فى ذلك وجود فاصل كبير بين الساحل وبين منطقة البحيرات يتمثل فى أراض غير صالحة للزراعة تتميز بجفافها ، وكانت تحتلها جماعات من الحاميين النيليين وكانت لهم مثل وعادات تتعلق بمساعدة وحماية القوافل . وظل الحال كذلك حتى القرن الثانى عشر عنـــدما تدفق البانتو من تنجانيقا إلى جنوب البحيرات للزراعة وفى نفس الوقت فتحواطريق التجارة بين الساحل وداخل إفريقية . وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كانت مملكة أوغندا على سواحل بحيرة فيكتوريا الشمالية الغربية تستورد الأقمشة القطنية وسلعاً أخرى من العالم الخارجى .

وفى هذه الفترة كان الاحتلال البرتغالى قد سيطر على ساحل زنجبار ولم يكن لهذا الاحتلال آثار عميقة فى الساحل ، بل إنه انعدم تماماً فى الداخل إذ كانت أهداف البرتغاليين السيطرة على التجارة البحرية وأخذها من أيدى التجار العرب . ولم يجعلهم هذا الهدف فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر يذهبون إلى الهند وجزر الهند الشرقية فقط ، بل إلى الساحل الشرقى لإفريقية وإلى مفتاح البحر الأحمر والخليج العربى فشيدوا قواعدهم فى صوفالا وكلوه وسومطره وهرمز . وفى عام ١٥٤٢ استطاعت قوة برتغالية استكشافية أن تمنع القوة التركية الموجودة فى مملكة عادل الصومالية من دخول مملكة الحبشة المسيحية . وبرغم مئات السنين من المحاولات فقد فشلت الإرساليات التبشيرية البرتغالية فى اجتذاب الكنيسة الحبشية لتتبع روما . وكانت هذه هى مغامرة البرتغاليين الوحيدة فى الساحل الشرقى الإفريقى شمال زنجبار . واستقر البرتغاليون على شواطئ موزمبيق وزنجبار وبمبا وممباسا ومجموعة جزر لامو . ولقد اقتصرت أهدافهم الأساسية فى المنطقة على الحصول على ذهب الزمبيزى وقاعدة موزمبيق البحرية التى تبحر منها السفن من شرق الهند إلى جوا رأساً .

ولقد حدث أن تحولت تجارة الذهب فأخذت طريقها إلى أوروبا وذلك بعد سنوات قليلة من الاحتلال البرتغالى هناك . وأصبحت مدينة كلوه قليلة الأهمية ، واستقر العرب فى المناطق الواقعة إلى شمالها لتندمج مع البانتو السواحليين الذين كانوا على علاقات مع العرب والخليج العربى . وفى عام ١٥٩٣ سعى البرتغاليون للسيطرة على الساحل ، فبنوا الحصون التى فيها تلك القلعة الضخمة المسماة بحصن يسوع فى ممباسا . حدث ذلك فى الوقت التى خرجت الأجزاء الشمالية الشرقية من المحيط الهندى من قبضتهم . وفى عام ١٦٢٢ طردوا من الخليج العربى . وفى منتصف ذلك القرن شن الملاحون العثمانيون هجوماً على جنوب زنجبار . وفى عام ١٧٠٠ طردوا البرتغاليين من حصن يسوع . وفى القرن الثامن عشر كان الساحل الشرقى لإفريقية شمال رأس ديلكادو قد استرد علاقاته واتصالاته بالعالم الخارجى . وخرج الساحل وزنجبار نهائياً من قبضة الاحتلال البرتغالى فى حين بقى هذا الاحتلال فى روديسيا قابضاً على مواردها الهامة . وبذلك عادت العلاقات الثقافية والتجارية مع المراكز الإسلامية الرئيسية . وشهد القرن الثامن عشر مولد مدن وممالك سواحلية معظمها تحت الحكم العربى . وقد اندمجت هذه الممالك تحت زعامة أئمة عمان الاسمية ومن هذه القواعد العربية بدأ التوغل الجدى من الساحل إلى داخل القارة .

— ٩ —

ممالك غينيا

هكذا رأينا كيف تأثرت المجتمعات الزنجية فى السودان الغربى والأوسط بمؤثرين خارجيين : أولهما ما جاء من الشرق من وادى النيل ليكون المفهوم السياسى للدولة « السودانية » والثانى ما جاءها من الشمال عبر الصحراء الكبرى ممثلا فى التجارة العالمية . ولقد خلقت هذه المؤثرات تلك الممالك الكبيرة كممالك غانا القديمة ومالى وإمبراطورية صنغاى وكانم وبورنو وممالك الهوسا . ولقد كان تكوين وبقاء كل من هذه الممالك قد أثر فى الزنوج الذين يعيشون جنوباً فى داخل ذلك النطاق الغابى المدارى الكبير فى غرب إفريقية والذى أطلق عليه اصطلاح غينيا(١).

ولم يكتب مؤرخو العرب الذين كتبوا عن السودان فيما بين القرنين الثامن والخامس عشر عن ذلك النطاق شيئاً . ومنذ القرن الخامس عشر حتى الآن بدأ الأوروبيون يهتمون بهذه المناطق ولكنهم لم يتمكنوا من التوغل إلى داخل هذه المناطق بدرجة تذكر حتى القرن التاسع عشر . وعليه فإن المعلومات المسجلة عن أحداث الداخل لا تتعدى كونها شائعات تتردد دون أى سند أصيل . وحينما بدأ رجال الآثار أعمالهم وبحوثهم فى نطاق غينيا الغابى ، كان

(١) تعبير غينيا استعاره البرتغاليون من أول لسان إفريقى عرفوه وهو لسان بربر مراكش . وإذا أردنا الدقة فتعبير اكازان اجويناون Akal n-Iguinawen كان معناه لدى البربر بلاد السودان بالعربية . أما فى الاصطلاح الجغرافى الحديث فغينيا تعنى النصف الجنوبى الغابى لغرب إفريقية ، أما السودان فقد اقتصر على النصف الشمالى المغطى بالحشائش المدارية أو السافانا . (المؤلف)

على المؤرخين أن يعتمدوا أساساً فى كتاباتهم على المصادر الشفوية التقليدية لهؤلاء القوم (فيما عدا حالة أو حالتين هامتين) .

ومن الواضح أنه مع بدء القرن الثالث عشر على الأقل كان زنوج غينيا قد بدأوا فى تشكيل ممالكهم على نمط ممالك السودان . فممالك غينيا غرب الفولتا تتشابه مع الممالك السودانية فى النيجر الأعلى ، وكذلك مع غانا القديمة ومالى . أما الممالك الواقعة شرق الفولتا فإنها تتشابه مع تلك الواقعة بين نهر النيجر وبحيرة تشاد ، والتى تتمثل أساساً فى ممالك كانم — بورنو والهاوسا . وتتحدث الأساطير عن أصل ممالك غينيا الشرقية والتشابه الواضح فى بنائها الاقتصادى فتشير إلى أن نظام هذه الممالك السودانية الذى ساد جنوباً وغرباً إنما جاء من كانم القديمة . وطبقاً لتقاليد شعب الجوكن — الذى كان يحتل ضفاف نهر بنوى ، وكذلك اليوربا أسلاف الشعب الحالى فى غابات غرب نيجيريا — فإن هذه الممالك التى كانت أول من وصلها بلا شك أولئك النازحون من وادى النيل ، إنما تدين لهؤلاء النازحين بمظاهر الفن والحضارة النيجيرية ، وذلك لأنهم وصلوا عن طريق السودان الشرقى إلى المناطق الحضارية فعلا . وتشير الأساطير المحلية إلى وصول شراذم غازية قليلة العدد من الطراز الذى أسس مملكة كانم وإلى هؤلاء الغزاة يرجع الفضل فى تمدين السكان ، الذى يظهر فى الفن النيجيرى وثقافته . وكانت معظم هذه المناطق تقع فى الإقليم النيجيرى جنوب غرب بحيرة تشاد والتى كانت على درجة راقية فى مجالات الزراعة والفخار وأعمال المعادن . كما أن فنون النحت تشير إلى بقايا الفترة التى عاشتها حضارة النوك فى الإقليم الشبه صحراوى فى إفريقية خلال الألف السابقة للميلاد كما أن تاريخ ايفى يشير إلى معرفة هذا الشعب ودرايته بفن سبك المعادن . وعلى أى الحالات فإن نفوذ وادى النيل هنا كان له أثر كبير إلى جانب ذلك فى الأفكار السياسية التى سادت المنطقة منذ البداية .

وإلى الغرب يرجع أصـــل الأكان أحد شعوب غانا — إلى الشمال إلى أعالى النيجر وربما كانت فكرة الممالك السودانية هنا قد ظهرت مباشرة عن

طريق المصادر الشرقية . إلا أنها ربما ظهرت أيضاً بصورة غير مباشرة فى الممالك السودانية التى سادت السودان الغربى . وحتى هنا فقد خضع السودان لنفس المؤثرات التى خضعت لها ممالك الشمال .

ويبدو معقولا أن مهارة الزنوج فى الزراعة وما تبع ذلك من نجاح أحرزوه فى إقامة دولة مستقرة قادرة على التحكم فى تجارة مساحة واسعة قد أدى إلى زيادة سكانية فى نطاق السفانا . وكانت هذه الزيادة مسئولة عن طرد جماعات من السكان فى صورة تيار منتظم يتسرب إلى نطاق الغابات المجاور . ولم يكن من الممكن — كما تشير الحقائق الخاصة بالنبات — أن يتم احتلال نطاق الغابات بمثل تلك الكثافة الحالية (والتى تعتبر أعلى الكثافات السكانية فى النطاق الزنجى الإفريقى خصوصاً فى المنطقة المحصورة بين الكمرون وبين شرق ساحل العاج) . بل إن ذلك لم يكن أمراً عملياً قبل استجلاب نباتات صالحة للغذاء من جنوب شرق آسيا . ولقد تبع ورود هذه النباتات الغذائية بالتأكيد ورود مثيلاتها فى فترة لاحقة من أمريكا المدارية والتى تشكل الآن أعظم قدر من الحاصلات الزراعية فى إقليم غابات غرب إفريقية الزراعى حالياً . وكان التسلل من نطاق السودان فى بادئ أمره مقصوراً على جماعات محدودة وصغيرة إلا أن هذه الحركة بدأت تزداد وتقوى عن طريق نمو الممالك السودانية التى استطاعت أن تتقدم كثيراً فى الأجزاء المحصورة بين النيجر الأدنى وساحل العاج حيث كان الغطاء الغابى على قدر يسير من الكثافة والازدحـــام .

ومعظم شعوب الممالك الأولى التى عرفت هنا مثل الأكان واليوربا والذين يمكن اعتبارهم اليوم من سكان الغابات الحقيقيين قد نشأوا أصلا إما فى شمال نطاق الغابات الحقيقى وإما عنـــد الهوامش الشمالية له . ولقد كانت بونو وباندا تمثلان البذور الأولى لممالك الأكان التى قامت فى نطاق السفانا الشجرية شمال غابات ساحل الذهب ربما فى القرن الثالث عشر . وكان أول امتداد لشعب الأكان فى اتجاه الجنوب من هذا الإقليم قد وصل إلى وادى

(شكل ٨) ممالك غانا القديمة

نهر الفولتا الذى مهد لهم سبيل الوصول إلى أضيق منطقة غابية على الساحل العشبى متجنبين فى ذلك المسار نطاق الغابات بقدر استطاعتهم . ولم تكن هذه الغابات قد اخترقت اختراقاً مباشراً لأى مسافة كبيرة حتى حوالى القرن الخامس عشر . ويبدو أن منطقة ايفى كانت تمثل النقطة التى تلتقى عندها شعوب ممالك اليوربا وأسرة بنين ذات التاريخ العريق وكانت تقع فى نطاق نيجيريا الغابى عند حافته الشمالية . ولقد كانت الأويو إحدى ممالك اليوربا التى سادت المسرح السياسى فى القرن السابع عشر حتى بلغت قمة التنظيم السياسى قد اتخذت مركزاً لها إلى الشمال من نطاق الغابات وكما كانت ممالك السودان تعتمد على الفرسان كانت هذه المملكة أيضاً وإن كان ذلك لا يصلح لحرب الغابات إلا أن الخيول كانت تمثل رمزاً دينياً لقوة بنين التى تبعد عاصمتها بعداً كبيراً عن نطاق السافاناداخل الغابة . ويمكن اعتبار هذا دليلا على أن مشيدى هذه الممالك لم يكونوا أصليين فى المنطقة . وإنما وفدوا إليها من نطاق السفانا . كما أن تراث بنين الأصيلة تدل على أن الأسرة الحاكمة قد جاءت نازحة من آيف قبل مجيء البرتغال بثلاثة قرون . ومن المحتمل أن يكون ذلك فى بداية القرن الثالث عشر . ولا شك أن الآيف قد جاءت وعمرت المنطقة قبل ذلك بكثير :

ويشترك السودان الغربى والأوسط مع ممالك غينيا فى أن كلا منهما يتميز بانتشار العمران فى أرجائه المختلفة خاصة فى الشرق . فعلى الرغم من أن نظامها الاقتصادى يعتمد على الزراعة ، إلا أنه توجد هناك مجمعات سكنية يعيش فيها السكان حول منازل ملوكهم ورؤسائهم يحمون حقولهم من أى غزو مفاجئ قد يباغتهم به عدو فى النهار أو فى الليل . وتختلف هذه المجمعات السكنية فى حجمها من القرى البسيطة التى تتمثل فى مجموعة مترابطة بينهم صلة قرابة ، إلى المدن الكبيرة التى يسكنها سادة القوم من أنساب مختلفة متخذين مناطق سكناهم حول قصر الملك ، وتجاورهم مساكن الغرباء الذين يفدون إلى المنطقة من خارجها . وفى الممالك الشرقية ، خاصة عند اليوربا ، تشابه الأنماط

الجغرافية مثيلتها عند ممالك الهاوسا بعيداً فى الشمال : وكانت كل مملكة من هذه الممالك تلتف حول نواة تتمثل فى مدينة مسورة بجدار كبير يلتف حول مساحة واسعة تكفى لإيواء السكان ، وربما تكفى مواردهم الغذائية فى حالات الطوارئ . وكانت معظم مدن غينيا هذه تقع بعيداً عن المناطق التى يرتادها الأوروبيون حتى القرن التاسع عشر . ويخرج من هذه القاعدة بنين ، فهى الوحيدة التى طرقها الأوروبيون خلال أسفارهم وكشوفهم فى القرن السادس عشر والسابع عشر . ورأوا فيها مدينة تضارع فعلا أعظم مدن أوروبا آنذاك . ولقد كتب أحد الهولنديين عام ١٦٠٢ ما شاهده فى أثناء زيارة له هناك قائلا :

« إن المدينة تبدو غاية فى الروعة ، إنك حينما تدخلها تجد نفسك تسير فى شارع متسع مرصوف يبلغ فى عرضه سبعة أو ثمانية أمثال عرض شارع وارموز فى امستردام . وعلى امتداد هذا الشارع الذى يمتد مستقيما بلا أى انثناء ، والذى يبلغ طوله نحو ميل[1] تترامى على جانبيه الأحياء المختلفة التى تكون المدينة . وحينما دخلت إليها من البوابة ممتطياً صهوة جواد طالعتنى أسوار المدينة العالية ذات السمك الكبير . يحيط بها خندق عريض وعميق للغاية : وحينما تكون فى هذا الشارع الذى سبق أن ذكرته فإنك ترى العديد من الشوارع الضخمة التى تتراص على جانبيه ، وكذلك تستطيع أن ترى مختلف الضواحى والأحياء . والمنازل هنا تشاد على نظام منسق فى تجاور جميل تماماً كما فى هولندا . أما غرف هذه المنازل فمربعة لها سقف تتوسطها فتحة تلقى الضوء على ساكنيها وكذلك المطر والهواء وتحتها يجلسون لتناول غذائهم من اللحوم ، وإن كانت هناك أماكن أخرى لتناول الغداء ، وإلى جانب ذلك تجد المطبخ والغرف الأخرى التى تكون المسكن . . .

إن بلاط الملك ضخم جداً ، به ملاعب مربعة محاطة بدهاليز يشغلها الحراس وحينما حاولت الوصول إلى القصر الملكى عبرت أربعة ملاعب ، وحيثما يممت وجهى شاهدت البوابات تتوالى الواحدة إثر الأخرى . . ولقد كنت أسير

(١) الميل الهولندى يساوى حوالى أربعة أميال إنجليزية .

فى منطقة ذكرتنى بالأراضى المنخفضة . . فهناك حظائر الخيول مليئة بأجود الأنواع الخاصة بالركوب . ويبدو أن الملك له جنود كثيرة وحاشية كبيرة العدد يأتون البلاط ممتطين صهوات الخيول . . . كما أن هناك عدداً من العبيد رأيتهم فى المدينة يجلبون المياه واليام وعرق البلح ، ويقال إنها كلها للملك كما أن هناك كثيراً منهم يجلبون العشب للخيول وكلها تتجه إلى داخل البلاط . . . » .

ولقد كان أهم طريقين لوصول مختلف المؤثرات من السودان إلى الجنوب فى خلال العصور التاريخية يطابقان أهم نظامين من نظم التجارة التى تربط السودان بغينيا . فمعظم تجار الشرق كانوا من ممالك الهاوسا الذين ولوا وجوههم شطر الجنوب الغربى عن طريق اليوربا . وكان ينتشر فى النصف الغربى من غرب إفريقية من جهة أخرى تجار الماندى . وكان كلا هذين النظامين من التجارة يلقى الآخر عند حافة النطاق الغابى إلى الشمال من ساحل العاج . وربما تأثرت هذه النظم عن طريق العمل فى التجارة بهذا الإقليم . أن تجار الماندى قد عرفوا فعلا بونو وزاروها وكان ذلك فى بادئ الأمر من أجل الحصول على الذهب فى منتصف القرن الرابع عشر . أى فى الفترة التى أعقبت إنشاء چنى Djenne فى أحد المراكز التجارية الهامة فى جنوب السودان الغربى . ويبدو أن التجارة التى كانت تأتى من الشمال الشرقى قد تطورت فيما بعد عن طريق التجار الذين بدأوا يفدون إلى جونجا Gonja فى الشرق من بونو مباشرة خلال القرن الخامس عشر .

وقبل ظهور الأوروبيين فى المنطقة كانت هناك شبكة من طرق التجارة التى تربط كل المدن والقرى فى جميع أجزاء غرب إفريقية تقريباً فيما بين الساحل والصحراء الكبرى . وكانت الأسواق المختلفة تقام بصورة منتظمة . وغالباً ما كان يخصص لكل سوق يوم معين حتى لا يحدث التنافس الذى قد يضر بهذه الأسواق . وبرغم أن التبادل التجارى كان له طابع محلى خالص

يميز السلع الغذائية المتبادلة بين مناطق الماندى والهاوسا واليوربا ، إلا أنها كانت تجارة عالمية فى نفس الوقت .

فمن الواضح أن هذه التجارة العالمية كانت ترتبط إلى حد كبير بوجود ممالك منظمة. فالأقاليم التى لم يصلها التجار المتجولون فى معظم المناطق الصعبة كمناطق المستنقعات والجبال ، والتى ترتبط مع غيرها من الجماعات بروابط قرابة بسيطة قد صرفت أنظار منسقى هذه الممالك . وكان أعظم هذه الأقاليم هو ذلك الإقليم الوعر الذى لا يعول كثيراً من السكان فى وسط الغابات والمعروف الآن بليبيريا . وكانت أهم عناصر هذه التجارة تتمثل فى السلع الكمالية الفاخرة أكثر منها فى السلع الضرورية . فقد نمت معظم مجتمعات غرب إفريقية إلى الحد الذى أصبحت فيه تنتج كل ما يكفيها محلياً وبأيدى أبنائها ، خاصة فى مناطق الغابات حيث كانت المصادر الأساسية لهذه الحاجات هى العامل المتحكم بسبب صعوبة النقل بالدواب . وكان ذلك راجحاً إلى نقص مواد العلف وانتشار ذبابة تسى تسى . لهذا فقد كان من الأفضل اقتصادياً قصر التجارة لمسافات طويلة على ما خف حمله وغلا ثمنه من السلع . ولقد كانت الحاجة لمثل هذه الكماليات تشير إلى وجود طبقات غنية تمثلت فى غرب إفريقية أولا فى الملوك ثم أفراد بلاطهم وأصحاب المناصب والمديرين والجنود والحرفيين والمشتغلين فى المعادن وموسيقيى القصر الملكى والمستشارين وغيرهم من أولئك الذين يحققون بعض الرفاهية لأنفسهم عن طريق استغلال الفائض عن حاجتهم . وكان هذا الفائض يتمثل فى الجزية التى كان يجمعها أفراد البلاط . وكانت هذه تجمع من السلع المرغوب فيها كالذهب والكولا التى شكلت بداية إمكانات التبادل التجارى العالمى حينما ازدادت مطالب المنطقة من السلع الخارجية .

ويبدو أن هذه الممالك قد تطورت بصفة عامة فى السودان قبل تطورها فى غينيا . وهذا يفسر لنا تحكم التجارة الغينية فى التجار الوافدين إليها من السودان فتجار الهاوسا والماندى كانوا أول من اتجه إلى الجنوب لتصريف سلع الشمال

عبر الصحراء الكبرى ، وكان ذلك حينما كانت ممالكهم تكاد تكفى حاجتها أو لا تكاد بالمرة . إلا أن هذه التجارة جلبت لهم الرخاء ، عن طريق توطيد العلاقات التجارية هذه وتزايدها إلى جانب ممارسة تجار السودان نشاطهم فى غينيا لسد حاجات الطبقات الغنية فى مجتمعاتهم والتى أصبحوا هم أنفسهم بعض أفرادها ، بل البارزين منها . ولقد اتجهت ممالك غينيا كذلك إلى التجارة لثرائها ، فكانت — باستثناء اليوربا — حكراً للأوساط الملكية . وكان تجارها يمثلون إلى جانب كونهم وكلاء ملوكهم ، أعضاء من طبقة مستقلة تعمل لحسابها الخاص .

وتعتبر تجارة الملح هى الاستثناء الوحيد لهذه التجارة العالمية ذات الطابع الفاخر المميز . وكان هذا الملح يأتى إلى مناطق الغابات إما عن طريق البحر وإما عن طريق الصحراء الكبرى عبر السودان ، وإلى جانب ذلك كانت توجد أيضاً تجارة الماشية والخيول التى كانت ترد إلى غينيا من السودان . وكانت أهم مصادر غينيا تتمثل فى : تبر الذهب الذى وصل إلى السودان ثم البحر المتوسط عن طريق عمال ساحل الذهب ومن قبلهم عمال وانجارا — وثمار الكولا التى لم تلق رواجاً كبيراً برغم أن الإسلام قد أجازها ولكنها وصلت إلى السودان والمغرب ، والعاج الذى لم يصبح عنصراً مهماً فى التجارة إلا بعد تصديره إلى أوروبا حتى أن جزءاً من ساحل غينيا غرب ساحل الذهب أصبح يسمى ساحل العاج . ولقد كانت السلع تتمثل فيما يأتى إلى هذه المنطقة من أجزاء أخرى فى الشمال فى الخرز والحلى وبعض السلع المعدنية الأخرى ، كالسيوف والمعادن النادرة كالنحاس وسبائكه والأقمشة والأصداف إلى جانب الملح والخيول والماشية . وكانت السيوف والمعادن النادرة تجلب من المحيط الهندى عن طريق مصر . وهذا يذكرنا بما قيل بأن غرب إفريقية قد قطعت شوطاً للأمام فى استخدام العملة والموازين والمقاييس أيضاً . وبالإضافة إلى ما كان يميز هذه التجارة كالأصداف والخرز وتبر الذهب وكتل الملح وقطع الحديد والملابس . كان هنــاك وسطاء ينظمون عمليات

التبادل المختلفة . ولم تكن كل أنواع الأصداف والخرز والأقمشة تدخل فى تجارة غينيا ، بل كان بعضها يصدر إلى الخارج وبعض الأقمشة وربما معظمها كان ينسج فى السودان أو فى شمال إفريقية ، كما أن بعض الخرز كان يأتى من إقليم البحر المتوسط لتصنيعه فى غينيا . وكانت اليوربا بالذات من الجماعات التى تنسج الأقمشة .

أما بالنسبة للتطورات الأخيرة ، فقد أهملت واحدة من السلع ولم تذكر فى القائمة إذ أنها كانت تمثل إحدى السلع التجارية الهامة فى غينيا قديماً ، إلا أنها أصبحت غير ذات شأن فيما بعد . ولم تكن هذه السلعة سوى الرقيق الذى عرفت غينيا تجارته فى مجتمعاتها وكان الرقيق يعملون كعمال زراعيين للملوك وغيرهم من الطبقة الممتازة من الشعب . كما كان عمال القوافل التجارية أيضاً من العبيد . إلا أن التجارة فى هـذه السلعة على نطاق واسع كانت كما يبـدو تطوراً حـديثا . فبالرجوع إلى صادرات شمال إفريقية المنتظمة من العبيد الزنوج وجد أن معظمهم من جنوب السودان ولم يذكروا فى المصادر العربية حتى القرن الثانى عشر . ومن المحتمل أن تكون هذه التجارة قد بدأت فى التقدم بعد نمو الإسلام فى السودان الغربى الذى جاء بعد هزيمة غينيا على أيدى المرابطين . ويبدو واضحاً أن ازدياد حاجة الأوربيين للرقيق من ساحل غينيا قد تزايد خلال القرن السادس عشر فتطورت التجارة على أيديهم ، وأصبحت على نطاق واسع . أما التجارة الأخرى فقد بلغت مرحلة متقدمة بالفعل فى الوقت الذى وصل فيه الأوروبيون إلى ساحل الذهب فى نهاية القرن الخامس عشر . فقد وجدوا تجار الماندى قد سبقوهم إلى هناك كما وجدوا الأقمشة المراكشية هناك تسد مطالب الوطنيين كما كان الخرز والأقمشة يصدران من مصانع بنين وربما اليوربا أيضاً .

وكان هذا الانتشار التجارى الكبير للأقمشة وسائر السلع الكمالية التى كانت تشكل فيما بينها مع معظم مراكز العمران البشرى المدنى أهم مميزات إقليم غينيا التى تميزه عن معظم أجزاء القارة الأخرى جنوب نطاق السفانا

السوداني ، على الأقل خلال نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة : فمعظم أجزاء بانتو إفريقية كانت تستورد القطن الذى عرفه البرتغاليون خلال اتصالاتهم بمراكز العمران البشرى المدنى على الساحل الشرقى فى أقاليم داخلية محدودة للغاية حول مناطق استخراج الذهب جنوب الزمبيزى . إلا أنه فى نفس الفترة كانت كل قرية فى غينيا تقيم علاقات تجارية مع المدنية الإسلامية فى السودان — وفى شمال إفريقية — وحينما وصل الأوروبيون عن طريق البحر إلى ساحل غينيا وجدوا أمامهم مرتعاً خصيباً لنشاطهم التجارى . وفى نفس الوقت كان دخول التجارة العالمية إلى غرب إفريقيا من الجنوب قد أحدث تغيرات جذرية بالنسبة لكل من اقتصاديات المنطقة من جهة ولتوازن القوى بين ممالكها من جهة أخرى .

— ١٠ —

عصر الأسلحة النارية وتجارة الرقيق

١ — شمال وغرب إفريقية

كان من نتائج الفتح العربى لإفريقية وما تبع ذلك من انتشار الإسلام فى الثلث الشمالى من إفريقية أن دخل جزء كبير من هذه القارة فى صميم التاريخ الإنسانى أكثر من أى فترة تاريخية أخرى . وفى نفس الوقت تحول البحر المتوسط إلى منطقة التقاء شعوب قارات إفريقية وآسيا وأوروبا تلتقى عندها آراء أبناء هذه القارات وأفكارهم . كما تحول ذلك البحر إلى ما يشبه الحاجز الذى يحول بين الصراع السياسى والفكرى الذى ظل طويلا بين الإسلام والمسيحية . ولم تخسر إفريقية كثيراً نتيجة لهذا كله ، بل إن ما كسبته إفريقية من حضارة الإسلام يفوق كثيراً ما كان يمكنها أن تكسبه من اتصالها بأوروبا إذ كانت تمر فى هذه الفترات فيما يمكن تسميته بالعصور المظلمة التى لم يكن هناك ما يضىء فيهـــا إلا شعاع الديانة المسيحية ونورها وحضارتها . ولقد حمل الصليبيون والملاحون الإيطاليون تجارتهم وتجارة أوروبا إلى كل من مصر والمغرب مما حقق نجاحاً مطرداً للتجارة الأوروبية ، التى ازدهرت بنشاط تجار البندقية ، الذين أثبتوا نجاحاً غير محدود وفاقوا منافسيهم فى علاقاتهم الطيبة مع المسلمين . لذلك فقد استمرت الصادرات الإفريقية بما فيها ذهب غرب إفريقية وكذلك النفائس الآسيوية تتدفق على أوروبا عن طريق مصر فى مقابل ما تتلقاه إفريقية الشمالية من الحديد والخشب والعبيد والصناعات اليـــدوية .

ولقد اجتاحت القارة الإفريقية فى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر قوى جديدة مشحونة بالطاقات المؤثرة تولدت من أنحاء دول البحر المتوسط تحت إطار التعاون الاقتصادى والسياسى والعسكرى . ولذلك أصبحت إفريقية شمال الصحراء الكبرى أقل فاعلية كمنطقة مطلة على البحر المتوسط وحينئذ لبت أجزاء أخرى من القارة النداء الأوروبى الجديد الذى تردد طالباً العبيد فى مقابل الأسلحة النارية التى قلبت توازن القوى فى أجزاء عديدة من القارة والتى جاء بعضها من تركيا وأوروبا على السواء .

وكانت طلائع تلك القوى الجديدة قد وفدت إلى القارة من أسبانيا والبرتغال التى أعدت نفسها لنضال طويل لتحرير شبه الجزيرة من المسلمين والمغاربة . فبدأت تطارد هذه الشعوب منذ عام ١٤١٥ عبر مضيق جبل طارق فى مراكش . ورغم ما أحرزه الايبريون من نجاح ضد المسلمين على الشواطئ فقد فشلوا تماماً فى قهر المراكشيين . وقبل نهاية القرن السادس عشر كانت القبائل المراكشية قد نجحت تحت لواء أسرة السعيديين الحاكمة (١٥٥٤ — ١٦٥٩) فى التماسك لرد كيد العدو الجديد . إلا أن البرتغاليين فى نزاعهم مع هذه المنطقة اكتسبوا الجديد من المعلومات وتولدت لديهم طاقات طموحة[1]. فعرفوا أن وراء الصحراء الكبرى توجد غينيا أرض الذهب التى كانت تحت حكم أعدائهم . كما علموا أن تجارة العرب ومجال ملاحيهم يشمل ساحل إفريقية الشرقى . وعلموا أيضاً من الجغرافيين العرب أن إفريقية محاطة بالبحار فى معظم أجزائها . كل هذه المعلومات بالإضافة إلى المساعدات الفنية والمالية المتلاحقة من الملاحين والتجار البنادقة شجع على تحطيم الحصار الإسلامى فاندفعوا إلى إفريقية غازين غربها غانمين ذهبه . وحققوا بذلك أرباحاً كثيرة إلى جانب تعاونهم المستمر مع إخوانهم مسيحى إفريقية . .

---

(١) كان الأسبان حتى عام ١٤٩٢ لا يزالون مشغولين بغرناطه ، آخر إمارة مغربية فى شبه الجزيرة وبعد هذا التاريخ ، اتجهت طاقاتهم نحو العالم الجديد الذى اكتشفه لهم كولومبس فى العام التى سقطت فيه غرناطة . (المؤلف)

وأيضاً حطموا سيادة المسلمين على تجارة المحيط الهندى . وربحت البرتغال ربحاً وفيراً باستيراد مستلزماتها من المواد والبضائع النفيسة من آسيا كالتوابل بالذات وبكميات وفيرة وبأسعار لا تقبل المنافسة من قبل التجار الإيطاليين فى البندقية . كل هذا إلى جانب الخيال الذى كثيراً ما داعب البرتغاليين وهى قوة المسيحية عن طريق هذه الثروة .

هذا الحلم الكبير بدأ يتحقق فى عام ١٤١٥ ، بل إنه بدأ ينمو ويزداد أملا فى التحقق الكامل تدريجياً . واستطاع البرتغاليون بما اكتسبوه من خبرة وحنكة فى صناعة صيد الأسماك فى المحيط الأطلنطى ، أن يتصلوا بإفريقية لأول مرة عام ١٤٤٤ — ١٤٤٥ بوصولهم إلى الرأس الأخضر ومصب السنغال ، ثم بعد فترة قصيرة احتلوا جزء الرأس الأخضر لينفذوا بتجارتهم منها إلى مالى . وفى عام ١٤٧١ احتل البرتغاليون ساحل الذهب ووجدوه غنياً بالذهب لدرجة كبيرة جداً حتى أنهم بدأوا فى وضع أولى قلاعهم الساحلية فى عام ١٤٨٢ لصد الأوروبيين العاملين فى المحيط والمسافرين فيه وكان أول حصونهم عند « المينا » . كما استطاعوا أن يتصلوا بساحل بنين والكونغو مما أعطاهم الفرصة لزيادة حجم التبادل التجارى وزيادة نفوذهم . وفى عام ١٤٨٨ استطاع بارتلميوديازأن يدور حول رأس الرجاء الصالح كما تمكن بيدرو دى كوفيلهان أن يصل إلى الهند والحبشة بالطرق التقليدية المعروفة ، هذا وذاك مكنا لفاسكودا جاما أن يقوم برحلته الظافرة من ساحل إفريقية الشرقى إلى الهند ثم العودة ثانية فى عام ١٤٩٧ — ١٤٩٩ ، وفى هذه الفترة اتفقت مصر مع البنادقة لتحطيم أسطول البرتغاليين فى المحيط الهندى للقضاء على نفوذهم هناك . إلا أن أسطولهم الذى أرادوا به أن يحققوا نصراً على البرتغال لم يلبث أن هزم فى موقعة ديو عام ١٥٠٩ . وبذلك تحقق للبرتغال كامل الحرية للنفاذ إلى إفريقية الزنجية من أى نقطة تختارها من السنغال حتى البحر الأحمر . وبدت كما لو كانت تسيطر على معظم تجارة المحيط الهندى الغربى .

هذه السيطرة سرعان ما قابلت تحدياً من طلائع الأتراك العثمانيين على

صفحة المحيط الهندى، أولئك الذين أنشأوا قوة عسكرية جبارة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر فى آسيا الصغرى . وهم أيضاً الذين غزوا مصر عام ١٥١٧ ، كما مكنهم موقع مصر من التقدم إلى الغرب حتى المغرب وإلى الجنوب الشرقى حتى البحر الأحمر . وكانت هذه القوة لا تقل فى قوتها عن القوات البرية ، كما أن ملاحيها إنما كانوا من ملاحى الجزر والسواحل اليونانيـــة .

أما فى الشرق فقد فشل الأسطول التركى فى قهر البرتغاليين وطردهم من مياه المحيط الهندى ولكنه استطاع أن يمنعهم من التقدم فى البحر الأحمر فقد جلب الأتراك معهم الأسلحة والطاقات الجديدة للشعوب الإسلامية فى المنطقة غير عابئين بخطر المسيحية الكامن فى الحبشة . أما فى الغرب فقد حقق التقدم الكبير لقراصنتهم السيطرة على الساحل الشمالى الإفريقى حتى مراكش . ولكن السعديين هنا ومن ورائهم القبائل المراكشية استطاعوا أن يصمدوا أمام هذا الغزو التركى وذلك لتأثرهم بروح الطموح الأسبانى والبرتغالى . إلا أن طرابلس وتونس ومركز القراصنة الجديد فى الجزائر أصبحت كلها ولايات فى الإمبراطورية العثمانية .

ولو أن القوة البحرية التركية لم تصطدم مع الأساطيل المسيحية عند ليبانتو عام ١٥٧١ لأصبح الساحل الإفريقى الشمالى ذا صبغة تركية أكثر وضوحاً ، إذ قنعت الإمبراطورية العثمانية بأن تكون لها سيادة اسمية فقط . فالباشوات كانت ترسل بانتظام إلى القاهرة فى نفس الوقت الذى تتمثل فيه القوة الفعلية فى أيدى المماليك . وكان من نتائج انتصار الأسطول التركى فى المنطقة أن تحولت التجارة بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح المحيطى ، وكذلك انحطت الزراعة فى مصر التى شهدت فترة مظلمة سادها الإهمال مما دفع أوروبا إلى التفكير فى غزوها لتفتح طريق التجارة إلى آسيا مباشرة عن طريقها وعلى امتداد النيل وفى الشلال الثالث ، اندفع الجنود الأتراك ومن طاب له المقام استقر ليكون نواة الطبقة الحاكمة التى تسيطر على السودانيين المحليين ؛

أما بقية السودان فقد كان متروكاً لأصحابه ولقبائل البدو وسلطان الفونج فى سنار .

أصبحت الولاية فى طرابلس ملكاً وراثياً لجماعة محلية هناك . أما تونس والجزائر فلم تبقيا طويلا فى يد الأتراك . ولكنها بقيت فى أيدى الجماعة الصغيرة التى تعتبر من بقايا القراصنة الانكشارية[1] الأناضوليين الذين فتحوا البلاد أصلا باسم الإمبراطورية العثمانية . أما فى تونس فقد اختلط الغزاة بالوطنيين فى القرن الثامن عشر وظهرت مملكة حسين بك الوطنية التى تمكنت من استعادة سياسة الحفصيين ، وكذلك العلاقات التجارية مع كل من السودان وأوروبا . أما فى الجزائر فكان هناك نائب الملك إلا أن الموقف هناك كان سيئاً للغاية فيما بين تونس ومراكش بصفة عامة . وفى عام ١٧١١ كان الداى يمثل الحاكم المطلق الذى اختاره الانكشارية ليلى الباشوية. إلا أنهمن الصعب القول بأنه كان يمثل الحكومة تمثيلا فعليا . فقد كان وجنوده وبحارته مجرد شرذمة تمارس السطو من أجل غنائم غير مشروعة . فكانوا يهاجمون القبائل من حين لآخر ويختطفون ما يمكن أن تسنح لهم الظروف باختطافه ، وأصبحوا قراصنة فعليين فى البحر يغتالون السفن المسيحية ويسطون على البضائع وعلى أسر الركاب المسافرين والملاحين أو أخذ الفدية عنهم .

كانت شمال إفريقية لا تزال فى أيدى المسلمين الذين عجزوا باستثناء مراكش وتونس عن الاحتفاظ بعلاقاتهم القديمة مع السودان ومع ازدياد سيطرة الأساطيل الغربية على البحر المتوسط خاصة بعد ليبانتو التى مكنتها من أن تحرز تقدماً ملحوظاً فى مجال التجارة المحيطية . إلا أن المؤثرات السياسية والتجارية لم تصل بسهولة إلى المناطق الزنجية عن طريق الشمال . وعموماً فإنه مع نهاية القرن السادس عشر كانت الجيوش التركية المسلحة بالأسلحة النارية والمزودة

---

(١) الانكشارية هى خلاصة الجيش العثمانى ، وكانوا يتكونون من أبناء المسيحيين الذين كانت الدولة العثمانية تفرض على ولاياتها تقديمهم كمماليك ، ينشأون فى ظل نظام حربى صارم ويربون على التعاليم الإسلامية . (المؤلف)

بها تمر من مصر فى طريقها إلى برنو . وكانت حكومة كانم السابقة قد أجبرت فى القرن الرابع عشر على الاحتماء فى برنو جنوب غرب بحيرة تشاد بوساطة البولالا المناوئين لزغاوة التى اندفع أفرادها بدورهم إلى الغرب بسبب القبائل البدوية المنحدرة من وادى النيل . واستطاع ماى إدريس الوما بفضل حملة البنادق المسلحين من السيطرة على طريق كانم القديم ليجعل من برنو المدينة المهيمنة على جنوب غرب بحيرة تشاد ، ليس هذا فقط ، بل ليحافظ فى نفس الوقت على سيادته على البولالا شمالا وشرقاً . وفى برنو نفسها كانت قوة الحكم هناك كفيلة بتطبيق النظم الإسلامية حتى تتغلغل فى نفوس العامة .

وفى نفس الوقت كان السعيديون فى مراكش قد بلغوا قمة مجدهم وسلطانهم خاصة بعد انتصارهم على البرتغاليين والأتراك، ثم ما تبع ذلك من سعيهم من عام ١٥٩٠ إلى ١٦١٠ إلى حل المنازعات مع إمبراطورية الصنغاى ليمكنهم بعد ذلك أن يتحكموا فى تجارة الذهب فى السودان الغربى . وقد كانت معظم القوات التى تحارب فى البحر المتوسط تتمثل فى المسيحيين أو المرتزقة الذين أثبتوا مقدرتهم على الحياة فى الصحراء . فأسهموا فى هزيمة بعض جماعات الصنغاى إلا أن حكومتها المحلية جزأت إمبراطورية الصنغاى إلى ممالك قبلية ثم سيطر المراكشيون على الحكم . وفى ظروف غامضة ، تسرب الذهب الذى كانوا يبحثون عنه إلى المدن التجارية فى النيجر وتمبكتو وجواودچين . وهذه استطاعت أن تقوى نفسها وتقاوم حتى أن أبناءهم ظلوا قوة أرستقراطية حربية مسودنة مستقلة عن مراكش عام ١٦٦٠ وظلوا يعملون فى هدوء فى تكوين قوتهم العسكرية التى تمثلت فى الأرستقراطية السودانية هناك : فالسودان الغربى كان يمثل أرض معارك تصهر الجنود وتجعل من نفسها مدرسة حربية لمواطنى المنطقة . فقد كانت تسودها جماعات الطوارق البدوية التى وفدت من الصحراء ، إلى جانب الفولانى والزنوج الزراع القادمين من الغرب . ولم تكن هناك سوى مملكة بمبارا التى تمثل المنطقة المستقرة الوحيدة فى سيجو التى ورث بعض أبنائها من الوثنيين ، تقاليد أجدادهم الماندى الذين سيطروا على تمبكتو

حتى عام ١٦٧٠ وكذلك على بعض المدن المغربية الأخرى . وفى القرن الثامن عشر حدثت انقسامات داخلية فى سيجو تسببت فى تأسيس مملكة منافسة فى كا أرتا .

ومن دلائل ذلك الاضطراب الذى شمل الحكومات المنظمة فى غرب إفريقية ، تأكيد أهمية طرق التجارة عبر الصحراء الكبرى إلى كل من تونس وطرابلس . وبعد القرن السابع عشر ، حينما ضعفت برنو ، أصبحت نهايات هذه الطرق آمنة إذ سيطرت عليها ممالك الهاوسا التى دخلت مع كانو وكاتسينا إلى أوج ازدهارها . ولقد قلت أهمية هذه الطرق البرية فى نقل التجارة باستثناء تجارة الرقيق وذلك لأن تجارة غينيا عندما تحولت إلى الأوروبيين بالتدريج بدأت تتخذ الطريق المحيطى فى نقلها من الساحل .

ولم يكن قدوم التجار الأوروبيين إلى المنطقة ذا أهمية كبرى على تجارة غينيا نفسها فقد كانت مستلزمات أوروبا من المواد الخام اللازمة للصناعة فيما وراء البحار تتمثل فى الحرير والأدوية والعطور ومحاصيل المناطق الاستوائية كالتوابل والسكر . ولم تكن شعوب إفريقية على قدر كاف من الدراية بتصنيع مثل هذه المواد الخام وإعدادها لتصدر إلى خارج المنطقة كما كانت تفعل آسيا . إذ لم يكن معظم سكان هاتين القارتين ينتجون هذه المواد للتصدير كما أنهم بعكس الهنود الحمر كانوا يقطنون المناطق الزراعية الخصبة التى تلائمهم ، لهذا حالت صعوبات المناخ والمواصلات دون دخول الأوروبيين إلى إفريقية لإنتاج ما يريدون . وقد أجريت التجارب لتعميم نظام « المزارع العلمية » فى غرب إفريقية خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر . إلا أن هذه التجارب لم تتم إلا فى الجزر المقابلة للساحل الإفريقى . ونقل الأسبان هذا النظام من جزر كناريا إلى جزر الهند الغربية ، وكذلك من جزر الرأس الأخضر وجزر خليج غينيا خاصة سان تومى . وكانت هذه الأخيرة هى التى انتقل منها هذا النظام على أيدى البرتغاليين إلى البرازيل . فقد كانت أوروبا حقيقة فى حاجة لهذه السلع وكان غرب إفريقية يمدها بالعاج والذهب . وفى

القرن الثامن عشر قلت الكمية الوافدة إلى أوروبا من العاج . واقتصر حصولها على الذهب من غينيا على ساحل الذهب الذى كان المصدر الرئيسى الأول للأوروبيين حتى القرن السابع عشر . وقد كان البرتغاليون على سبيل المثال يولون بنين اهتماماً كبيراً ، ولكن بعد أن أمكنهم الحصول على التوابل من آسيا من أنواع جيدة وبكميات وفيرة تضاءل هذا الاهتمام كثيراً .

وبدأ هذا الوضع يتغير فى القرن السابع عشر حينما تزايد الطلب على الأيدى العاملة الزراعية لخدمة الأوروبيين فى المناطق الاستوائية الأمريكية . فكانت المستعمرات الأسبانية تتلقى حاجتها من هذه الأيدى من رقيق إفريقية منذ عام ١٥١٠ ، ثم تزايد العدد عندما زاد الطلب على السكر . فزراعته تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة . وأصبح نشاط التجار الأوروبيين عبر الأطلنطى مقصوراً أو شبه مقصور على تجارة الرقيق . فقد وصل منهم تسعمائة ألف إلى أمريكا عام ١٦٠٠ ،وارتفع هذا الرقم إلى سبعة ملايين فى القرن الثامن عشر ليهبط فى القرن التاسع عشر إلى أربعة ملايين ، هذا علاوة على ما كان يفقد منهم فى الطريق إلى أمريكا ويقدر المفقودون بنحو ١٥ إلى ٢٠٪ من مجموع شحنة كل رحلة . هذا بخلاف ما كان يسقط منهم صرعى فى أثناء المطاردة وعمليات اصطيادهم وأسرهم . ولقد برز نشاط الهولنديين فى هذه التجارة على غيره فى المحيط الأطلنطى وأصبحت هولندا وكأنها تحتكر هذه التجارة فى المنطقة الأمر الذى حرك ضغائن الإنجليز والفرنسيين . فانتقلت إليهم هذه التجارة فى القرن الثامن عشر . أما البرتغاليون فلم يتعد نشاطهم فى تجارة الرقيق المنطقة ما بين أنجولا وسان تومى،وكانت تبعث الرقيق من هنا إلى البرازيل . وكان للإنجليز القدر الكبير فى هذه التجارة ، لدرجة أن سفنهم كانت تنقل أكثر من نصف مجموع الرقيق الوافد إلى أمريكا . ولا شك أن هذا يعكس مدى التقدم الذى كانت عليه بحرية بريطانيا وتجارتها التى عملت على تركيز نشاطها على ساحل الذهب ، حتى أطلق ساحل الرقيق على المنطقة ما بين ساحل الذهب ودلتا النيجر لكثرة ما صدر منه من هؤلاء . وكان الأوروبيون يجمعون الرقيق

بوساطة الملوك والتجار وبمعاونتهم واقتصر نشاط الفرنسيين على السنغال بمنطقة غينيا . وتوغلوا نحو ثلاثمائة ميل على طول مجرى نهر السنغال ، إلا أن النتيجة لم تكن إلا خيبة أمل لفقر هذه المنطقة سواء فى السلع التجارية أو فى عدد السكان .

وباستثناء توغل الفرنسيين إلى الداخل شمال السنغال ، كان الأوروبيون يفدون بأعداد كبيرة على سفن قديمة يرسون بها عند مداخل الأنهار وبالقرب منها كدلتا النيجر بجوار القرى الإفريقية . لذلك تطورت هذه الأخيرة وانتعشت نتيجة لقيام التجارة فيها فقد اشترى الأوروبيون عبيدهم من ملوك إفريقية وتجارها ويتضح هذا من تركز تجارتهم على الساحل حيث كانت السلع الفاخرة التى يمكن أن تصدر إلى المنطقة مقابل الرقيق إلى أوروبا كالملابس والسلع المعدنية والمشروبات الروحية والأسلحة النارية . وكان التجار قد مدوا الأوروبيين بحاجتهم من الذهب أولا ، ثم العبيد فيما بعد عندما تزايد الطلب عليهم . وكان من نتيجة ذلك تقدم هذه التجارة خاصة فى شرق دلتا النيجر . وبدأ الأوروبيون يصدرونهم أولا من بين المجرمين والخارجين على القانون . ولكن بتزايد الطلب عليهم بدأ التجار والملوك يستعملون الأسلحة النارية فى اصطياد سكان المناطق الداخلية لتصديرهم .

ولقد ظهرت تأثيرات ثورية ضخمة فى خلال القرن الثامن عشر بسبب تجارة الرقيق فى غرب إفريقية . ويبدو أنه لم تكن ثمة تأثيرات تذكر فى جهات أخرى من إفريقية كأنجولا أو شرق إفريقية . فقد ارتفعت الخسارة فى القوة البشرية فى غينيا إلى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ شاب وشابة سنوياً خلال القرن الثامن عشر . هذا إلى جانب الثراء الفاحش الذى حققته جماعات محلية فى ساحل غينيا كانت تعمل فى التجارة مع أوروبا . وفى كلتا الحالتين كان الوضع مختلفاً بالنسبة لأنجولا وشرق إفريقية فالسكان قليلون نسبياً ، واقتصادهم المحلى لم يحرز تقدماً يزيد على ماهو عليه الآن . لهذا كانت الخسارة فى القوة البشرية قليـــلة .

غابات استوائية كثيفة
اعلى من ٣٠٠٠ قدم
اميال
٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠

سانت لويس
كيب فرد
ميل الى جزر كيب فرد
جزر بساغوس
نهر غمبيا
نهر سنغال
كارتا
تمبكتو
جاو
سيجو
جيني
مرباو
مالي
موشي
داجومبا
بادوا
بونو
داهومي
اشانتي
ساحل العاج
ساحل الذهب
رأس ثري بوينتس
سيراليون
ساحل الحبوب
اويو
ساحل العبيد
بنين
لاجوس
وارى
نهر النيجر
نهر بنوى
كتسينا
كانو
الهوسا
زاريا
بحيرة تشاد
خليج غانه
بريسبي
سان توم
السفرونية
١٥ ١٠ ٥ ٠

غرب افريقيا من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر .

(شكل ٩)

ولقد كان التأثير العام لتجارة الرقيق المحيطة يتمثل فى انتقال مركز الغنى والثراء والقوة فى غرب إفريقية من السودان إلى الساحل . فى حين لم تجن أوروبا نفسها فوائد تذكر من وراء هذه التجارة بصورة مباشرة . فقد ظل الفرنسيون فى السنغال الأدنى ، وفى جورى . واحتل الإنجليز والهولنديون والدانمركيون حصون ساحل الذهب . وكان تأثيرهم السياسى هنا محدوداً للغاية. أما حصونهم التى أقيمت على ساحل الذهب فقد شيدت على أراض مغتصبة من دويلات إفريقية محليـــة . ولم تستطع على أية حال هذه الحصون أن تصد غارات الإفريقيين هناك . إلا أن تحالف بعض هذه الجماعات مع الأوروبيين والذى جاء نتيجة لتهديد دول ناشئة فى المناطق الوسطى لهم ، قد وضع بذور الاستعمار الأولى فى القرن التاسع عشر .

ولعل أهم ما يتميز به التطور الذى حدث للدول الإفريقية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هو نمو وازدهار هذه الدويلات وامتدادها نحو الداخل هرباً من تجارة الأوروبيين وطلبهم على الرقيق بالإضافة إلى غاراتهم المستمرة على المناطق الساحلية لجنى الثراء الفاحش من وراء هذه التجارة . ولهذا فقد تقهقرت مراكز القوى نحو الداخل ، وفيما بين عامى ١٦٨٠ ، ١٧٣٠ استطاع الأكان فى اكوامو أن يصلوا إلى شرق ساحل الذهب وغرب ساحل العبيد فى محاولة منهم فى السيطرة على تجارة الجنوب إلا أن اكوامو نفسها قد فشلت فى إيجاد نظام يكفل لها الطمأنينة ويحميها من حملات تجار الرقيق . كما فشلت فى حماية نفسها من « جا » و « ايوى » وحل محلها الأشانتى الذين سيطروا على مقاليد الأمور وبدأوا فى التوسع متجهين نحو الشمال فى بداية القرن الثامن عشر ،وضمت إليها ممالك بونو وباندا وجونجا وداجومبا . كما تمكنت من السيطرة على تجارة الجنوب وأرباحها عندما اندفعت إلى الجنوب لتتصل بتجارة الأوروبيين هناك . وفى أقصى الشرق استطاعت دولة أويو أن تمتد جنوباً فى القرن السابع عشر ،وسيطرت على مساحة كبيرة من مناطق اليوربا المجاورة فى القرن الثامن عشر . وتحولت تجارة الرقيق من بنين

إلى موانى باداجرى ولاجوس . وظهرت دولة داهومى بين إمبراطوريتى الأويو والأشانتى واستطاعت هى الأخرى أن تنجذب فى توسعها نحو الجنوب لتشارك فى تجارة الأوروبيين هناك .

وفى نهاية القرن الثامن عشر وبعد ثلاثة قرون من بدء التعامل التجارى مع الأوروبيين فى سواحل غرب إفريقية ، لم يكن هناك أى أثر يذكر للتبشير المسيحى . ولم يهتم بهذا الأمر سوى البرتغاليين فقد كانوا أول من بعثوا حملات التبشير إلى بنين ثم انسحبوا إلى وارى ، إلا أنها لم تنجح فى إقامة دولة مسيحية سواء فى غينيا أو فى الكنغو . إلا أن الحملات التبشيرية فى الساحل المقابل لجزر الرأس الأخضر استطاعت أن تحرز بعض التقدم . وربما كان سبب ذلك هو اهتمام الأوروبيين الأول فى غرب إفريقية بتصدير منتجات المنطقة المحلية . وقد أثرت فيهم تجارة الرقيق بأن منعت توغلهم إلى الداخل بسبب نشاط الوسطاء . فاستقروا على الساحل فى بعض الأجزاء كساحل الذهب ومصب السنغال . ولهذا تأثر بوجودهم هناك بعض العناصر الوطنية فأصبحت تتشبه فى مظهرها الخارجى بالأوروبيين وكذلك فى بعض عاداتهم أحياناً . فى حين بقيت الجماعات الأخرى فى مساحات كبيرة بعيدة كل البعد عن أى تأثير مباشر للأوروبيين . إلا أن وجود هذا العنصر الدخيل فى ساحل غينيا قد نبه الأذهان إلى الدور الفعال الذى يمكن أن يقوم به الساحل بفضل الحضارة السودانية الزاهرة .

— ١١ —

عصر الأسلحة النارية وتجارة الرقيق

٢ — من الكونغو إلى الزمبيزى

حينما اكتشف البرتغاليون مصب نهر الكونغو عام ١٤٨٢ وجدوا أنفسهم أمام إحدى الممالك الكبرى فى إفريقية جنوب الصحراء الكبرى ، ومن أكبرها على الساحل على الإطلاق . ولم تكن هذه المملكة إلا مملكة باكونغو التى كان يطلق على ملكها اسم مانيكونجو والذى اتخذ مبانزا كونجو عاصمة لمملكته : هذه العاصمة هى ما يطلق عليه اسم سان سلفادور فى شمال أنجولا . وتعتبر مملكة الكنغو من الممالك السودانية النموذجية التى ربما قامت فى نهاية القرن الرابع عشر أو بداية القرن الخامس عشر . وربما كانت هذه المملكة تمثل أحد فروع حضارة اللوبا القديمة فى كاتنجا ووفدت إلى منطقتها هذه من اتجاه الجنوب الشرقى . ويقال إن مشيدى الباكونجو الأصليين كانوا من الحدادين المهرة . ولهذا فإن أفراد شعب هذه المملكة كانوا يمتازون بمهارة فائقة فى عمليات الصيد والقتال كما يحظى الحدادون فى مملكة الكونغو دائماً بامتيازات لا يتمتع بها كثيرون غيرهم من ذوى الحرف الأخرى . وكانت نواة هذه المملكة تشمل كل ذلك الجزء الذى يقع مباشرة تحت إدارة المانيكونجو والذى يشرف عليه رؤساء لهم مكانة مقدسة فى الجنوب من مصب الكونغو وترتبط هذه النواة بالطبع بكل من المحيط الأطلنطى والكنغو والكوانجو والداندى ولقد قدرت إحدى البعثات عدد السكان فى هذه المملكة بحوالى مليونين ونصف مليون نسمة وذلك فى القرن السابع عشر . وكانت هناك عدة ممالك أخرى صغيرة

تلتف حول هذه النواه التى كانت لها نظم معقدة تشبه مثيلتها فى النواة ، وكانت فى الوقت نفسه تقع بعيداً عن حكم مملكة الكونغو المباشر . ولكن نظراً لبعدها عن المركز فقد عين لها حكام يديرون شئونها ولكن هؤلاء الحكام استغلوا سلطتهم وأعلنوا استقلالهم عن المركز . فى حين ظلت هذه الممالك تعترف بزعامة المانيكونجو الاسمية عليهم . وتعتبر كل من نجوبو وكاكونجو ولوانجو أهم ثلاث ممالك على ساحل الأطلنطى شمال مصب الكونغو . وتكون هذه على المنطقة التى يطلق عليها اسم ماتامبا Matamba على امتداد وادى كوانجو فى الجنوب الشرقى وإقليم نودونجو Ndongo معظم الأجزاء الوسطى لأنجولا الحالية على كلا جانبى نهر كوانزا . وفى الوقت الذى بدأ البرتغاليون فيه اتصالاتهم الأولى بالمنطقة ، كانت معظم الأجزاء الهامة الواقعة تحت أيدى الحكام المحليين فى إقليم ندونجو قد أصبحت جزءاً من المستعمرات البرتغالية .

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر لم يركز البرتغاليون مجهوداتهم على أنجولا وإنما على مملكة الكونغو أساساً فقد أرسلت البعثات عام ١٤٩٠ وكانت تتكون من البنائين والنجارين وغيرهم من مهرة الفنيين . وكان معظم أفراد أسرة المانيكونجو وبعض رؤساء العشائر قد تحول عن ولائه لزعمائهم ، كما أعيد بناء العاصمة من الأحجار وأرسل الشباب الكنغولى إلى أوروبا للتعليم . إلا أنه كما كان متوقعاً لم يحرز الكثير منهم النجاح والتقدم المناسب باستثناء واحد فقط استطاع أن يثبت جدارة وتفوقاً ملموسين وهو نزنجا مبمبا Nzinga-Mbemba الذى اتخذ اسم ألفونسو لقباً له عام ١٤٦١ . وقد نجح فى اعتلاء عرش المنطقة عام ١٥٠٧ بفضل حماسه للدين المسيحى الذى ظل على ولائه له ، عاملا على نشره حتى توفى عام ١٥٤٣ وكان نجاحه فى الحكم بفضل هذه الغيرة والحماس فكان يريد أن تسير مملكته على نفس النسق الذى كانت تسير عليه دول غرب أوروبا آنذاك . ولسوء الحظ سرعان ما كشفت البرتغال عن أهدافها الحقيقية حينما تزايد نشاطها فى تجارة الرقيق وهو الهدف الأساسى لها وليس تكوين مملكة مسيحية كما كان يبدو ظاهرياً .

وكما كان الحال فى معظم أجزاء إفريقية ، كانت تجارة الرقيق تمارس فى الكونغو منذ فترة أبعد كثيراً من تلك التى بدأ فيها الأوروبيون تجارتهم فى هذه السلعة فيما وراء البحار . ولقد أعلن ألفونسو بوضوح كراهيته لهذه التجارة على الرغم من أنه كان يبادل بالعبيد السلع الأوروبية . وكان الطلب على الأيدى العاملة فى المستعمرات البرتغالية عبر الأطلنطى فى البرازيل قد تزايد . ولهذا بدأ نشاط حملاتهم فى مملكة الكنغو يظهر ويتفاقم شره . وحينما جاء باولو دياز نوفايز Paulo Dias de Novais بدأ عهداً جديداً فى علاقات البرتغاليين بوسط إفريقية الغربى . فاتخذ هذا الرجل لواندا بالقرب من حدود الكونغو الجنوبية مركزاً له . ومن هذا المركز بدأ حملات مسعورة فى شكل حروب متصلة ضد شعب نجولا Ngolas فى ندونجو فى الوقت الذى ظلت فيه العلاقات مع المانيكونجو على ما يرام . ولكن الغرض الجديد الرئيسى للبرتغاليين من استمرار تجارة الرقيق لم يكن إلا إعداد الوطنيين أنفسهم لقتال إخوانهم شعوب المناطق المجاورة لحدود المستعمرة . وبالطبع كان ذلك موجهاً أساساً للمناطق القريبة من الأقاليم الجنوبية لمملكة الكونغو ، والذين شنت ضدهم الغارات وقامت معهم الحروب . وكان يقوم بمثل هذه الغارات فى الغالب قطاع الطرق والمجرمون الذين كان يطلق عليهم اسم الجاجا Jaga أو الياكا Yaka . وفى بداية القرن السابع عشر وجه جميع المانيكونجو — الذين كانوا يعتنقون المسيحية فى الظاهر — نداء مؤثراً إلى المجمع المقدس عن طريق الإرساليات التبشيرية . وحاول الكثير من الباباوات التدخل فى الموقف وبعثوا برسائل شديدة اللهجة من روما إلى لشبونه . إلا أن الحكومة البرتغالية أعلنت أنها لا تملك السيطرة على رعاياها فى أنجولا . وأخيراً فى عام ١٦٦٠ اضطر الباكونجو إلى إعلان الحرب ضد البرتغاليين وأذنابهم فى المنطقة مما أنذر بنتائج وخيمة للغاية . فقد كانوا أضعف من أن يقفوا أمام هؤلاء فى أى حرب ، بل فشلوا فى المحافظة على وحدتهم الداخلية فانفضت من حولهم الأقاليم الخارجية التى كانت تابعة لهم من قبل . كما بدأت تظهر بعض الأسر

المنافسة لهم فى المنطقة ، بل انقطع اتصال الإرساليات التبشيرية بهم هو الآخر وانهارت دعائمه . ولهذا ففى نهاية القرن الثامن عشر أصبحت المسيحية هناك مجرد أثر بعد عين . كما تقلص حكم المملكة السابق على القرى القليلة المتناثرة حول سان سلفادور .

ظلت انجولا تمثل المستودع الذى يمد البرازيل بحاجته من العبيد ، حتى أنه فى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تحولت إلى منطقة مقفرة من السكان . وكانت مملكة الكونغو كما رأينا من قبل قد لفتت الأنظار إليها لتعيش المأساة نفسها . وكانت هناك نتائج غير مباشرة لوجود البرتغاليين بالنسبة لشعوب المناطق الداخلية التى فشل البرتغاليون تماماً فى الوصول إليها حتى قرب القرن الثامن عشر . وكانت الحدود النهائية لتدخل البرتغاليين فى أنجولا قد وصلت إلى وادى الكوانجو بالقرب من كوانجو الأعلى فيما بينه وبين أعالى الكاساى الأعلى . وإلى الشرق من اللوالابا Lualaba كانت توجد اللوندا Lunda . ويبدو من التاريخ التقليدى للمنطقة أن اللوندا لم يكونوا يمثلون مملكة كبيرة أو يحكمها حكام أقوياء إلا أنه مع نهاية القرن السادس عشر برزت جماعة منهم من جامعى العاج لتتقدم فى حذر ولباقة وقوة نحو بناء مملكة سودانية اتخذت ملوكها من أسرة مواتا لوندا Mwata-Lunda واستطاعت هـــذه الأسرة بنموها السريع أن تطغى على لوبالوندا Luba-Lunda التى شملت فى منتصف القرن السابع معظم المنطقة الواقعة فى جنوب الكونغو الحالية وغرب أنجولا وروديسيا الشمالية .

ومنذ وجدت هذه الأسرة كانت مملكة المواتايامفو تقوم باتصالات تجارية غير مباشرة مع البرتغاليين فى أنجولا . ومن هذا الفريق استطاعت الحصول على الأسلحة النارية والبارود والأقمشة وغيرها من الكماليات فى مقابل الرقيق . ومن ثم كان الحروب والدمار الشامل هما النتيجة الحتمية لتحقيق مثل هذا التبادل . ولقد أضاف تصدير العاج إلى البضائع المصدرة قيمة جعلت الصيد وتنظيم شئونه يحرز تقدماً ملموساً نظراً لما ينتظر ثماره من

افريقيا من الكونغو الى الزمبيزى

(شكل ١٠)

الربح الوفير . فقد كان ذلك يتطلب تنظيما سياسياً على نطاق واسع وكان مثل هذا التنظيم السياسى والاقتصادى قد بدأ بالفعل فى إقليم اللوباشمال كاتنجا ؛ ويبدو أن تكوين دولة فى منطقة نفوذ اللوبالوندا إنما جاء نتيجة الدوافع الاقتصادية التى حفزها البرتغاليون .

وكان آخر امتداد على نطاق واسع فنظام اللوبا لوندا قد وصل إلى الجنوب الشرقى من مملكة المواكايامفو خلال بداية القرن التاسع عشر التى أسست مملكة كازامبزى Kazambes تلك المملكة العظيمة التى اتخذت عاصمتها فى وادى ليابولا إلى الجنوب بقليل من بحيرة مويرو Mueru ولم يلبث شعب اللوندا فى كازامبزى والذى شاد هذه المملكة الجديدة بفضل الأسلحة النارية التى وفدت إليه أخيراً من البرتغال أن اشتغل بتجارة العاج وتصديره إلى محطات البرتغاليين على نهر الزمبيزى ، على هذا يمكن القول بأن الإفريقيين قد أحسوا بالنفوذ البرتغالى بطريق غير مباشر من الساحل الإفريقى الغربى إلى الساحل الشرقى .

وإلى الجنوب من انجولا كانت ثمة جماعات مبعثرة تمارس الصيد والرعى فى المناطق المقفرة القاحلة فى جنوب غرب إفريقية وكانت هذه الجماعات تسمى بالبشمن والهتنتوت . وهنا لم يستطع البرتغاليون البقاء ، كما لم يتمكنوا من البقاء فى منطقة رأس الرجاء الصالح التى كان يطلق عليها آنذاك رأس الأعاصير . ولم يفكروا هم أو غيرهم فى استعمار رأس الرجاء إلا فى منتصف القرن السابع عشر عندما تمكن الهولنديون من الإبحار شرقاً عن طريق الرأس ليجوبوا بسفنهم جنوبى المحيطين الأطلنطى والهندى ومنذ ذلك الحين بدأت تلوح فى الأفق أهمية الرأس فهو يقع فى منطقة متوسطة على الطريق . لهذا اتخذته هولندا كقاعدة بحرية ييسر عمليات الإمداد والتموين للسفن الهولندية ، فى حين كان يمثل عقبة كؤوداً فى طريق البرتغاليين من موزمبيق إلى جوا . فكان بمثابة صخرة تتحطم عليها السفن التى كثيراً ما كانت تفاجئها الأعاصير .

ولقد جاءت معظم المعلومات الأولى عن جنوب إفريقية عن طريق فئة من البرتغاليين نجوا من الموت بعد أن تحطمت سفنهم ووصلوا إلى الساحل واخترقوا ترانسكى وبوندولاند وناتال وجنوبى موزمبيق . وتشير هذه المعلومات إلى أنه فى ذلك الوقت لم يكن جنوب إفريقية خالياً تماماً من الشعوب البانتوية بأى حال من الأحوال . على عكس ما يقول به سكان هذا الجنوب من البيض . فقد كان إقليم الكاب إلى الغرب من كى Kei لا يشغله سوى جماعات البشمن والهتنتوت . ولكن إلى الشرق من كى كانت هناك شعوب اكسوسا Xosas وتمبو Tembus وبوندو Pondos ونجونى Nguni وكلهم كانوا يمثلون أسلاف الزولو الذين تغلب عليهم البوير فى مسيرتهم الكبرى من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٤٠ . وقبل أن يطأ أى رجل أبيض بأقدامه جنوب إفريقية كان البانتو قد شغلوا فعلا تلك المناطق التى تلائم ظروفها المتاخمة النشاط الزراعى فقد ترك هؤلاء منطقة الكارو المرتفعة الجافة فى وسط الهضبة . كما هجروا كذلك المنطقة الصحراوية الواقعة إلى الغرب من المنطقة السابقة لجماعات الهتنتوت الرعوية وصيادى البشمن . وكان هؤلاء يجاورون تماماً المستعمرة الهولندية التى أقيمت فى الكاب عام ١٦٥٢ كمحطة تموين للسفن المارة بالمنطقة . ولم تبدأ هذه المستعمرة فى توسيع رقعتها قبل قرن كامل من الزمان عندما هاجموا قبائل البانتو القريبة من نهر فيش الذى يبعد حوالى خمسمائة ميل شرق كيبتاون .

وفيما عدا الكونغو وأنجولا ، كانت أهم الاتصالات وأولها بين البيض والسود قد بدأت فى إقليم الزمبيزى الأدنى . ففى هذه المنطقة حاول البرتغاليون كما سبق أن رأينا أن يسيطروا على تجارة الذهب والعاج التى كانت فى أيدى الساحل الشرقى منذ القرن العاشر على الأقل وربما قبل ذلك وحينما سيطر البرتغاليون على صوفالا فى بداية القرن السادس عشر لم يلبثوا أن اتضح لهم أن القوة والسيطرة فى داخل القـارة لجماعة تسمى فاكارانجا Vakaranga أحد فروع شعب الشونا Shona فى جنوب روديسيا والذين كان زعيمهم

يلقب باسم موينى موتايا أو كما كان يطلق عليهم البرتغاليون عادة اسم مونوماتابا Mwenemutaba وكانت عاصمة مملكة كارانجا Karanga تقع آنذاك على مسافة تبعد نحو مائة ميل تقريباً شمال سلسبورى الحالية عند أقصى الحافة الشمالية لهضبة روديسيا الجنوبية التى تنحدر إلى وادى نهر الزمبيزى بحافة شديدة الانحدار تعلو لنحو ٣٠٠٠ قدم . وعلى ذلك كانت هذه العاصمة فى القرن السادس عشر تقع على بعد بعد ٢٠٠ ميل شمال منطقة الذهب فى شرق ووسط الهضبة . كما تبعد حوالى ٣٠٠ ميل عن شمال منطقة الأطلال الحجرية التى كانت تتمثل فى أنقاض مبانى القلعة الجرانيتية فى السفوح الجنوبية للهضبة حيث تأخذ الأرض فى الانحدار التدريجى نحو الليمبوبو فى الجنوب وإلى صحراء كلهارى فى الغرب . ولقد تحركت جماعة الفاكارانجا إلى الشمال تحت قيادة أسرة مونوماتابا طمعاً فى الحصول على موارد الملح هناك فى منتصف القرن الخامس عشر . ولقد كانوا يذكرون أن منطقتهم كانت قد أقيمت فيها القرى الملكية أو ما كان يطلق عليها اسم زمبابوى Zimbabwe وشيدت مبانيها من الأحجار . وتشير الاحتمالات إلى أن أسرة مونوماتابا إنما تمثل أسلاف بناة هذه القرى الملكية المبنية من الأحجار التى أشار إلى وجودها علماء الآثار فى الفترة من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر . وعن طريق أطلال جنوب روديسيا الحجرية كانت الزمبابوى الكبرى تمثل الموقع الوحيد الذى يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى . وحتى مبانى زمبابوى كانت تشبه إلى حد كبير تلك الحصون المخروطية والأسوار الدائرية الضخمة . التى ترجع إلى تاريخ لاحق لأطلال المنطقة ربما من القرن السابع عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر .

لهذا فإن شعب المونوماتابا بعد أن زحف إلى الشمال فى اتجاه الزمبيزى قد ضم إليه مساحة ضخمة للغاية لتقع تحت نفوذهم . ثم سادوا وادى الزمبيزى لمسافة سبعمائة ميل على مجرى هذا الوادى من خانق كاريبا إلى البحر . كما سيطروا على الأجزاء الشمالية والشرقية من هضبة روديسيا الجنوبية وكذلك المناطق المنخفضة جنوب موزمبيق فيما بين الزمبيزى وليمبوبو . وكانت المنطقة

التى لم يتدعم فيها حكمهم أو التى أفلتت تماماً من قبضتهم وبسرعة هى التى تتمثل فى الإقليم الذى بدأوا منه تحركهم فى بادئ الأمر والذى يقع بين زمبابوى الكبرى وبولاوايو Bulawago ففى هذه المنطقة على الأقل فى نهاية القرن السادس‌عشر وبداية القرن السابع عشر ظهرت مملكة جديدة منافسة تسيطر عليها أسرة شانجامبر Changamire ولم يتمكن البرتغاليون من الدخول إلى هذه المنطقة فى الوقت الذى كانوا فيه على اتصال بمونوماتابا فى الشمال . والتى تطورت المبانى الحجرية فيها ليس بمجرد تجديد وامتداد للرقعة المبنية وإنما شمل هذا التطور إلى جانب ذلك بناء ذلك السور المتقن الضخم الذى أحاط بمناطق ما تندير Matendere ونالبتال Naletale ودهلودهلو Dhlo Dhlo وخامى Khami ولقد شاركت مملكةشانجامبر بالتأكيد فى التجارة مع البرتغاليين ولكن ذلك لم يكن بصورة مباشرة . فقد اشتركت فى الأسواق التى كانت تعقدها ممتلكات موتوماتابا بصفة دورية وكذلك فى ممالك لوندا حيث كان الاتصال غير المباشر بالبرتغاليين أفضل من سواه .

وكانت بداية اتصال البرتغاليين بمناطق المونوماتابا قد بدأت مع الممالك الصغيرة التابعة لها فى منطقة الظهير الأرضى لصوفالا . وليس من المؤكد تماماً أن يكون نفوذ البرتغاليين هنا قد أسهم فى قطع علاقة هذه الممالك بالدولة الأم . ولقد كان الزحف الآخر للبرتغاليين فى الأجزاء الواقعة شمال الزمبيزى حيث وجدوا أو استولوا على موانى سينا Sena وتيتى Tete النهرية من التجار العرب والسواحليين وكانت هذه الأجزاء تخضع لحكم المونوماتابا المباشر . وكان ميناء تيتى الذى وقع عام ١٥٦٠ تحت سيطرتهم لا يبعد أكثر من مسيرة أربعة أو خمسة أيام من‌العاصمة . وكانت أول إرسالية تبشيرية بعثت بها البرتغال هنا هى بعثة « جونزالودى سيلفيرا » Gonzalo de Selveira إلا أنهـا لم تلبث كثيراً أن اغتيلت بتحريض من مستشارى الملك المسلمين . وبعد سلسلة من الحملات العسكرية على هذه المنطقة والتى دامت خمسة عشر عاماً استطاعت البرتغال أن تعقد عدة معاهدات واتفاقيات مع المنطقة ، وفى بداية

القرن السابع عشر دعمت هذه المعاهدات حينما وجد المونوماتابا نفسه أمام قوة شانجامير الناهضة . وفى عام ١٦٢٩ أعلن مافورا زعيم المونوماتابا أنه وال برتغالى . وكان هذا الإعلان نذيراً بزوال دولته وأفولها . فمن جهة كانت مستعمرته فى الزمبيزى الأدنى قد أقفرت بفضل نشاط جماعة برازوس Prazos البرتغالية صاحبة امتياز جمع العبيد من المنطقة . ومن جهة أخرى كانت شانجامبرا بنموها المتزايد تمثل خطراً عليها . وفى حملة استمرت من عام ١٦٩٣ حتى عام ١٦٩٥ استطاعت مملكة شانجامبرا أن تطرد الموتوماتابا وأسيادهم البرتغاليين من الهضبة ليقيموا أسرة حاكمة فى وسط المملكة القديمة . وتركوا المونوماتابا فى جزء ضئيل من الوادى بين تيتى وزامبو يحكمون كأتباع للبرتغاليين فى نهاية القرن الثامن عشر . أما بقية تاريخ شانجابير فلم يستخلص من الروايات الشفوية بعد ، إلا أن نهاية هذه القوة الجديدة ترجع إلى فترة هجرة الزولو المحاربين من ناتال خلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر والذين سوف يأتى الحديث عنهما فى الفصل القادم .

ولم يكن البرتغاليون قد قاموا فى إفريقية – منذ نهاية القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر – بأعمال لها أهميتها فى ميدان الاستعمار الأوروبى. فقد قامت بعض بعثاتهم فقط بدور بطولى مخلصة للدين المسيحى . بينما الكثير من هذه البعثات كان يمثل مجرد جماعات دينية غير مرغوب فى بقائها فى بلادهم الأصلية . وكان أن جنوا ثماراً هائلة من وراء نشاطهم الارتجالى النفعى فى المنطقة . ولم يكن هذا بطبيعة الحال يضع الأساس الذى يوطد النفوذ الأجنبى ويؤمنه ويجعله قادراً على تغيير العادات والتقاليد المحلية . ومن الصعب القول بأن المستعمرات البرتغالية قد استفادت من شىء فى المنطقة سوى حصولها على الماديات بوفرة . ففى أنجولا مثلا عملت العناصر الإجرامية الوافدة من البرتغال على تحريض الأهالى ليحارب بعضهم بعضاً رغبة منهم فى اقتناص ما يمكن اقتناصه منهم ليرسلوه إلى البرازيل ، أما موزمبيق التى كانت تعتمد البرتغال فيها على الذهب أكثر من العبيد فلم ترق فيها دماء كثيرة وإن لم تخل

من المفاسد فى نفس الوقت، وقد كان تأثير توغلهم فى المناطق الوطنية الإفريقية ذا ضرر بالغ على المجتمعات الإفريقية التى استطاعوا أن يتصلوا مباشرة بها وعلى هذا فقد كان وجود البرتغاليين امتيازاً لفئة واتاها الحظ لتحرز تقدماً فى المنطقة فى مجال التجارة التى كانت هى الباعث الأول لها . وكان من نتائج ذلك تغير الأفكار تبعاً لتغير السلع . فلم يكن الالتقاء الوحيد الذى حدث أخيراً مقصوراً على اتصال الوطنيين الإفريقيين بالعالم الخارجى ، وإنما كان هناك اتصال آخر أهم تمثل فى التقاء الشعوب الإفريقية نفسهابعضها ببعض . وكان من أهم نتائج ورود التجارة الخارجية لهذه القارة خلال ثلاثة القرون هذه أن دخلت نباتات غذائية جديدة إليها جلبها البرتغاليون معهم من أمريكا الجنوبية . وكان هناك ثلاثة أنواع من هذه المحاصيل شكلت اختلافاً جوهرياً فى مواد الغذاء وهى الكاسافا والذرة والبطاطا خاصة فى الأقاليم الاستوائية الرطبة . ولا شك أن إقفار بعض المناطق من السكان إنما مرجعه الأول إلى تجارة الرقيق ، وإذا كانت هناك مثل هذه المناطق التى حدث فيها مثل هذا الإقفار أو النقص السكانى إلا أن هناك أجزاء أخرى فى المناطق الاستوائية زاد عدد سكانها بعد ورود هذه المحاصيل الغذائية الجديدة . ومع هذا فلا يمكن القول بأن هذه الزيادة قد عوضت النقص الذى أحدثته تجارة الرقيق .

— ١٢ —

تغير الظروف فى أوروبا

عندما كانت العلاقات التجارية بين إفريقية والعالم الخارجى مركزة حول تجارة الرقيق ، لم يكن بد أن تكون العلاقات بين القارة وبين العالم الخارجى ضئيلة وتأثرها به غير مباشر . فلم يكن ثمة حافز لتاجر الرقيق على أن يذهب بعيداً عن قلعته أو تحصيناته ويتوغل فى الداخل ، كما أن تجارته الشائنة لم تسمح لغيره بأن يتوغل فى القارة أيضاً فأضاف تاجر الرقيق إلى صعوبات البيئة المناخية وإلى ما يكتنفها من أمراض وصعوبة الأرض وقلة الإمدادات والمخاطر عاملا آخر هو عداوة المجتمعات التجارية الإفريقية التى كانت تشترى السلع الإفريقية رخيصة من الداخل ، وتبيعها مرتفعة الثمن على الساحل ، ومن ثم سرعان ما ارتابت فى أى منافس جديد ، بل لقد كان تأثير النخاسين الأوروبيين أقوى وأشد على مواطنيهم الأوروبيين الآخرين الذين حاولوا دخول القارة وإنشاء علاقات أخرى مع الإفريقيين . ولقد كانت تجارة الرقيق وفيرة الربح وفرة قضت على أى محاولة لإنشاء علاقات تجارية من نوع آخر مع القارة . وأكثر من هذا ، فإن تجارة الرقيق كانت من الخسة والدناءة بحيث ثبطت همة أى شخص آخر فى القيام بأى نشاط تجارى ولقد شعر تجار الرقيق أنفسهم بهذه الخسة ، وذلك قبل أن يستيقظ الضمير المسيحى نفسه بإدانتها . فلقد تأسست الإرسالية المسيحية فى المستعمرات البرتغالية الأولى تحت حماية المستعمرين ، وبذلت الحكومة البرتغالية جهدها فى منع البابا من إرسال بعثات تبشيرية دون أن تكون تحت سيطرة وإشراف المستعمرات ،

ومن ثم لم يكن من الممكن أن تنشأ علاقات جديدة بين أوروبا وإفريقية قبل أن تحرز حملات محاربة الرقيق نجاحاً حاسماً في أوربا .

وقد انتكست تجارة الرقيق فى بريطانيا بادئ الأمر ، وربما كان ذلك عائداً إلى أنها كانت فى غير صالح التجارة البريطانية عامة ، ولقد كانت جزر الهند الغربية المنتجة للسكر تسمى أغلى جوهرة فى التاج البريطانى فى منتصف القرن الثامن عشر ، ولو أن زراع قصب السكر اقتصر نشاطهم على جزر البحر الكاريبى ، لاستمرت تجارة الرقيق مدة أطول ، إلا أنهم كانوا يصطحبون معهم — عند عودتهم إلى وطنهم — الرقيق الذى كان يخدمهم فى المنازل ، مما جعلهم هدفاً سهلا أمام المصلحين المسيحيين . وبرغم أن هؤلاء الزراع حاولوا إثبات ملكيتهم للرقيق ، إلا أن القضاء الإنجليزى أصدر أحكامه ضدهم وأعلن أنه لا يوجد شىء اسمه الرق فى القانون الإنجليزى . وقد أصدر لورد مانسفيلد أول حكم له عام ١٧٧٢ فى قضية — كانت بمثابة تجربة وسابقة — أقامتها مجموعة صغيرة تكونت أساساً من بعض المسيحيين الإنجيليين ، لتشن حملة لا هوادة فيها على تجارة الرقيق البريطانية ، كما حالفها التوفيق أيضاً بعد ذلك فى حملتها ضد تجارة الرقيق فى الممتلكات البريطانية وراء البحار . ثم امتدت الحملة داخل البرلمان حتى أصدر قانوناً سنة ١٨٠٧ يحرم فيه تجارة الرقيق على الرعايا البريطانيين ، وأتبعه بعد مضى أربع سنوات بقانون آخر يفرض عقوبات صارمة على أى شخص بريطانى يستمر فى هذه التجارة الشائنة . ومن ثم نستطيع أن نقول إن البريطانيين أبطلوا تجارة الرقيق منذ عام ١٨١١ . وأفضل ما يصور تشعب تجارة الرقيق هو محاربة بريطانيا لهذه التجارة بعد أن حرمتها على رعاياها . فهى لم تقدم على هذا حباً فى الإنسانية أو ادعاء للخلق الفاضل ، ولكنها أقدمت عليه على أسس تجارية صرفة . إذ لم يكن من المستطاع البدء فى أى نشاط تجارى عادى بين أوروبا وإفريقية قبل القضاء نهائياً على تجارة الرقيق ، لأنها كانت أسهل وأوفر ربحاً من التجارة العادية ، ولذلك كان من الضرورى أن تتضافر الدول جميعاً

فى القضاء عليها حتى تفسح المجال للتجارة العادية . وقد سبق الدنماركيون بريطانيا فى إلغاء تجارة الرقيق بثلاث سنوات ، وألغتها الولايات المتحدة سنة ١٨٠٨ ، كما حرمتها هولندا عام ١٨١٤ وتبعتها بقية الدول البحرية ـ تحت تأثير بريطانيا ـ برغم أن البرتغال وأسبانيا (حيث لم تصبح تلك التجارة شرعية إلا عام ١٧٩٨) قصرتها بادئ الأمر على بحار نصف الكرة الجنوبى .

ولم تحل سنة ١٨٤٢ حتى كانت تلك التجارة عملياً نشاطاً غير مشروع عبر المحيط الأطلنطى وذلك بالنسبة لمعظم الدول الأوروبية والأمريكية . إلا أن هذا لم يعن توقف النخاسة نهائياً . ولقد وقع العبء الأكبر أولا على الأسطول البريطانى كى يفرض قانون تحريم النخاسة ، ثم بدأت كل من فرنسا والولايات المتحدة منذ الأربعينات فى القرن الماضى فى محاربة تجارة الرقيق . ثم دخلت بريطانيا فى جهود دبلوماسية لتقنع الدول الأخرى بتخويل سفن الأسطول البريطانى حق تفتيش السفن بحثاً عن الرقيق ، غير أن هذه الحملة جوبهت بعداء سافر ، فبرغم أن البرتغال الصغيرة خضعت لمطالب بريطانيا فى هذا الصدد ، إلا أن فرنسا والولايات المتحدة وهما من أعداء بريطانيا البحريين ، رفضت منح بريطانيا هذا الحق ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فبينما كانت تجارة الرقيق تحتضر فى مستعمرات السكر البريطانية ، وفى جزر الهند الغربية الفرنسية ، فإن مصالح الزراع كانت تعتمد على يد الرقيق فى أراضى كوبا والبرازيل والولايات المتحدة العذراء ، التى كانت فى أمس الحاجة ليد عاملة فى حقول القطن وقصب السكر .

وطالما كانت هناك أرباح تنتظر تجار الرقيق فى الأمريكتين ، فلا بد من وجود من يتحدى قوانين بلادهم ودوريات الأسطول البريطانى ، وما أن أحرزت بريطانيا شيئاً من النجاح فى حملتها ضد الرقيق فى أربعينات القرن الماضى ، حتى كان أمامها مهمة أخرى ، وهى إقناع أو إجبار الحكام الإفريقيين على الإقلاع عن هذه التجارة فى أراضيهم . وقد كانت فرنسا تحذو حذو بريطانيا من حين إلى آخر فى هذا ، إلا أن محاربة الرقيق كانت

عملا بريطانياً فى أغلب الأحيان ، ومن ثم نشأت علاقات جديدة بين أوروبا وإفريقية . فلقد نشأت التجارة المشروعة فى ظل الدوريات البحرية ، كما نشأت فى حماية القناصل الذين أخذوا على عاتقهم إقناع الحكام الإفريقيين بمحاربة تجارة الرقيق والدخول فى عمليات تجارية شريفة (غير النخاسة) ، وكانت النتيجة لهذا كله أن تجارة الرقيق لم يقض عليها عامل واحد ، بل قضى عليها توقف الطلب على الرقيق من جانب الأطلنطى الآخر . وذلك عندما انتصرت الولايات المتحدة الشمالية على الولايات الجنوبية ، وعندما ألغت كل من البرازيل وكوبا نظام الرق فى الثمانينات من القرن الماضى .

وقد ظلت حركة محاربة الرقيق فى بريطانيا مرتبطة بالحماس الدينى الذى صبغ مؤسسى الحركة . ولقد ظل المسيحيون البروتستانت بعيدين فترة طويلة عن الاعتراف بصعوبة التبشير برسالتهم لكل نفس بشرية . ولقد ظلت كل فرقة مسيحية جديدة مشغولة خلال القرون الثلاثة الأولى لنشأتها بمشكلة وجودها ذاتها . وقد اجتاحت فى القرن الثامن عشر دوائر الكنائس اللوثرية والكلفينية التقية الموجودة فى أوروبا الشمالية موجة من الرغبة القوية لا تجاريها سوى رغبة المسيحيين الأوائل نحو نشر المسيحية فى العالم غير المسيحى . وكان من العلامات المبكرة لذلك نشأت فرقة لوثرية عام ١٧٢٢ أطلق عليها اسم الإخوة المورافيين ، وكان كل منهم يعتبر نفسه رسولا لهداية الوثنيين . وفى إنجلترا قامت طائفة المعمدين بتأسيس جمعية التبشير عام ١٧٩٢ وهدفها التبشير بالمسيحية فى الهند أولا . وتلا ذلك إنشاء جمعية لندن للتبشير على يد جماعة الموحدين ، وحددت لها المحيط الهادى وجنوب إفريقية ميداناً لنشاطها ووجدت الكنيسة الإنجيلية مجالا لنشاطها التبشيرى فى جمعية نشر الإنجيل التى كانت تهتم بالمهاجرين عبر البحار ، كما أسست جمعيات تبشيرية فى العالم غير المسيحى وخصوصاً جنوب إفريقية . ويضاف إلى هذا تأسيس جمعية التبشير الكنسية تحت إشراف الكنيسة الإنجيلية . وهذه قامت بعد ذلك بأعمال هامة فى شرق إفريقية وغربها . وقد شهد القرن التاسع عشر تأسيس جمعيات تبشيرية بروتستانتية عديدة

وأهمها بالنسبة لإفريقية جمعية المثودست التبشيرية ، بإرسالياتها فى غرب إفريقية وجنوبها ، وجمعية بال بإرسالياتها فى غرب إفريقية ، وجمعية برلين بإرسالياتها فى جنوب إفريقية ، ثم فى شرق إفريقية وإرساليات الجامعات ، وجمعية إنجيلية تالية وميدانها وسط شرق إفريقية وإرساليات البرسبيتارية الأسكتلندية فى جنوب إفريقية وغربها وشرقها .

ولم يكن التبشير بالمسيحية غريباً بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية ، غير أن النشاط التبشيرى فى آسيا وإفريقية والأمريكتين كان مقصوراً إلى حد كبير على جهود رجال الكنيسة البرتغاليين والأسبان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ثم تدهور هذا النشاط فى القرن الثامن عشر مع تدهور الدولتين الأيبيريتين . وقد حاول البابا أن يركز النشاط التبشيرى عام ١٦٣٢ فى روما وحدها ، وذلك بإنشاء المجمع المقدس للتبشير ، ولكن نظراً لأن مصالح كل من أسبانيا والبرتغال كانت تتعارض مع قوانين الكنيسة ، ولأن هذه المصالح كانت أسبق من أى تفكير كنسى للتبشير بقرنين على الأقل ، فإن هذا التركيز لم يتم ، وقد بدأت أهم حركات التبشير الكاثوليكى فى فرنسا ، وأما بالنسبة لإفريقية فقد كان أهم عمل تبشيرى هو إعادة إنشاء مجمع روح القدس عام ١٨٤٨ وكان مجال نشاط أعضائه فى غرب إفريقية والجابون والكونغو الأسفل وجنوب غرب إفريقية والمناطق الساحلية فى شرق إفريقية . ثم أنشأ الفرنسيون أيضاً جمعية سيدة إفريقية عام ١٨٦٨ وتعرف هذه بجمعية الآباء البيض . وكان مركز هؤلاء الجزائر ، ومنها أخذوا على عاتقهم نشر الإرساليات فى جميع أنحاء القارة ، وسطها وغربها حتى البحيرات العظمى ، ومن أوغندا شمالا حتى روديسيا الشمالية جنوباً وقد أخذت هذه الجمعية الإرسالية — من رجال ونساء — صبغة دولية وضمت إليها الفرق الكاثوليكية المختلفة ، البندكت ، والفرنسسكان ، والدومنكان ، والجزويت كما ضمت إليها جمعيات أحدث مثل جمعية القول القدس ومل هل والقديس يوسف .

وإن عناء تأسيس جمعية تبشيرية كبيرة ليفوق عناء تأسيس مؤسسة

حكومية أو شركة تجارية كبرى ، فلا بد من البحث عن متطوعين وتدريبهم سنوات عديدة ولا بد من تنمية مصادر مالية تأتى أساساً من تجمعات الأتقياء فى أماكن العبادة . ولا بد من التغلب على العقبات التى تصادف القائمين بأمر الجمعية ، ولا سيما من النكسات الأولى التى تصاب بها البعثات الأولى فى أماكن مجهولة تحتاج لمغامرة . ولقد ظلت البعثات التبشيرية إلى إفريقية تتعثر حتى وقفت على أقدامها فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولم ترسخ قواعدها وتنتشر انتشاراً جغرافياً محسوساً إلا فى السبعينات فى القرن الماضى إلا أن وجود هذه الحركات التبشيرية ونموها من المرحلة الأولى منذ نهاية القرن الثامن عشر كانت عاملا هاماً فى العلاقات بين أوروبا وإفريقية . فلم تستطع شعوب أوروبا ومن بعدها شعوب أمريكا أن تحدث أى تأثير فى شعوب إفريقية إلا عن طريق جهود ممثليها من رجال الإرساليات التبشيرية التى ربما لم تكن أقل قيمة من جهود رجالها الرسميين . ولم تقتصر جهود الإرساليات على دائرة النشاط الاستعمارى الضيقة التى حصر فيها رجال الحكومات الرسميين أنفسهم .

ولم تكن هذه المؤثرات سواء كانت تبشيرية أو تجارية لتثمر أو لتلعب دوراً مباشراً أو قوياً على المسرح الإفريقى قبل أن تنزاح غشاوة الجهل بالقارة الإفريقية عن أعين العالم الخارجى ، إذ لم تكن إفريقية بالنسبة لأوروبا فى القرن الثامن عشر أكثر من خط ساحلى لا يمثل الداخل تمثيلا صحيحاً . فشمال إفريقية كان جزءاً من العالم الإسلامى الذى كان لا يزال موصداً تقريباً فى وجه الغرب . ولم تصل أوروبا فى ذلك الحين معلومات كافية عن دول البربر التى كانت تعرف ببلاد القراصنة إلا عن طريق الأسرى المسيحيين الذين حالفهم الحظ واستطاعوا الفكاك من أسرهم والعودة إلى أوروبا . كما سافر عدد قليل من الأوروبيين متنكرين فى زى العرب صاعدين فى النيل من القاهرة . وقد استطاع واحد منهم أو اثنان — مثل جيمس بروس الأسكتلندى المتوغل حتى غوندار العاصمة الأثيوبية أو إلى سنار عاصمة مملكة الفونج على

النيل الأزرق . أما عن الأنهار الإفريقية الكبرى الأخرى ، فقد كان الزمبيزى معروفاً حتى مسافة سبعمائة ميل من مصبه ، ولم يعرف من الكونغو إلا مسافة تقل عن مائة ميل من مصبه . ولم يكن هناك أوروبى قد رأى النيجر بعد ، إذ أن مصبه نفسه كان مجهولا لهم . وقد ساير الأوروبيون الخطأ الذى وقع فيه ليون الإفريقى فى القرن السادس عشر وظنوا أنه يتجه من الشرق إلى الغرب . ولم يكن معروفاً من المجتمعات الإفريقية سوى سكان أقاليم الغابات فى غرب إفريقية ووسطها الغربى . وبرغم ما كتبه ليون الإفريقى، وبرغم محاولات الفرنسيين القليلة فى التوغل فى السنغال فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، فإن الأوروبيين فى ذلك الحين لم يتصوروا وجود إقليم مكشوف وراء الغابات الاستوائية شمالا حيث تعيش مجتمعات من الفلاحين تزرع الحبوب وترعى الماشية ، وحيث سكان المدن المسلمون يشتغلون بالتجارة وينقلون سلعهم المصنوعة فوق ظهور الإبل إلى مصر وبلاد المغرب . ولم يكن من المقصود مطلقاً أن توجد هضاب مرتفعة فى وسط إفريقية إلى الشرق من نطاق الغابات الاستوائية ترتفع ٤٠٠٠ — ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر — على طول المسافة بين الحبشة والكاب .

وقد كانت حركة الكشف الأوروبى لداخل إفريقية مظهراً آخر من مظاهر الحركة الإنسانية التى كانت تشن هجوماً شديداً على تجارة الرقيق والتى كانت تحاول أن تضع المسيحيين والتجارة المشروعة فى مكانها الصحيح . وقد بدأت الحركة الجغرافية قبل نهاية القرن الثامن عشر مباشرة واحتاجت لنحو خمس وسبعين أو ثمانين سنة لكى تضع أسس المعرفة الجغرافية بالقارة : وبدأت المحاولات الأولى لذلك من الشمال والغرب تحت رعاية جمعية اكتشاف الأجزاء الداخلية لإفريقية ، وهى جماعة صغيرة من أثرياء الإنجليز تدفعهم عوامل علمية أساساً ، وتدفع بعضهم عواطف إنسانية . فالجمعية الإفريقية هى التى مولت أولى رحلات مانجوبارك ١٧٩٥ — ١٧٩٧ نحو أعالى النيجر وكان تأثير بعض أعضاء هذه الجمعية مثل سير جوزيف بانكس

وسير جون بار ، بصفة خاصة هو الذى نجح فى إقناع الحكومة البريطانية بضرورة تمويل رحلات الكشف الإفريقى وبأهميتها . وقد استطاع بارك العودة إلى إفريقية بعد أن تكفلت الحكومة البريطانية بدفع نفقات رحلاته ، وبذلك استطاع أن يبحر فى معظم أجزاء نهر النيجر عام ١٨٠٥ – ١٨٠٦ ، كما أن الحكومة البريطانية مولت رحلات دينهام وكلابرتون اللذين اكتشفا بورنو وبلاد الهاوسا ، بعد أن عبرا الصحراء الكبرى من طرابلس خلال أعوام ١٨٢٣ – ١٨٢٥ ، كما أن معاونة هذه الحكومة المالية هى التى ساعدت الأخوة لاندر فى عبور النيجر الأسفل حتى البحر عام ١٨٣٠ ، وهى التى عاونت المكتشف الألمانى الكبير هنريك بارت فى القيام برحلاته العديدة فى السودان الغربى والأوسط خلال ١٨٥٠ – ١٨٥٥ .

ولم يسهم الفرنسيون إلا بقدر ضئيل يدعو إلى الدهشة فى الكشف الجغرافى الإفريقى حتى فجر توسعهم الاستعمارى فى السبعينات من القرن الماضى ، وذلك القدر يتلخص فى انغماسهم السابق فى مطاردة تجار الرقيق وتوغلهم فى نهر السنغال ، فلم يكن لديهم سوى رحـــلة رينيه كاليبه René Caillié الكبرى من ريو نونيز حتى تمبكتو ثم عبر الصحراء الكبرى حتى طنجه من ١٨٢٧ – ١٨٢٨ ، وهى رحلة يمكن أن تقارن برحلات بارك وكلابرتون ، وكانت رحلة فرد واحد قام بها على نفقته ولم تسهم فيها الحكومة . ومن الجدير بالتسجيل – فى ضوء تطورات الحوادث بعد ١٨٨٣ – رحلات الرحالة المتحدثين بالألمانية التى لم تكن غير ذات قيمة وجهودهم فى كشف إفريقية وارتيادها كمكتشفين ورجال إرساليات تبشيرية ، برغم أن بعضها مثل رحلات بارت كانت تحت رعاية الحكومة البريطانية . ولم تقتصر رحلات الألمان الأولى على غرب إفريقية فقط . وكان الرائدان الألمانيـــان فى مجال التبشير والكشف الجغرافى لداخلية إفريقية عضوين فى جمعية إرساليات الكنيسة ، كراب Krapf وربمان Rebmann وكانا أول أوروبيين يشاهدان قمم كلمنيارو وكينيا المجللة بالثلوج : وقام

مناطق كانت معروفة قبل سنة ١٧٩٠

مناطق اكتشفت فيما بين ١٧٩٠ – ١٨٥٧

» » » ١٨٥٧ – ١٨٧٢

» » » ١٨٧٣ – ١٩٠٠

لم يعرفها الأوربيون قبل ١٩٠٠

المشرنوبي

الكشوف الأوربيه

(شكل ١١)

جرهارد رولفس Gerhard Rohlfs فيما بين ١٨٦٢ — ١٨٦٩ برحلات واسعة النطاق فى الصحراء الكبرى الغربية ، ثم استأنف عمله بعد ذلك رحالة ألمان آخرون ولا سيما جوستافه ناختجال G. Nachtigal الذى اكتشف السودان فيما بين بحيرة تشاد ونهر النيل خلال أعوام ١٨٧٠ — ١٨٧٤ وكارل ماوخ Karl Mauch كان أول أوروبى فى الأزمنة الحديثة يكتشف منطقة مونوموتابا القديمة وكانت طائفة الإخوة المورافيين أول من وصل من البعثات التبشيرية البروتستانتية الرائدة إلى إفريقية ، فقد وصلت إلى رأس الكاب عام ١٧٩٢ وكانت بعثة بال التبشيرية أول من وصلت إلى ساحل الذهب سنة ١٨٢٨ ثم تبعتها بعثة برمن عام ١٨٤٧ ، وهو العام الذى شهد أول بعثة تبشيرية أيضاً فى جنوب غرب إفريقية ممثلة فى بعثة الراين .

ويمكن أن نقول بوجه عام إن اهتمام أوروبا بكشف جنوب إفريقية وشرقها لم يبدأ إلا بعد أن اقتربت مشكلات غرب إفريقية الجغرافية من الحل وإن البريطانيين هم الذين بدأوا ذلك الاهتمام . ومما له دلالة خاصة أنه برغم وجود حدود للمستعمرين فى جنوب إفريقية ، فإن المبشرين كانوا أكثر إيغالا نحو الشمال ، فى كل مرحلة من مراحل كشف القادة فى القرن التاسع عشر ، ولقد كان دافيد لفنجستون المبشر هو الذى وصل عام ١٨٥٣ — ١٩٥٦ من الجنوب عبر شلالات فكتوريا ثم غرباً إلى لواندا وشرقاً مرة أخرى ، إلى مصب الزمبيزى ، وقد نشر لفنجستون نتائج رحلاته تحت عنوان « أسفار مبشر وبحوثه » كما كان مبشر آخر هو الذى أثار حماس إنجلترا الفكتورية لفتح هذا الجزء من القارة الإفريقية للتجارة المسيحية التى يمكن أن تخلص سكانها من الجهل والجوع والمرض كما تخلصهم من جشع تجار الرقيق القادمين من الساحل الشرقى . ثم تحولت الجمعية الإفريقية فى ذلك الوقت إلى الجمعية الجغرافية الملكية ذات الصيت الواسع النفوذ ، بعد أن أعانتها الحكومة وتولى رياستها من استطاع أن يصل بسهولة إلى الوزراء ومصالح الحكومة المختلفة . ولقد كانت الجمعية الجغرافية الملكية هى التى

أرسلت برتون وسبيك إلى بحيرة تنجانيقا سنة ١٩٥٨ ، وسبيك وجرانت إلى بحيرة فكتوريا وأعالى النيل ١٨٦٢ — ١٨٦٤ . وكان نفوذ الجمعية هو الذى منح لفنجستون رتبة القنصل ونفقات رحلاته فى نهر الزمبيزى ١٨٥٩ — ١٨٦١ التى تم خلالها كشف بحيرة نياسا . أما رحلات لفنجستون الأخيرة التى استغرقت ست سنوات من ١٨٦٧ — ١٨٧٣ ومعظمها حول المنابع العليا لنهر الكونغو فقد قام بها على نفقته الخاصة ولقد جعلته كتبه التى نشر فيها رحلاته رجلا ثرياً كما منحته شهرة واسعة جعلت أحد أصحاب الصحف الأمريكية يبدأ حرباً صحفية صغيرة ، عندما أرسل ستانلى كمكتشف إفريقى فى رحلة يبحث فيها عن لفنجستون ، وكانت حملة ستانلى الشهيرة خاتمة هذه الحرب الفريدة فى هذا الآن ، عندما قال « دكتور لفنجستون ، على ما أظن » .

وكانت رحلة ستانلى الإفريقية الثانية التى عبر خلالها القارة من زنجبار حتى مصب الكونغو علامة تحول فى تاريخ الكشف الإفريقى ، حيث أنه دخل ضمن برامج الضم السياسى لأجزاء إفريقية . فعندما عاد ستانلى إلى أوروبا ، استقبله فى ميناء مارسيليا ممثل للملك ليوبولد ملك البلجيك — وسنرى نتائج تلك المقابلة فى الفصل القادم — وقد كانت الكشوف الجغرافية حتى ذلك الحين شيئاً يقع — إذا استخدمنا تعبيرات منتصف القرن العشرين — بين مشكلة اللاجئين الدولية وغزو الفضاء ، فكان الكشف الجغرافى لإفريقية مجالا لأعمال البطولة ليس فى بريطانيا وحدها فحسب ، بل فى كل أنحاء أوروبا وأمريكا كذلك . غير أنها كانت بطولة مصطبغة بصبغة إنسانية عميقة ، لأن كلا من المكتشف والجمهور كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الغرض من الكشف كان استنقاذ الشعوب الزنجية والأخذ بيدها ودفعها فى تيار الإنسانية التقدمى . ولم يكن من المتصور خلال ذلك العصر الكلاسيكى من الكشف الجغرافى أن الغرض من هذه الرحلات الكشفية هو الضم السياسى واكتساب القوة السياسية . فقد كان العصر يمتاز بالمرونة ، « ودع الأمور تسير » ،

وكان الاعتقاد السائد هو أن العقيدة المسيحية وميل الإنسان الطبيعى نحو التبادل التجارى والحركة كفيلة بأن تمنح المكتشف الحافز الكافى لرحلاته . وكان هدف الإرساليات التبشيرية تعليم الإفريقيين تغطية عريهم من ناحية وإطاعة القانون الأخلاقى من ناحية أخرى . وكان على التجار أن يجدوا الوسيلة ليسدوا حاجة الإفريقيين الأولية ، ممثلة فى بالات الأنسجة التى تنتجها لانكشير التى يمكن أن تتبادل مع المنتجات الأولية الإفريقية التى يقوم بإنتاجها فلاحون إفريقيون مكافحون مجدون مسيحيون . وقد تتحد القبائل فى اتحادات كبرى لصالح التجارة وتقدمها ومن ثم تولد الأمم الإفريقية المستقبلة .

وربما كانت الحكومات – بحكمتها – أقل انخداعاً من الجمهور فهى كانت على علم بأن تجارة زيت النخيل فى غرب إفريقية لن تتغلب على تجارة الرقيق إلا بمعونة السفن الحربية ، وكانت الحكومات تعلم أنه لا يوجد توافق فريد بين إقليم الإنتاج الزراعى وشبكة الطرق المائية الطبيعية التى تحمل ذلك الإنتاج إلى الساحل إلا فى شرق نيجيريا . وعلمت الحكومات أيضاً أن حيوانات النقل تنفق إذا دخلت معظم أجزاء إفريقية خلال بضعة أسابيع ، وأن فتح إفريقية للتجارة حقيقة يجب أن ينتظر مد السكك الحديدية بها ، غير أن الحكومات قبل منتصف السبعينات من القرن الماضى لم تكن على استعداد مطلقاً أن تصل بهذه الأمور إلى نتائجها المنطقية لأنها لم تكن تريد أن تدخل فى صراع من أجل التوسع الاستعمارى فى إفريقية فى ذلك الحين . وكان الرأى العام الأوروبى كله ضد هذا التوسع ، ولم يكن فى إفريقية من الموارد الطبيعية ما يغرى بالقيام بهذا . كما أن عيون الدول الأوروبية كانت ترمق بعضها بعضاً ، حتى فى المسرح الإفريقى . فقنعت كل منها بمناطق نفوذ واسعة ومتداخلة وغير رسمية . ولم يختلف الموقف فى الحقيقة كثيراً عنه فى القرن الثامن عشر . فقد بدأت أوروبا تهتم اهتماماً خاصاً بإفريقية ، وبدأت إفريقية تتغير تحت تأثيرها ، إلا أن أوروبا لم تكن قد بدأت بعد فى امتشاق الحسام الإمبراطورى ، ومن ثم فلم يكن تاريخ إفريقية خلال ثلاثة أرباع القرن الماضى هو تاريخ أوروبا فى إفريقية تماماً .

— ١٣ —

القرن التاسع عشر

شمال أفريقية وغربها

بدأت حالة التوازن القلقة بين شمال إفريقية الإسلامى وأوربا المسيحية التى استطاعت أن تعمر منذ القرون الوسطى فى الاتجاه صوب أوروبا فرجحت كفتها رجحاناً حاسما قرب نهاية القرن الثامن عشر . وبينما كان السبب فى هذا هو ازدياد قوة أوروبا الغربية المادية ، بالقياس إلى ركود العالم الإسلامى نسبياً منذ القرن الخامس عشر فإن جزءاً من أسباب تفوق أوروبا يرجع إلى اهتمامها بشق طريق مباشر بينها وبين آسيا عن طريق الساحل السورى . فلقد اتجهت طاقة أوروبا الاستعمارية والتجارية المتزايدة على حذاء المثال البرتغالى والأسبانى نحو المحيط الأطلنطى . ولكن خلال الحرب الكبرى بين ١٧٩٣ — ١٨١٥ ، اتجهت نتيجة الصراع العالمى بين قوى بريطانيا وفرنسا على السيادة البحرية ، نحو ترجيح كفة بريطانيا ، مما دعا الفرنسيين إلى الاتجاه نحو الطريق القديم إلى آسيا عبر مصر . وقد استطاع الأسطول البريطانى أن يجمد الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ (كما جمدت الأمانى الفرنسية فيما بعد فى منطقة عمان والخليج الفارسى وشرق إفريقية) ، غير أن بريطانيا وجدت من الحنكة السياسية أن تعيد مصر إلى الحكم العثمانى الاسمى . ولم يكن النظام المملوكى المنتمى إلى العصور الوسطى والمتسم بالفوضى بقادر على أن يقف فى مواجهة الأسلحة الحديثة ، ولذلك فإنه برغم التدخل البريطانى استطاعت قوة ألبانية من الجيش العثمانى بقيادة محمد على من أن تسيطر على مصر عام ١٨١١ .

ولقد كان محمد على رجلا على جانب ملحوظ من المقدرة والطموح والبصيرة وعندما سلم مقاليد الحكم وهو فى الخامسة والسبعين من عمره إلى ولده ومساعده إبراهيم كان قد سار شوطاً بعيداً نحو تحويل مصر من ولاية عثمانية متأخرة من ولايات العصور الوسطى إلى دولة مستقلة حديثة . وكان أقل نجاحاً فى سياسته الخارجية . وقد أحبطت الدبلوماسية الأوروبية عامة والبريطانية خاصة التى فضلت أن يكون الطريق نحو الهند تحت النفوذ التركى الضعيف جهود إبراهيم الناجحة فى سوريا نحو تأمين استقلال مصر التام عن القسطنطينية واسترجاع إمبراطوريتها السابقة التقليدية . ومن ثم ظلت مصر — سياسياً — جزءاً من الإمبراطورية التركية ، ولم يستطع محمد على سوى الحصول على اعتراف باستقلال مصر استقلالا داخلياً تحت حكمه المورث فى خلفائه من بعده (الذين حصلوا عام ١٨٦٧ على لقب خديو) . وبرغم هذا فلقد استطاعت مصر فتح السودان وتحولت السيادة التركية على موانئ البحر الأحمر إلى يد المصريين القوية . أما داخل مصر نفسها فقد تحولت نظم الرى وملكية الأراضى والضرائب والإدارة تغيراً شاملا وأدخلت محاصيل القطن والنيلة وقصب السكر للتصدير واحتكرتها الدولة . وكانت مصالح التجار الأوروبيين فى حماية محاكم جديدة غير إسلامية واستدعى الخبراء الأوروبيون للقيام بالإصلاحات الضرورية فى ميادين الصحة والتربية وفوق ذلك لتدريب الجيش المصرى الجديد . ولقد كان نظام محمد على فردياً خالصاً غير أن تخلصه من الفرق الألبانية (التى سرعان ما ظهرت غيرتها وخيانتها) واستبداله بهم مجندين من الفلاحين المصريين قد وضع بذور القومية المصرية التى نمت فيما بعد وما أن وصل الضباط المصريون إلى مناصب القيادة حتى أصبحت القوة الحقيقية فى مصر فى أيد مصرية وهو شىء لم تعرفه البلاد منذ ألفى عام .

غير أن مستقبل مصر اعتمد بعد ذلك مباشرة على طبائع حكامها الشخصية ولم يكن من بين خلفاء محمد على من يضاهيه حنكة وقوة وعزماً . فسمح للتجار الأجانب والمغامرين والباحثين عن الثروة والمرابين أن ينهبوا الاقتصاد

الجديد فاستطاع البريطانيون أن يحصلوا على موطئ قدم فى الخمسينات من القرن الماضى بإنشائهم خط السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة ثم السويس ، وكان اهتمامهم منصباً على تيسير البريد والمبعوثين بسرعة إلى الهند . ومنح قنصل فرنسى سابق هو دى لسبس عام ١٨٥٤ امتياز شق وإدارة قناة السويس وهذه تمت عام ١٨٦٩ برغم العوائق الدبلوماسية والمالية العديدة التى وضعتها بريطانيا فى وجه المشروع ، ولم يكن لدى بريطانيا بعد النظر الكافى لترى أن السفن التجارية الجديدة ستتفوق — بعبورها القناة — على الطريق الطويل القديم حول الكاب إلى الهند — وظنت خاطئة أن فرنسا وحدها هى التى ستستفيد من القناة . وكان ثمن القناة بالنسبة لمصر فادحاً . فشروط عقد الامتياز أوقع بمصر خسارة كبرى فى الأرواح والأراضى والدخل بينما أصبح استقلال مصر (كما رأى محمد على بثاقب فكره من قبل عندما رفض المشروع) تحت رحمة القوى الحربية الأوروبية التى أصبحت أكثر الدول إفادة من استعمال القناة . وتحققت كل تلك المخاوف عام ١٨٧٩ عندما أفلست الحكومة المصرية ، نتيجة سياسة إسماعيل الحمقاء الذى رهن دخل الدولة ضماناً للقروض الأجنبية (التى وضعت شروطها فى صالح الرأسماليين الأجانب وعملائهم فى مصر فقط) وقد أنفقت تلك القروض على مشروعات رائعة المظهر ولكنها غير إنتاجية ترمى إلى تمدين البلاد . ثم لجأت القوى الأوروبية إلى تركيا لعزل الخديو وتسلمت بريطانيا وفرنسا إدارة مالية البلاد وحكومتها .

وقد أدى طموح فرنسا فى مصر بين ١٧٩٨ — ١٨٠١ ثم استقلال محمد على بحكم مصر إلى سلسلة من النتائج فى ساحل شمال إفريقية ففى عام ١٨٣٠ استطاعت قوة فرنسية من احتلال الجزائر دون أن يوجد ثمة أسطول بريطانى يعرقل جهودها ، وبجهود حكومة تواقة لمشروعات توسعية تكفى معارضة داخلية . ولم تجد فرنسا ذريعة تتذرع بها سوى الرغبة فى القضاء نهائياً على عمليات القرصنة التى كانت آثارها لا تزال موجودة بين ١٧٩٣ — ١٨١٥

عندما كانت الأساطيل الأوروبية فى صراع مستمر بعضها ضد البعض الآخر : وكانت الجزائر أضعف الدول المغربية التى كانت تشتغل بالقرصنة . وقد سارعت تركيا وقد ملأها الخوف من مشروعات محمد على الاستقلالية فى مصر واحتلال الفرنسين للجزائر باستعادة نفوذها على طرابلس عام ١٨٣٥ — ١٨٣٦ ولم يبعد الترك عن تونس سوى مناورات الأسطول الفرنسى .

وقد فهم بايات تونس بسرعة أهمية هذه الأحداث ، فاتخذوا الخطوات اللازمة نحو تجريم القرصنة وساروا خطوات نحو تغريب الإدارة ، بل لقد كانوا عام ١٩٥٧ أول حكام مسلمين يمنحون رعاياهم دستوراً . ولو أن البرنامج الحسينى لتمدين تونس لم يثقله الإسراف ، مثلما أثقلت الحكومة المصرية فى ذلك الحين ، لكان من الممكن أن تتمتع تونس باستقلالها فترة أطول ، غير أن الارتباكات المالية التى وقعت فيها حكومة الباى أعطت فرنسا فرصتها كى تعلن الحماية على تونس سنة ١٨٨١ . أما استقلال مراكش فقد ظل سليما حتى القرن العشرين ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى جهود الحكومة المراكشية إذ أن الخلافات القبلية كانت تمزقها منذ أيام السعديين المجيدة ، ولكن ذلك كان بسبب التنافس الاستعمارى الأوروبى . فلقد كان موقعها الجغرافى على باب البحر المتوسط من الأهمية بحيث لم تجرؤ أى من بريطانيا أو فرنسا أو أسبانيا الغربية على التدخل فى الأمور المراكشية خوفاً من إثارة بقية الدول .

وقد اقتصر التدخل الأوروبى المباشر فى شئون شمال إفريقية خلال القرن التاسع عشر على نشاط فرنسا فى الجزائر . غير أنه بينما كان من السهل على الفرنسيين الاستيلاء على مدينة الجزائر وعلى شخص الباى ، ثم احتلال عدد من الموانئ الهامة ، فإنه لم يكن من السهل الوصول إلى سياسة محددة وتطبيقها : فلم تكن هناك حكومة فرنسية مستعدة للتفريط فى أرض فتحها الجيش الفرنسى وأصبحت المشكلة هى إلى أى حد تسير الحكومة فى إخضاع القبائل العربية والبربرية فى الداخل . ولقد أظهرت هذه القبائل عداءها للمحتلين عندما

أعلنت الجهاد عام ١٨٣٢ تحت قيادة الأمير عبد القادر ابن أحد المرابطين (رجال الدين) وقد بينت هجمات القبائل على الجيش الفرنسى استحالة تقدمه نحو الداخل . وقد اتبع الجنرال بوجو Bugeaud سياسة صارمة فى اقتلاع القبائل من أماكنها بالقوة ووضع مستعمرين أوروبيين محلهم، غير أن ذلك لم يكن حلا معقولا للمشكلة الاستعمارية ، إذ لم يكن من الميسور طرد جميع العرب والبربر نحو الصحراء . وكان من الضرورى احتلال الجبال والسهوب الداخلية احتلالا مدروساً ووضع خطة شاملة لتوزيع القلاع والحصون . وبرغم أسر الأمير عبد القادر ونفيه عام ١٨٤٧ ، فإن المقاومة الجزائرية لم تتوقف حتى عام ١٨٧٩ عندما استطاع الجيش الفرنسى إخضاع القبائل بين البحر والصحراء .

بعد ذلك كان على الفرنسيين أن يفكروا فيما عساهم أن يفعلوا بأرض واسعة مات فى سبيلها ١٥٠,٠٠٠ جندى ومثلهم تقريباً من المستعمرين . وقد أصبح من الممكن استعمار السهول الشمالية التى تستقبل قدراً منظماً من المطر الشتوى (إقليم التل) والتى أجليت القبائل عنها وضمها إلى حكومة فرنسا المدنية . أما عن بقية الجزائر فقد كان على الفرنسيين أن يتذكروا ما قاله نابليون الثالث مرة من أن الجزائر ليست مستعمرة فرنسية فقط ، بل «مملكة عربية» فلم يكن من المستطاع أن تحتل رجال القبائل المسلمين بسرعة ، وكان من الضرورى التوسع فى إنشاء « المكاتب العربية » التى ابتدعها الجيش ، وبمقتضاه تحكم القبائل حكماً غير مباشر عن طريق مجالس قبلية وشعبية . وبرغم هذا الحل الوسط فإن مستقبل « الجزائر الفرنسية » كان بعيداً عن الاستقرار عام ١٨٧٩ عندما سلمت السلطة العسكرية مقاليد الحكم للمدنيين . فلم يكن هناك من سبب وجيه يحفز المواطن الفرنسى للهجرة إلى الجزائر حيث العداء كامن فى الأرض والناس والأمراض . ثم هم يهاجرون ليزرعوا محاصيل تدخل فى منافسة مع محاصيل وطنهم الأصلى، ولذلك لم يكن من بين المستعمرين البالغ عددهم ٣٥٠,٠٠٠ عام ١٨٨٠ سوى النصف فقط من الفرنسيين ، والباقون

إما من الأسبان أو الإيطاليين أو المالطيين . وأكثر من هذا فكلما ازداد المستعمرون نجاحاً فى خلق المزارع وإقامة الخزانات وإنشاء الطرق ومد السكك الحديدية وتشييد المدارس والمستشفيات ، ازداد كره وبغضاء السكان الأصليين المحصورين فى أراض فقيرة والمتزايد عددهم بسبب السلم الذى يفوضه إرهاب فرنسا .

وقد بحثت فرنسا فى غرب إفريقية عن تعويض لإمبراطوريتها القديمة التى قوضتها بريطانيا خلال ١٧٩٣ — ١٨١٥ . وكان البريطانيون أثبت أقداماً فى ساحل غرب إفريقية حيث كانت أهدافهم التجارية أكثر وضوحاً من أهداف الفرنسيين وحيث كانوا ينشطون لإزالة تجارة الرقيق وإنشاء نظام تجارى جديد يحل محلها ، أما فى الداخل فقد كان زمام الأمور لا يزال فى يد الإفريقيين حتى السبعينات من القرن الماضى . غير أن فرنسا كانت لا تزال تحتفظ بميراث قديم من إمبراطوريتها السابقة ممثلا فى نهر السنغال ، وقد كانت قيمة السنغال منحصرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى كونه طريقاً تجارياً مع السودان المستقل. ولما فشلت مشروعات فرنسا الزراعية فى السنغال، ترك الأمر لضابط من ضباط الجيش اسمه لويس فيدر هرب Louis Faider Herbe (وكان قد اكتسب خبرة حربية وفهماً واسعاً للإفريقيين المسلمين فى الجزائر) لكى يبين ما يمكن عمله فى السنغال . وعندما عين حاكماً عام ١٨٥٤ ، بدأ فيدرهرب فى إتمام فتح حوض السنغال وتحويل سكانه إلى فلاحين ينتجون المحاصيل ولا سيما الفول السودانى الذى يهم فرنسا . وأصبح السنغال عندما تركه هذا الحاكم بعد عشرة أعوام قاعدة قوية للتوغل فى السودان الغربى وفتحه على يد الجنود السنغاليين . وقد أصبح الفرنسيون من القوة بحيث ينافسون إمبراطورة الحاج عمر الذى كان يحكم الأجزاء الغربية لقوة إسلامية متجددة فى السودان .

وكما بينا فى الفصل السابع ، دخل الإسلام السودان الغربى والأوسط بصفة عامة كدين للملوك والتجار ، ولم يحل محل العقائد القبلية الحلولية الأصلية

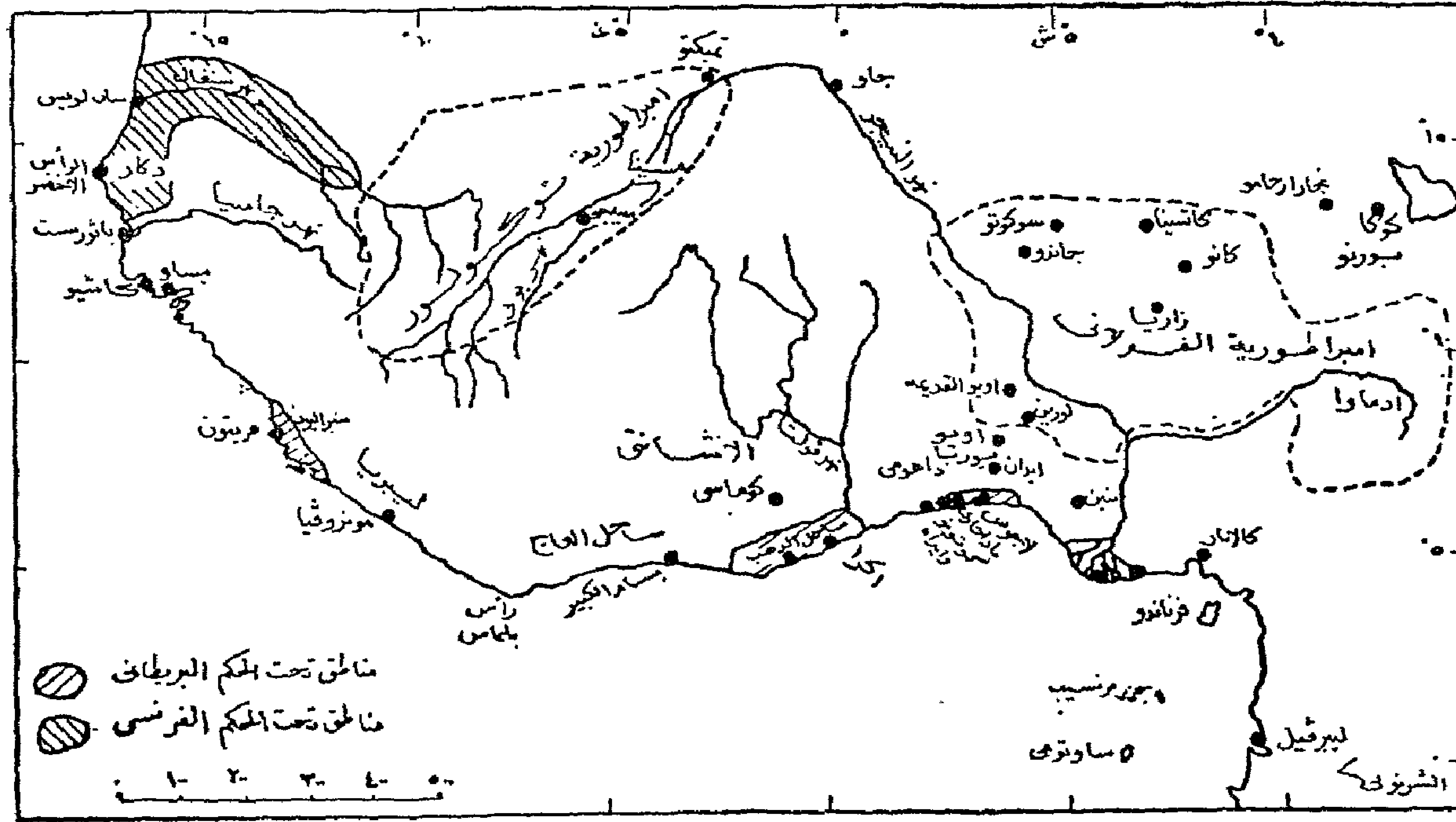
للجماهير . وفيما عدا بورنو ، التى أصبح أهلها أقرب من غيرهم من السودان فى تكوين أمة إسلامية ، فإن حالة المسلمين تدهورت عقب الغزو المغربى ومن ثم كان حكام ممالك البامبارا والماندى والهاوسا ، وهى أهم الدول السودانية فى القرن الثامن عشر إما وثنيين صراحة أو أشباه وثنيين ، بينما ظلت طبقات التجار الماندى والهاوسا على إسلامها، على أن المد الإسلامى بدأ فى الزحف من جديد عند نهاية هذا القرن ، وكان هذا مصطحباً ببزوغ جماعة جديدة كتب لها أن تلعب دوراً كبيراً فى تاريخ السودان الغربى السياسى ، وهذه هى جماعة الفولانى ، الجماعة الرعوية الوحيدة فى غرب إفريقية .

وعلى الرغم من أن الصفات الجسمية للفولانى غير زنجية بشكل ملحوظ (مما دعا بعض العلماء إلى الظن بأنهم منحدرون من العنصر غير الزنجى فى غانا القديمة) إلا أننا يجب أن نعتبرهم اليوم من الشعوب الزنجية . فلغتهم زنجية لا شك فيها ، وتنتمى إلى نفس العائلة اللغوية التى تنتمى إليها لغة التوكولور فى السنغال الأسفل ، وهم شعب ارتبط بهم الفولانى ارتباطاً وثيقاً حتى القرن الرابع عشر ، عندما بدأ الفولانى فى التوسع شرقاً عبر السودان رعاة للماشية ، متدخلين مع ماشيتهم وسط قرى الزراع ، وقد ثبتوا أقدامهم فى القرن السادس عشر فى إقليم ماسينا بعد ثنية النيجر من جهة المنابع ، كما توغلوا فى بلاد الهاوسا شرقاً من ذلك الإقليم . وبعد ذلك بقرنين كان بعضهم قد استقر فى اداماوا فى الكاميرون الشمالى . وقد ظل معظم الفولانى رعاة وثنيين (فولانين بوروجى) يديرون شئونهم مستقلين تماماً عن الشعب الذى يقطنون بين ظهرانيه غير أن بعضهم شارك فى الحياة الحضرية ، ولا سيما فى بلاد الهاوسا ، فلم يعتنقوا بذلك الإسلام فحسب ، بل ورثوا التراث الثقافى للسودانيين المسلمين الذى ظل فى البلاد بعد الغزو المغربى . وفى التسعينات من القرن الثامن عشر اختلف أحد أبناء هذه الطبقة وهو عثمان دان فوديو مع حكام إحدى ولايات الهاوسا الشمالية واحتكم إلى الشعب واستنصرهم ضد حكامهم ، على أساس أن حكام الهاوسا لا يفضلون الوثنيين كثيراً . ثم

اندلعت ثورة عثمان دان فوديو بين عامى ١٨٠٤ – ١٨١٠ وشملت بلاد الهاوسا كلها . وقد اشترك كثير من الهاوسا فى الجهاد الذى حمل لواءه دان فوديو ، غير أن اشتراك أمراء الفولانى الذين جمعوا الفولانى الوثنيين كذلك فى قوة واحدة ، هو الذى مكن دان فوديو من تقويض ملك أسر الهاوسا القديمة وتثبيت كفة الفولانى المسلمين .

ولم يقابل الغزاة الفولانى أى مقاومة جدية إلا فى بورنو حيث اكتسح محمد الكانامى أسرة كانم القديمة الضعيفة ، وأعلن أن ليس للفولانى حق احتكار حماية الإسلام وبهذا جمع قومه وراءه . أما اداماوا فقد أصبحت جزءاً من إمبراطورية الفولانى ، كما زحف أمراء الفولانى جنوباً حتى نوبى وأرض اليوروبا . واحتلوا ولايات أويو وعاصمتها التاريخية ، التى عندما أصبحت أمارة الورين ، لعبت دورها كقاعدة لانتشار الإسلام الحثيث بين اليوروبا . وقد كان دان فوديو عالماً ورجل دين أكثر منه رجل دولة ، ومن ثم انتقلت قيادة الدولة الفعلية إلى نجله محمد بللو الذى أشرف على الجزء الشرقى الأكبر منها من مدينة دان فوديو الجديدة ، سوكوتو وإلى أحد إخوته عبدالله الذى أشرف على الغرب من جاندو . وقد كان كل من هذين الرجلين عالماً جليلا ، اشتركا مع أبيهما فى الجهاد المقدس الذى شنه على الكانامى .

وقد كان لنجاح الفولانى فى السودان الأوسط نتائج هامة فى السودان الغربى فعندما عاد أحد أعوان دان فوديو الأوائل ، وهو أحمد لوبو إلى وطنه فى ماسينا استطاع أن يسقط حكامها من البامبارا وكون دولة فولانية أخرى فيها . وإلى الغرب من ذلك حمل عمر الحاج لواء الثورة ، وهو من التوكولور وقد قضى لدى عودته من الحج إلى مكة فترة من الزمن فى سوكوتو حيث تزوج إحدى بنات بللو ، وقد لقى عمر فترة تدريب فى أحد الأربطة ، وقد زوده بأسلحة نارية كان قد حصل عليها من إحدى موانئ الساحل، وما إن حانت سنة ١٨٥٠ حتى كانت قوته على استعداد للحركة والجهاد وقد استطاع رجال عمر أن يستولوا على مملكة البامبارا وفتح ماسينا ، ولم يقف تقدمهم



غرب افريقيا فى القرن التاسع عشر

(شكل ١٢)

سوى الفرنسيين فى السنغال الأعلى . واستطاع عمر أن يكون إمبراطورية امتدت عام ١٨٦٣ من السنغال حتى تمبكتو ، ومهما تكن من نواياه فإن كثيراً من رجاله كانوا غزاة ناهبين كما كانوا مهتمين بنشر الإسلام وقد ثارت عليه كل من شعوب البامبارا والفولانى عدة مرات . وقد لقى عمر حتفه عام ١٨٦٤ بينما كان فى إحدى غزواته تلك ، وترك ميداناً مضطرباً لولده وحفيده أحمدو سيكو(١).

وقد يغرينا سير الحوادث بأن نفترض أن هذه الإمبراطوريات الجديدة كانت إلى حد ما رد فعل سودانى لما كان يحدث فى غرب إفريقية فإذا قارنا هذا بجهاد عبد القادر فى الجزائر ومحمد أحمد المهدى فى السودان المصرى فإننا نستطيع أن نقول إن هذا كله كان بياناً لمعارضة الإفريقيين من المسلمين للضغط الخارجى، وأما بالنسبة للسودان الغربى فإننا لا نكاد نرى أى ضغط خارجى فإن الخطر الأوروبى المباشر لم يهدد وادى السنغال حوالى ١٨٨٠ وقد كان أحد الاتجاهات الرئيسية لحركة الفولانى صوب بلاد اليوروبيا كما كانت إحدى محاولات الحاج عمر متجهة نحو السنغال وقد يومئ هذا إلى أن تغيير سير التجارة من طرق القوافل عبر الصحراء إلى الساحل كان له أثر فى الاقتصاد السودانى ، ومن ثم كان أهله يعبرون عن سخطهم على تحول مركز التجارة والقوة إلى غينيا فاذا كان التذمر كذلك فان الوقت كان مناسباً للمعارضة السودانية . ويبدو هذا واضحاً فيما يتعلق بامبراطورية أويو التى قوض من أركانها ازدياد التجارة الأوروبية وتضخم النفوذ الأوروبى على الساحل مما أدى إلى انهيار قوة غينيا .

وكانت النتيجة النهائية أن السودان اصطدم اصطداماً مباشراً مع قوة أوروبا وكان هذا أكثر وضوحاً بالنسبة لفرنسا منه بالنسبة لبريطانيا .

ويبدو التوسع البريطانى فى غرب إفريقية ضئيلا بمقارنته بالفتوح الفرنسية فى السنغال فقد كانت هناك مستعمرة جديدة تنمو حول فريتاون فى سيراليون

(١) الذى كان أيضاً ابن أخت بللو سلطان سوكوتو .

فى نهاية القرن الثامن عشر ولكنها بدأت فى الأصل كقاعدة خاصة لبعض الإنسانيين المعارضين لتجارة الرقيق . وكان هدفها مزدوجاً : إيجاد وطن جديد للزنوج من الرقيق السابق القادم من الولايات المتحدة وبريطانيا وتأسيس قاعدة يمكن أن تدخل التجارة المشروعة إلى إفريقية عن طريقها . وقد فشل هؤلاء المغامرون فى تحقيق غرضهم .

ولم تستطع مستعمرتهم أن تعمر حتى عام ١٨٠٨ إلا بصعوبة عندما تسلمتها الحكومة البريطانية كقاعدة للأسطول الذى يطارد تجارة الرقيق ، كانت مستعمرة سيراليون تتكون من أميال مربعة حول فريتاون حتى القرن التاسع عشر .

إلا أن هذه المستعمرة لعبت دوراً كبيراً فى توجيه تاريخ غرب إفريقية وكانت تفوق فى هذا أماكن توطين الأرقاء المحررين الأخرى المقامة فى الساحل فى ذلك الحين .

وقد بدأت ليبريا كقاعدة لبعض الأمريكيين المحبين للإنسانية عام ١٨٢١ وكانت تتكون من بضعة آلاف من المستقرين الزنوج عندما أعلنت جمهورية مستقلة عام ١٨٤٧ وكان هؤلاء الزنوج يحاولون أن يقيموا أودهم ويدافعوا عن مثلهم أمام عداء القبائل الوطنية دون أى عون خارجى . ولم تعترف أمها التى تتبعها وهى الولايات المتحدة بها اعترافاً رسمياً حتى عام ١٨٦٢ أما ليبرفيل التى أسسها الفرنسيون على ساحل الجابون عام ١٨٤٩ فقد أقيمت على غرار فريتاون ولكنها ظلت راكدة حتى فجر تقسيم أوروبا للقارة الإفريقية وكان السبب الرئيسى فى هذا أن نشاط الأسطول الفرنسى ضد تجار الرقيق قد استوفى غرضه أما بريطانيا فقد ظلت تسير أسطولها بحثاً عن تجار الرقيق من عام ١٨٠٧ فى الستينات من القرن الماضى ، وكان من نتيجة ذلك أن استطاع الأسطول تحرير ٧٠,٠٠٠ زنجى من سفن تجار الرقيق ويوطنهم فى سيراليون وقد تمثل كثير من هؤلاء الزنوج الرقيق المحررين طرق الحياة الأوروبية نتيجة لجهود البعثات التبشيرية البروتستانتية الثقافية التى اختارت عن قصد سيراليون لتكون أول مكان تباشر منه عملها فى غرب إفريقية ٥

وقد أصبح بعض هؤلاء الإفريقيين المعتوقين تجاراً على طول الساحل بينما ساعد غيرهم فى تنمية الموارد البريطانية ، فى خدمة الشركات التجارية أو فى خدمة الحكومة وعندما كانوا يعودون إلى أوطانهم كما فعل بعضهم ولا سيا فى بلاد اليوروبا يصبحون عملاء لمزيد من التوسع أمام كل من نفوذ الكنيسة ونفوذ الأوروبيين ، بل لقد كان لسيراليون أهمية أخرى ،وهى تتلخص فى أن حكامها الأوائل اقتنعوا بأن أفضل طريقة لوقف تجارة الرقيق هى توطيد الحكم البريطانى أو إعلان الحماية على الموانئ التى تصدر الرقيق وبذلك انتقلت القلاع البريطانية المشيدة على ساحل الذهب إلى وزارة المستعمرات عام ١٨٢١ وسلمها التجار الذين كانوا يديرونها حتى ذلك الحين .

ولم تأت هذه السياسة الصريحة بأى نتيجة أمام بريطانيا التى كانت تعبر عن سياسة الحرية « دع الأمور تسير » والتى وجدت أن ثمن توسع النفوذ البريطانى فى غرب إفريقية فادحاً جداً بالقياس إلى الفوائد التجارية أو الإنسانية التى يمكن الحصول عليها ومن ثم استغنى عن عدد من الممتلكات القديمة مثل جزر دى لوس De Los (أمام كوناكرى الحالية) واستمر عدد الرقيق المختطف فى التزايد وعبر الرقيق المحيط الأطلنطى على سفن برازيلية وأمريكية وأسبانية حتى نهاية الأربعينات من القرن الماضى ،وبدا أن التجارة البريطانية كانت أشد ازدحاماً فى دلتا النيجر (الذى كان يعرف حينذاك باسم أنهر الزيت) دون أن يكون لديها أى سند رسمى ،ولذلك فإن السياسة البريطانية تغيرت عندما اشتبكت بريطانيا فى حرب مع الأشانتى قتل فيها أحد حكام سيراليون عام ١٨٢٤ :

فى عام ١٨٣٠ عندما عين التاجر جورج ماكلين حاكماً فى ساحل الذهب استطاع أن يبين كيف يمكن للتجارة البريطانية أن تزدهر بأقل ما يمكن من تكاليف ، وذلك باتباع سياسة الحزم والشدة دون ما سند قانونى مصحوبة بالمسالمة مع الأشانتى وساحل غرب إفريقية عامة ، وبذلك عادت السيطرة الأوروبية الرسمية على قلاع ساحل الذهب عام ١٨٤٣ — ١٨٤٤ غير أن

أحداً لم يستفد تماماً بالمثل الذى ضربه ماكلين فتركت العلاقات مع الأشانتى للتدهور وتدهورت التجارة أيضاً وفى نفس الوقت اقتنع الدنماركيون والهولنديون — وهم آخر من بقى من الأوروبيين فى ساحل الذهب — بأن قلاعهم لم تعد تدر ربحاً، ولا قيمة لها دون تجارة الرقيق، فسلموا قلاعهم عامى ١٨٥٠ و١٨٧٢ للبريطانيين، وغادروا ساحل الذهب وغرب إفريقية وكان معنى هذا أن البريطانيين أصبحوا قادرين على فرض حكمهم المباشر على الساحل كله ، بل لقد حاولت بعض الجماعات الساحلية التى اقتبست السبل الأوروبية أن تقيم لها دولا ، غير أن حملة تأديبية أسكتت الأشانتى وخربت عاصمتهم كوماسى وأعلنت ساحل الذهب مستعمرة بريطانية عام ١٨٧٤ .

وقد أدى نمو قوة بريطانيا على ساحل الذهب إلى اشتباكها بمجريات الأمور المضطربة فى الأجزاء الواقعة إلى شرقها حيث كانت تتفاعل اتجاهات بادية التناقض، ففى ساحل العبيد كان كل من مملكة داهومى والنخاس الأوروبى يستفيد من تجارة الرقيق المزدهرة مع البرازيل وكوبا ، وكان كثير من الرقيق يجلب من يوروبا حيث كانت إمبراطورية أويو تلفظ آخر أنفاسها وتمزقها الحروب الأهلية والفوضى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى. فقد كان التجار الأوروبيون ، ومعظمهم بريطانيون ، يشتركون مع التجار الإفريقيين وزعماء قبائلهم فى إثراء أنفسهم بتصدير زيت النخيل من جوز الزيت من الغابات شمال الدلتا مباشرة وقد استغلت دول المدن الساحلية الإفريقية فى منح الاحتكارات التجارية فى الداخل وكان كل منها تنظر إلى الأخرى كما تنظر إلى الأوروبيين بحسد شديد وتتنافس تنافساً مريراً حول الحصول على أكبر قدر من أرباح هذه التجارة .

وقد كانت المحاولات البريطانية الأولى لمعالجة هذه المشكلات عديمة الجدوى ففشلت البعثات الدبلوماسية فى إقناع مملكة داهومى بوقف تجارة الرقيق كما فشلت بعثة رسمية أرسلت عام ١٨٤١ وصعدت النيجر الأسفل وحاولت أن تستفيد من تجربة لاندر وتتحاشى أنهر الزيت المضطربة وتحمل التجارة

البريطانية ورجال البعثات التبشيرية المسيحية رأساً نحو الداخل : ولكنها جوبهت بصعاب عدة، منها هجوم أسراب البعوض كما استهدفت عداء التجار السابقين من سود وبيض غير أن المصالح البريطانية التجارية المعتمدة على إزالة تجارة الرقيق واستبدال التجارة الشرعية بها ، هذا إلى اهتمام البعثات التبشيرية بهذا الأمر وقد حذوا حذو النازحين من سيراليون نحو بلاد يوربا المضطربة كل هذا ضغط على بريطانيا حتى تقوم بعمل ما .

فى عام ١٨٤٩ بدأت وزارة الخارجية البريطانية فى إرسال قناصل نحو خليج غينيا وكان هؤلاء مزودين بتعليمات تقتضيهم أن يراقبوا نشاط موانئ النخاسة مثل ويدال وباداجرى ولاجوس(١) وأن يحاولوا أن يعيدوا شيئاً من النظام فى إقليم أنهر الزيت حيث كان التجار البريطانيون على أتم استعداد فى شق طريقهم نحو الداخل وإنهاء منازعاتهم العديدة مع الحكومات الإفريقية باستدعاء مدمرات الأسطول البريطانى المخصصة لغرب إفريقية وكان بعض هؤلاء القناصل ولا سيما جون بيكروفت رجالا يتسمون بالعنف بعد أن بدأت تلك السياسة القنصلية فى إتيان ثمارها بمعاونة الأسطول البريطانى . ولم تكن لدى بريطانيا القوة أو المال لغزو داهومى غزواً مباشراً إلا أن لاجوس سقطت عام ١٨٥١ ثم أصبحت مستعمرة بريطانية بعد ذلك بعشر سنوات وقد أدى هذا بالإضافة إلى عمليات ضم الأجزاء الساحلية الأخرى بما فيها باداجرى لانهاء تجارة الرقيق مع بلاد اليوروبا وبذلك حوصرت داهومى حصاراً تاماً . أما فى إقليم أنهر الزيت فقد ساد التشريع البريطانى بمعاونة القناصل البريطانية وبذلك مهد الطريق لضمها إلى بريطانيا .

غير أن هذا الضم كان لا يزال فى ضمير الغيب ففى عام ١٨٧٩ عندما كان الفرنسيون يتوغلون فى السودان من قاعدتهم فى السنغال وكان جولدى يجند التجار البريطانيين لشق طريقهم فى أفرع نهر النيجر كانت غرب إفريقية خالية تماماً من التوغل البريطانى وكانت السنغال فرنسية لا شك فيها كما أن

Whydal, Badagri, Lagos. (١).

الفرنسيين احتلوا الرأس الأخضر Cape Verde لأسباب استراتيجية عام ١٩٥٧ أما الراية البريطانية فقد تبعت تجارتها أو اهتمامها الإنسانى حتى مصب نهر جامبيا وحتى سواحل سيراليون وساحل الذهب ونيجيريا المستقبل إلا أن نفوذها لم يمتد إلى الساحل إلا قليلا . وكانت الأشانتى المملكة الزنجية الكبيرة الوحيدة التى تعرف جيشاً أوروبياً ثم تركت عام ١٨٧٤ وحدها لتستعيد قواها وتكسرت الحلقة التجارية القديمة التى كانت تربط إفريقية بأوروبا بالقضاء على تجارة الرقيق عبر الأطلنطى نهائياً فى أواسط الستينات من القرن الماضى . إلا أنه وجد عدد قليل من المحاصيل إلى جانب المحصولين الزيتيين القديمين وهما جوز زيت النخيل والفول السودانى ،وإذا استثنينا العواطف الإنسانية فإن أوروبا لم تقم إلا بالنزر القليل لضم غرب إفريقية فى النطاق الأوروبى .

---

(١) وبذلك حصلوا على موقع ممتاز لإنشاء داكار التى أصبحت عاصمة لإمبراطورية فرنسية واسعة فى إفريقية .

— ١٤ —

القرن التاسع عشر

جنوبى أفريقية

قبل أن تظهر حمى الاستعمار فى الثمانينات من القرن الماضى كان الأوروبيون قد بدأوا فعلا فى شق عدة طرق جنوبى القارة ، وقد ساد عصر التوسع الاستعمارى الأوروبى هذه الأنحاء خلال ثلاثة أرباع القرن الماضى شمالا بشرق من رأس الرجاء الصالح ، وقد وصل هذا التيار الاستعمارى عام ١٨٨٠ إلى اللمبوبو عبر ألف ميل من قاعدته فى مدينة الكاب . وذهب الأثر غير المباشر لهذا الاستعمار الاستيطانى أبعد من ذلك بكثير على يد رجال البعثات التبشيرية والتجار المنبعثين فى مستعمرات جنوب إفريقية محدثين آثاراً وصلت شمالا حتى نهر الزمبيزى . وقد كانت لرحلات لفنجستون بصفة خاصة نتائج هامة على كل من قبائل البانتو فى وسط إفريقية ومناطق نفوذ البرتغال القديمة فى أنجولا وموزمبيق .

وعندما أسست شركة الهند الشرقية الهولندية محطة تموينها فى الكاب عام ١٦٣٢ ، لم تكن تتوقع إطلاقاً أنهاستصبح مشتبكة بداخلية إفريقية . غيرأن الشركة احتاجت إلى اجتذاب المستعمرين والمستقرين فى الكاب حتى تستطيع أن تدافع عنه ، وأن تنتج المواد التموينية للسفن المسافرة إلى الهند . وعندما تغيرت سياسة اجتذاب المستعمرين ، كان هؤلاء قد بدأوا يشكون من معاملة الشركة لهم وتقييدها لحريتهم ومن قلة سفنها التى تمكن أن تستوعب إنتاجهم المتزايد . ومع تزايد عدد المستعمرين تزايداً طبيعياً خلال القرن الثامن عشر أخذ كثير

منهم فى البحث عن رزقه فى الداخل بعيداً عن سيطرة الشركة، صيادين وتجاراً مع الهوتنتوت، الذين تبادلوا معهم ما ينتجون بالماشية وبالتالى أصبحوا هم أنفسهم زراعاً مربين للماشية . وهكذا ظهر ما أطلق عليه اسم البوير الرحل Trek-Boer [1] وهم رواد أشداء سلخوا أنفسهم من تيار النمو الأوروبى ووطنوا أنفسهم على الملاءمة مع الحياة القاسية الجديدة . وعزموا على كسب قوتهم من رعى الحيوان فى مراع داخلية جنوب إفريقية الجافة، ودخلوا بذلك فى منافسة مع السكان الأصليين وهم فلاحون مربون للماشية مثلهم تماماً . وفى النهاية أطلق أبناؤهم على أنفسهم لقب الإفريقيين وهم يختلفون عن غيرهم من الإفريقيين بنزعتهم الفردية الشديدة وفى عقيدتهم الكالفينية التى نشأت فى القرن السابع عشر، التى استوحوا منها اعتقاداً راسخاً نما من ظروف نشأتهم بأنهم شعب اختاره الله وأن السود الوثنيين لا حق طبيعى لهم قبلهم ولا حق لهم فى امتلاك الأرض التى بدأ هؤلاء البيض فى اغتصابها .

وبهذه الروح تحرك البوير شرقاً بدل أن يستمروا صوب الشمال أى نحو الأراضى التى تستقبل قدراً كبيراً من الأمطار فى أقاليم ناتال . وبدأوا فى اقتناص البوشمن البدائيين ، وشتتوا الهوتنتوت حتى واجهوا جماعات البانتو العديدة الأكثر نظاماً والذين كانت حدود بلادهم تنتهى عند نهر فيش الكبير . وكان من نتيجة ذلك سلسلة حروب الكافير العديدة[2] التى أقضت جانب البوير مائة عام كاملة .

ولم يكن انتقال الكاب من ملكية الهولنديين إلى ملكية البريطانيين نتيجة الحروب الإنجليزية الفرنسية من ١٧٩٣ — ١٨١٥ يعنى شيئاً ما فى بادئ الأمر فلم يكن للكاب فى نظر البريطانيين مثلما كان فى نظر الشركة الهولندية أى

---

(١) معنى هذا : الفلاحون والمهاجرون .

(٢) الكافير لفظ يستخدم عادة فى جنوب إفريقية ويعرف الأسود فى هذه البلاد وهذا اللفظ أصله « كافر » وربما وصل إلى جنوب إفريقية من ساحل شرق إفريقية حيث وجده البرتغاليون على ألسنة العرب فأطلقوه على البانتو .

أهمية غير أهمية استراتيجية إذ هو يشرف على مدخل المحيط الهندى. ولم تكن للمستعمرات الشاسعة المتناثرة التى تصل حتى نهر الأورانج شمالا ونهر فيش شرقاً سوى ملحق زائد للكاب بسبب مضايقات للبريطانيين ودوا لو استطاعوا القضاء عليها بأسرع ما يستطيعون غير أن تبعة البريطانيين على حدود المستعمرة كانت أقوى من قبضة الشركة السابقة فى أواخر أيامها . كما أن البريطانيين أخضعوا جمهوريات البوير التى سارعوا بإعلانها فور نهاية حكومة الشركة عام ١٨٩٥ من سويلندام وجراف رينيت Graaf Reinet وقد أدخل البريطانيون عام ١٨٥٠ حوالى خمسة آلاف مستعمر جديد من الجنود السابقين وأسرهم خلف الحدود مباشرة ، آملين فى تقوية المستعمرة من ناحية ، وإدخال العنصر البريطانى وسط كتل البوير من ناحية أخرى .

ولقد كانت أهم نتائج الصدام بين البوير المتقدمين وقبائل البانتو حدوث اضطراب وضغط رهيب على هذه القبائل الإفريقية. فمعظم هذه القبائل كانت تعيش منذ قرون فوق السهل الساحلى بين دراكنزبرج والبحر ،وكانت هذه المنطقة تستقبل قدراً وفيراً من الأمطار ،الموسمية من المحيط الهولندى. وكانت بذلك أكثر خصباً من الهضبة الداخلية ، حيث كان العمران الإفريقى مثل العمران الأبيض متناثراً بالضرورة ، فلما تزايد عدد البانتو كما تزايدت قطعانهم بالتدريج أخذوا فى البحث عن متسع من الأرض، ولم تكن قبائل البوشمن أو الهوتنتوت عقبة فى سبيل توسعهم أكثر مما كانوا أمام البوير ، وكانت أكثر الأراضى خصباً تقع بطبيعة الحال إلى الجنوب الشرقى على، حذاء الساحل فكان وصول البوير إلى هذه المناطق عقبة فى سبيل توسعهم .

وكانت النتيجة لهذا أن أى قبيلة تريد أن توسع نطاق أراضيها لا تجد أمامها إلا أراضى جاراتها من القبائل الأخرى. وفى أوائل القرن التاسع عشر قام بين عشيرة الزولو من قبيلة نجونى Nguni فى ناتال عبقرية عسكرية قاسية اسمه شاكا ، استطاع أن يكسر حصار البيض لقومه، واستطاع أن ينظم الفتيان الشبان فى مملكة مولاه دنجزوايو فى كتائب منظمة تعيش للحرب

إفريقيا الجنوبية في القرن التاسع عشر

(شكل ١٣)

فحسب ، وكانوا يخوضون تلك الحروب فى صفوف متراصة وتشكيلات نظامية مستخدمين سيوفاً قصيرة ، يطعنون بها بدلا من قذف الحراب التقليدى وهكذا اكتسحت قوات شاكا المدربة النظامية كل ما اعترضها فغنمت ماشية القبائل الأخرى وسلكوا فتيانها وفتياتها فى صفوف قواتها النظامية. وبعد وفاة دنجزوايو عام ١٨١٨ أصبح شاكا حاكماً بأمره لأمة حديثة حربية هى أمة الزولو ، وقد اغتال شاكا أخوه غير الشقيق ولكنه كان لايقل عنه قوة وعنفاً وأصبح وطن الزولو محاطاً من جميع الجهات ولا سيما من الشمال بأرض حرام تحولت إلى مراع لقطعان الزولو .

وقد كان لانبعاث أمة الزولو وقع بعيد المدى شمل جنوبى إفريقية كلها فبعض ضحايا الزولو تعلموا منهم فنون الحرب والفتح والنهب من هؤلاء قائد السوتو المسمى سيتوان الذى جند مجموعة صغيرة اسمها ماكولولو واتجه بها إلى الشمال ليغزو مملكة الباروتسى على نهر الزمبيزى بينما اتجهت قوة سوتو الأصلية بقيادة منتاتيسى غرباً نحو أرض البتشوانا فى حملة انتحارية بقصد السلب والنهب .

وقد استطاعت أمتان جديرتان أن تنتفضا وتتحولا من مجرد لاجئين مشتتين إلى أمتين تقفان فى وجه الزولو مثل السوازى الذين جمع صوبهوزا وسبطه سوازى شملهم شمالى بلاد الزولو مباشرة ومثل مملكة الباسوتو الحديثة إلى الجنوب الغربى من بلاد الزولو كذلك . ويضاف إلى هذا أن بعض المتمردين على شاكا أخذوا بعض تشكيلات الزولو وضربوا بها شمالا لحسابهم الخاص مثل سوشانجان الذى قاد شعبه الشانجان شمالا إلى بلاد جازا حيث قهروا وضموا سكانها الأصليين من القونجا ، بل لقد أبعد زوانجنباندا ورجاله المحاربون مرماه فاقتحم الهضاب بين نهر لمبيو والزمبيزى حتى استقروا أخيراً حول بحيرة نياسا وقاد مزابيكازى شعبه من المتابيل (اندبيليه) عبر جبال دراكنزبرج ليشتت سوتو الترانسفال غرباً نحو حدود صحراء كلاهارى فى بتشوانا لاند وجنوباً نحو باسوتولاند .

فى هذا الداخل المضطرب بدأ سيل المهجرين البوير المتزايد فى شق طريقه فى مسيرتهم المشهورة من مستعمرة الكاب . تلك المسيرة التى عرفت فيما بعد بالمسيرة الكبرى Great Trek . ولقد كانت الهجرة والمسيرة بعيداً من سيطرة مدينة الكاب تقليداً بويرياً قديماً ولم يكن سببه مطلقاً فرض الحكم البريطانى ، فلم يكن الحكم البريطانى أفضل أو أسوأ من الحكم الهولندى بالنسبة للبوير ، طالما بسط عليهم حمايته ضد البانتو وما دام يسمح لهم فى الاستيلاء على ما يشاءون من أراض واستخدام ما يشاءون من الأيدى العاملة الإفريقية ، غير أن طبيعة الإدارة البريطانية تغيرت حوالى ١٨٢٣ بشكل لم يستطع الرحالة البوير إلا أن يعتبروه ضاراً بمصالحهم ، وقد رجع هذا إلى وجود تيارات جديدة فى بريطانيا نفسها إذ تخلت بريطانيا عن تقاليد الحكومة القديمة التى كانت تعتبر الإمبراطورية سلاحاً يفسح لها طريق التجارة والحياة . وأفسحت صدرها لمبدأ حرية التجارة « ودع الأمور تجرى » وأخذت رعاياها المحكومين من أبناء الشعوب الأخرى بنظرة إنسانية سواء كان ذلك فى بريطانيا أو فى المستعمرات ، غير أن هذا كان نتيجة إنشاء بعثات تبشيرية فى جنوب إفريقية لأول مرة . أو نجاح بعثة تبشيرية بالذات وهى جمعية لندن التبشيرية والمشرف على فرعها فى جنوب إفريقية دكتور جون فيليب الذى نجح فى عرض حقوق مواطنى جنوب إفريقية الأصليين المهضومة على مسامع الحكومة البريطانية .

ومنذ عام ١٨٢٥ بدأت الإدارة البريطانية فى الكاب فى إدخال إجراءات قانونية لحماية الرعايا غير الأوروبيين . كما بدأت تتخلى عن طبيعتها الحربية التى كانت تميز أيامها الأولى ، فأدخلت عناصر ديمقراطية فى الحكومة وبذلك محاولات لجعل الصرف مسايراً للدخل ، بتخفيض الأعباء الحربية وفرض الضرائب على الأرض وهو الشىء الوحيد الذى يملكه اقتصاد فقير وتنظيم الملكية وبذلك ترتفع قيمتها ولم يؤثر إلغاء الرق فى الإمبراطورية كلها عام ١٨٣٣ على مناطق تكوين البوير حيث أن معظم الرقيق البالغ عددهم ٢٠,٠٠٠ فى المستعمرة كانوا يقطنون قرب مدينة الكاب (حيث كونوا

عنصراً هاماً فى نشأة شعب ملونى الكاب الذى يتكون من اختلاط الرقيق والبوير والهوتنتوت) . غير أن هؤلاء البعيدين فى مناطق الحدود تأثروا بقانونين صدرا فى لندن ففى عام ١٨٣٤ نقضت وزارة الخارجية قانوناً كان المجلس التشريعى قد أقره وكان من شأنه أن ينال من الحماية القانونية الجديدة المسبوغة على غير الأوروبيين ثم تقرر أن تعادإحدى مناطق التخوم الشرقية لقبائل البانتو عام ١٨٣٦ ، ولما كان هذا يعتبرأن الأنجال الصغار من البوير لم يعد فى استطاعتهم الاستحواذ على ٦٠٠٠ فدان وهى المساحة الضرورية لحياة أسرة البوير فى الفلد فإن حرمانهم من التوسع كان ضربة قاضية على البوير مما جعلهم يتجمعون فى عصابات منظمة صغيرة ويعبرون نهر الأورانج وقد بين بيت ريتيف Piet Retief أعظم قادتهم الأوائل هدف الارتحال الجديد بكل وضوح وهو إنشاء مجتمعات جديدة بعيداً عن مدى تدخل الحكومة البريطانية حيث يمكن أن ينمو المجتمع على مبادئ الأفريكاندر التقليـــدية :

فانتشر بعض البوير عبر الفلد الأعلى واصطدموا مع المتابيل وشقوا طريقهم عبر نهر اللمبوبو وفرضوا سيطرتهم على شعب الشونا الذين تحطمت أنظمتهم السياسية تحت ضغط سو شانجان وزوانجندابا . غير أن معظم البوير الرحالة اتجهوا صوب إقليم ناتال العشبى الغنى الذى أصبح فقيراً بالسكان نتيجة عدوان الزولو وكان البوير يأملون فيما وعدهم به دنجان Dingane وهو استقرار هادئ، ومن ثم تباعدت عربات البوير التى تجرها الثيران فوق جبال دراكنزبرج وظنوا أنهم وجدوا أرضهم الموعودة غير أن أمة الزولو لم تحتمل احتلال أراضيهم احتلالا دائماً ، فاغتيل رتيف ودب الذعر بين صفوف المستعمرين ثم قام قائد بويرى آخر هو بريتوريس ليجمع شمل الأسر فى تكتلات ويقود الفدائيين سريعى الحركة ويضرب بهم الزولو واستطاعت قوة البوير المعتمدة على الحركة السريعة وبنادقهم أن تسقط حكم دنجان مما مكن بريتوس من إعلان جمهورية ناتال البويرية عام ١٨٣٤ :

ولم يكن الزولو العدو الوحيد الذى كان على البوير مجابهته فلقد أعلنت بريطانيا أن البوير يفقدون رعويتهم البريطانية بمجرد عبورهم خط حدود مستعمرة الكاب ورفضت أن تعترف بنظام بوير مستقل يمكن أن يهيمن على موانئ تهدد خطوط مواصلاتها البحرية إلى الهند ويمكن أن يحدث ضغطاً متزايداً على حدود الكاب ، فأرسلت القوات البريطانية إلى بورت ناتال (دربان فيما بعد) وضمت ناتال رسمياً عام ١٨٤٥ مما اضطر الرحالة البوير المعنودين على استقلالهم على التحرك مرة أخرى عبر دراكنزبرج .

وكان البوير يعارضون بطبيعة الحال أى قيود على حقوقهم الفردية ومصالحهم فقد كانت لكل جماعة من جماعاتهم المتناثرة فوق أرض الفلد العليا قانونها الخاص ، وبرغم ذلك فحاجتها للتعاون معاً ضد البانتو خلق الحاجة الملحة لحكومة مركزية ومن ثم تجمع الرحالة البوير فى جمهوريتين كبيرتين . جمهورية جنوب إفريقية (ترانسفال) بين نهر الفال واللمبوبو ودولة أورانج الحرة بين نهرى الأورانج والفال وقد كانت إرادة الجماهير تظهر أحياناً فى المجالس الشعبية إلا أن الرؤساء المسيطرين على اللاجئين البيض كانوا يركنون إلى السلطات الدكتاتورية الاستثنائية فى معظم الأحيان .

وقد اعترفت بريطانيا باستقلال هاتين الجمهوريتين عامى ١٨٥٢ — ١٨٥٤ وكانت الحكومة البريطانية تعتقد أن أى اعتداء لنفوذها داخل إفريقية تعوض فائدته العائدة منه تكاليف إدارته وأنها لا تعترض على قيام الجمهوريتين طالما لا يؤدى ذلك إلى الانتقاص من حقوق البانتو أو التأثير فى المصالح البريطانية كما كانت ترى أن كلا من الجمهوريتين ينقصها المقومات الاقتصادية اللازمة .

وفى الستينات من العام الماضى كان اقتصاد الكاب يزدهر نتيجة تربية الأغنام للسوق العالمية ، كما أن ناتال حصلت على نتائج اقتصادية باهرة نتيجة إدخال زراعة قصب السكر القائمة على اليد العاملة الهندية .

غير أن الجمهوريتين الجديدتين كانتا فقيرتين حتى بقياس جنوب إفريقية حيث كان ينقصهما وجود اقتصاد زراعى سليم ، كما كانت تنقصهما وسائل النقل مع الداخل غير العربات التى تجرها الثيران غير أن هذا الفقر الاقتصادى الذى كانت تشكو منه الجمهوريتان (وكان فى ترنسفال ٤٠,٠٠٠ أوروبى وفى أورانج الحرة ٣٠,٠٠٠ أوروبى بينما كان فى الكاب ٢٥٠,٠٠٠ خلال السبعينات من القرن الماضى) جعلهما غير قادرتين على مواجهة الحروب التى أثارها استمرارهم فى التوغل نحو الداخل . ولم ينقذ أورانج الحرة وهما على الحدود الشرقية للكاب من الانهيار إلا ضم باسوتو تحت السيطرة البريطانية . وفى نفس العام ضمت بريطانيا جريكوالاند الغربية التى ظهرت أهميتها فجأة باكتشاف مناجم الماس، وكانت هذه المنطقة تقع على حدود أورانج الحرة الغربية وكانت محل نزاع بينها وبين سكانها من الجريكوا Griqua وهم شعب من الهوتنتوت المتأثرين بالأوروبيين وعلى علاقات وثيقة مع الكاب :

فى هذا الوقت وصل الساسة البريطانيون بعيدو النظر فى كل من جنوب إفريقية ولندن إلى أن تعدد الحكومات والسياسات الأوروبية فى جنوب إفريقية من شأنه أن يضاعف المشكلات ويضع العقبات أمام أى حل معقول للمشكلات الناشئة من مسيرة البوير نحو الداخل ، بل إن هذه المسيرة قد أثبتت أن جنوب إفريقية وطن واحد برغم تصادم الأوروبيين والإفريقيين غير أن هذه المسيرة تسببت فى إحداث اضطراب عميق بين قبائل البانتو فسلبت منهم أراضيهم ولم يبق لهم من سبيل سوى البقاء فى خدمة المجتمعات الأوروبية عمالا متفرقين وأكثر من هذا فقد تقوضت نظمهم الاجتماعية وعزل قادتهم حتى لم تعد القبائل وحدات مسئولة يمكن للحكومة البريطانية أن تتعاهد معها على احترام المصالح المشتركة وتبادل المنافع كما حاولت فى الثلاثينات ، والأربعينات من القرن الماضى وكان الحل المثالى لذلك هو اتحاد المستعمرات البريطانية مع الجمهوريات البويرية ، أما مستعمرة الكاب التى ازدهرت

ثروتها وتكاثر سكانها الأوروبيون نتيجة إثرائها من مناجم الماس فقد منحت الحكم الذاتى مع نظام حكم عماده وزراء مسئولون أمام برلمان منتخب انتخاباً حراً بغض النظر عن اللون، وكان أمل بريطانيا منعقداً فى نشر هذا النظام إلى جميع أنحاء جنوب إفريقية وضم البيض والسود معاً ليحلوا مشكلاتهم وترك الحكومة الإمبراطورية لرعاية مصلحتها الأولى وهى حماية قاعدة الأسطول فى الكـــاب .

غير أن هذا الحل المثالى كان صعب المنال فلم يكن لمستعمرة الكاب أى رغبة فى الإسهام فيه إذ لم يكن حكامها الجدد على استعداد لأن يروا ثرواتهم الجديدة مبعثرة على الجماعات المتأخرة الأخرى : ولم يكونوا على استعداد ليروا توازن مجتمعهم (حيث كان عدد الأوروبيين والسود متساوياً) مختلا بإدخال الأعداد الكبيرة من قبائل البانتو من شرق ناتال التى تقع داخل مسئولية بريطانيا .

أما أورانج الحرة التى كانت على استعداد للتعاون مع الكاب فقد وجدت فى ضم جريكوالاند للكاب تعارضاً شديداً مع مصالحها ولما كانت ناتال تحت إدارة وزارة المستعمرات فإن قنصلها البريطانى سربارتل فرير وجد فرصته سانحة للضغط على جمهورية ترانسفال وفرض حل للمشكلة كلها فرضاً وكانت هذه الجمهورية مفلسة وغير قادرة على مجابهة قبائل السوازى والزولو على حدودها ومن ثم فقد ضمتها بريطانيا بالقوة إلى الكاب ضاربة بتعاون البوير عرض الحائط ، غير أن هذه الخطة فشلت فشلا ذريعاً فقد اشتبكت بريطانيا فى حرب مع الزولو (الذين كانت على علاقة طيبة معهم حتى ذلك الحين) وفشلت فى تحقيق وعد فرير فى منح أهل ترانسفال حكماً ذاتياً وقد اغتنم الترنسفاليون هؤلاء فرصة هزيمة بعض العساكر النظاميين أمام هجمات الزولو فثاروا فى وجه بريطانيا ، وبعد أن أحرزوا نصراً هاماً فى ماجويا اضطروا بريطانيا إلى تغيير سياستها سنة ١٨٨١ فاعترفت بريطانيا باستقلال ترانسفال مشروطاً بهيمنة بريطانيا على علاقاتها الخارجية مع الدول الأوروبية

أو مع القبائل الإفريقية وراء حدودها مع المطالبة بشكل غامض بالبقاء تحت السيادة البريطانية ولم تنجح بريطانيا بعد جهد عشر سنوات أى منذ ١٨٧١ إلا فى إحياء وزيادة الشعور المعادى لها الذى كان السبب فى بدء المسيرة الكبرى للبوير .

فى نفس الوقت كان العداء المتبادل بين الجمعيات التبشيرية والبوير الذين لم تسمح مسيحيتهم بالاعتراف بالمساواة بين البيض والسود قد أجبر تلك الجمعيات على تركيز جهودهم وراء حدود الكاب وناتال فى مناطق لم يصل إليها البوير بعد . وقد لاقت جهودها نجاحاً محدوداً بين قبائل نجونى إلى أن تمت هزيمتها فى الميدان هزيمة عسكرية منكرة بعد ١٨٩٠ (برغم أن روبرت موفات عضو جمعية لندن التبشيرية أنشأ علاقات شخصية قوية بينه وبين مسيليكازى فى أرض الميتابيل) وكان أثر المبشرين بين الجريكوا فى باسوتولاند قوياً ، وقد أدى قيام جمهورية ترانسفال إلى قصر جهود المبشرين شمالا على نطاق بتشوانا لاند الضيق بين ترانسفال وكلاهارى حيث اعتنق كهاما ملك بامنجواتو المحصور بين البوير والميتابيل المسيحية ، وكان هذا الطريق الضيق الذى سمى بطريق المبشرين هو سبيل الصيادين والتجار وأخيراً الباحثين عن الثروات من الكاب إلى أرض الميتابيل ، بل إلى أرض الباروتسى فى الستينات من القرن الماضى :

وكان من كرومان وهى إحدى مراكز جمعية لندن التبشيرية بدء رحلة لفنجستون (الذى كان صهر موفات) .

وكانت رحلة لفنجستون مع الحمالين من قبائل ماكولولو التى تسكن أرض الباروتسى (١٨٥٣ — ١٨٥٦) عبر القارة قد وضعته وجهاً لوجه مع البرتغاليين فى أنجولا وموزمبيق وقد أوضح للرأى العام وجود سلسلة من الحصون تمتد من ساحل أنجولا نحو الداخل يخرج منها البومبيرو Pombeiro الخلاسيين لاقتناص الرقيق وجلب العاج ، بل وفضح نظام الرق الشنيع الذى كان موجوداً لتغذية المزارع الواسعة فى الزمبيزى الأسفل وفى ساحل موزمبيق

باليد العاملة ، وقد كان نشاط البومبيرو يمتد عبر القارة من الشرق إلى الغرب وقد وجد لفنجستون أنه لا يمكن إنقاذ المجتمع الإفريقى القبلى بتقدم المسيحية والتجارة المشروعة من الجنوب لأن طرق النقل كانت طويلة ومتعبة ولكنه لم ينجح إلا فى مدٍّ التوغل التبشيرى إلى طرق الزمبيزى وشاير التى سلكها خلال حملاته الكشفية الثانية الكبرى (١٨٥٨ — ١٨٦٤) وهذا لم يتم إلا فى السبعينات من القرن الماضى ،غير أنه نجح فى تحريك ضمير البرتغال وفى تنبيهها إلى أن وجهة النظر الأوروبية نحو إفريقية قد تغيرت وأن تجارة البومبيرو البشعة لم تعد محتملة فى القرن التاسع عشر وأنها ضرب من الفوضى لا يتفق مع ما تزعمه البرتغال من حقوق تقليدية على الأرض الواقعة بين سواحل أنجولا وموزمبيق ولذلك بدأت الحكومة البريطانية فى التحرك لمساندة البعثات التبشيرية فى نياسالاند خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن الماضى ،وعندما بدأت المستعمرات الأوروبية الصغيرة المتناثرة تتبعثر مع السكك الحديدية التى مدها سيسيل رودس من الكاب إلى أرض الميتابيل وما وراءها فإنهم وجدوا المكتشفين والجنود والموظفين البرتغاليين يعترضون طريقهم .

— ١٥ —

القرن التاسع عشر

شرق أفريقيا وشمالها الشرقى

لم يكن العامل الخارجى الرئيسى خلال ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر أوروبياً ، بل عربياً ومصرياً . فقد شهد نصف القرن الأول تكتل الشعوب المتحدثة بالسواحيلى المستعربة من رأس ديلاجدو إلى لامو فى شرق إفريقية ، وسكان المدن الصوماليين المستعمرين فى جنوبى بلاد الصومال ، تحت سلطان آل بو سعيد فى عمان ، على الشاطئ الغربى للخليج الفارسى . وقد استمرت هذه السيادة نظرياً منذ تحرير عمان للساحل من سلطة البرتغال فى نهاية القرن السابع عشر ، غير أن هذه السلطة كانت فى أول الأمر قوية على يد حاكم قوى موهوب ، كان قد اغتصب السلطة لنفسه ، هو الإمام سيد سعيد ، الذى حكم عمان ، أو على الأقل عاصمته مسقط من عام ١٨٠٦ إلى ١٨٥٦ .

فبعد أن بنى لنفسه أسطولا صغيراً قوياً ، توجه سعيد إلى الساحل ليستعيد سلطته بطلب الولاء لنفسه ، ثم بطلب الجزية وجمع الضرائب من مجتمعات المدن الساحلية . وقد اختار زنجبار لقاعدة عملياته فى شرق إفريقية ، كما بدأ زراعة القرنفل فى الجزيرة ، ذلك النبات الذى أدخل على السواحل من ملكا ، والذى أنتجت منه زنجبار ثلاثة أرباع المحصول العالمى مما يدل على نجاح زراعته بها . وما أسرع أن أصبحت زنجبار تحت سلطان سعيد المخزن التجارى الكبير لساحل شرق إفريقية كله ، وملتقى كل السفن الأجنبية ، والسوق الكبيرة التى تصدر منها حاصلات الداخل من رقيق وعاج والتى تستورد

منه السلع المصنوعة ، من الأقمشة والأسلحة النارية والذخائر وغيرها ، من الهند وأوروبا وأمريكا . وكان سعيد يزيد من فترات بقائه فى الجزيرة حتى اتخذها عام ١٨٤٠ عاصمة له نهائياً . كما استقر بها حوله طبقة من التجار العرب الأثرياء ، ملاكاً لمزارع القرنفل فى زنجبار وبمبا ، بينما غيرهم بتشجيع سعيد – بدأوا يجربون حظوظهم فى تجارة الداخل ، مستخدمين رءوس أموال الهنود فى شراء البضائع وتحميل القوافل وتسييرها نحو الداخل حيث يغيبون نحواً من عام أو أكثر فى كل مرة :

ولم يكن عرب زنجبار أو سواحلها التجار الوحيدين الذين يتوغلون فى شرق إفريقية مسافات طويلة ، كان شعب انيامويزى فى وسط تنجانيقا الغربى هم الذين ارتادوا الطرق المؤدية إلى زنجبار ، وقد احتفظ هؤلاء الانياماويزى خلال القرن التاسع عشر بمكانتهم الهامة فى تنشيط تجارة هذه المنطقة. وكانوا هم الذين شقوا طريق التجارة غرباً حتى مملكة لوندا كازمبير فى كاتانجا الجنوبية من العشرينات إلى الثلاثينات فى القرن الماضى ومن المحتمل جداً أنهم أيضاً هم الذين نظموا التجارة المتزايدة الأهمية مع الممالك الكبيرة التى كانت فى غرب بحيرة فكتوريا مثل كاراجوى ، وبوجندة ، وبونبورو من أواخر القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر . ولم يكن يفوق هؤلاء الإفريقيين كحمالين شعب آخر ويذكر لنا الرحالة الأوروبيون ، كيف يمرن الطفل منهم ، منذ نعومة أظفاره على حمل الأشياء الصغيرة ، والشاب منهم يستطيع السير مسافات طويلة بخفة كبيرة . وكانوا يستغلون أرباحهم فى شراء الرقيق الذين يحرثون الأرض ، بينما يسافر أسيادهم حاملين للبضائع خارج حدود وطنهم :

وقد فاق العرب هذا الشعب الإفريقى فى التجارة ، لأنهم أحسن منهم نظاماً وأكثر مالا : فبينما اقتصر الانياماويزى على تجارة المنسوجات وعقود الخرز ، فإن عرب السواحل استطاعوا أن يحملوا تجارة الأسلحة النارية

والذخائر التي أقبل عليها الحكام الإفريقيون بشغف شديد . وقد أسس العرب إلى حد ما نظاماً سياسياً فى الداخل . فكانت هناك فى بعض النقط الرئيسية القليلة مثل تابورا فى إقليم نيامويزى وأوجيجى على بحيرة تنجانيقا مخازن تجارية منظمة حيث كان للعرب حقوق تشبه الامتيازات الأجنبية ، وكانت هناك حالات معينة استطاع فيها العرب أن يقهروا الحكام المحليين ويستولوا على السلطة ، مثل غرب تنجانيقا وانياموبزى أيضاً .

غير أن هذه كانت أحوالا شاذة ، إذ كان العرب – عامة – يحصلون على ما يريدون من رقيق وعاج عن طريق التجارة وليس عن طريق القوة . وكانوا يسلحون الحكام الوطنيين وهؤلاء يقومون ببقية المهمة . وكانت النتيجة لهذا أن أصبح القوى أكثر قوة على حساب الضعيف الذى ازداد ضعفاً . ففى جنوب تنجانيقا طغى زعماء ياو الأقوياء على جيرانهم المستضعفين الساكنين على شطآن بحيرة نياسا . وفى أوغندا أطلق كباكات بوجندة جيوشهم القوية بين السوجا العزل شرق بلادهم ، وبين دول الهايا فى الجنوب . وكان هؤلاء يبيعون رقيقهم للتجار العرب بأسعار مغرية ، ويأخذون فى مقابل ذلك أسلحة لمعسكراتهم وملابس يجزون بها جنودهم ورجال بلاطهم وموظفيهم .

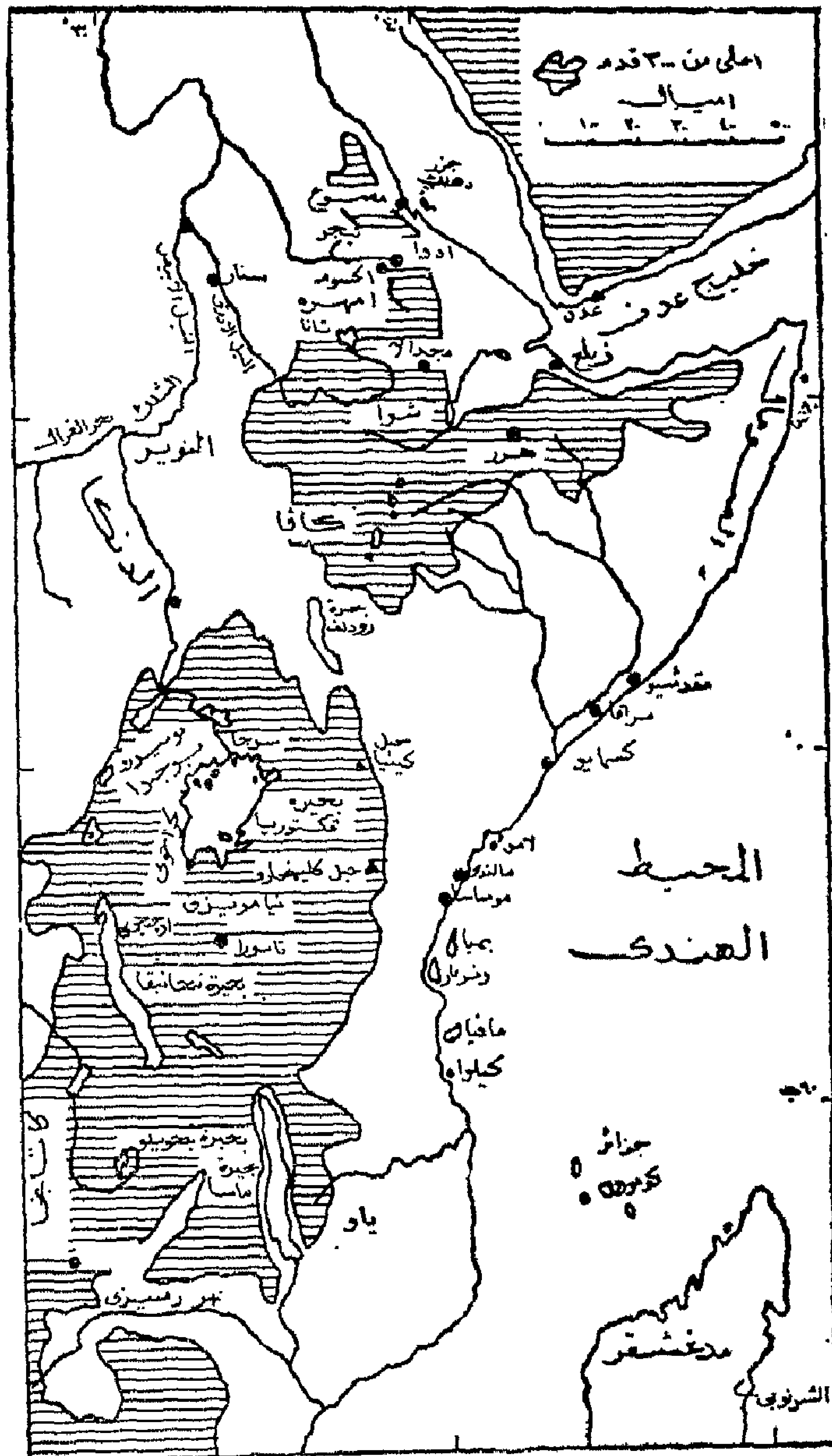
وفى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات من القرن الماضى ، تقابل فى أوغندا نطاق نفوذ زنجبار التجارى الممتد من الساحل الشرقى ، مع منافس آخر قادم من الشمال . وكان هذا هو نطاق النفوذ المصرى أو التركى كما أطلق عليه القادم من الخرطوم . وكانوا تركاً باعتبارهم تحت ولاية سلطان تركيا الذى يدين له الخديو بالولاء ، بينما كان الخديو فى نفس الوقت يحكم السودان . ولقد غزا محمد على السودان عام ١٨٢٠ وأسقط سلاطين الفرنج فى سنار وأقام حاكماً مصرياً فى الخرطوم عاصمة السودان الجديدة . وكان غرضه الرئيسى من هذا أن يسيطر على تجارة الرقيق فى النيل الأبيض ، وأن يضمن مورداً من الرقيق الأسود للجيش المصرى . فكانت تجارة الرقيق عملا رسمياً

للحكومة[1]، واستغرقت حملات محمد على جنوبى الخرطوم ثلاثين عاماً ، غزا فيها بلاد الدنكا والشلوك والبارى . وأقيم مركز حربى مصرى فى غندكرو فى تاريخ سابق لعام ١٨٣٩ . وهى نقطة قريبة من حيث يخرج النيل الأبيض من حدود أوغندا الحالية . وفى الخمسينات نشأت بيوت تجارية أهلية مركزها الخرطوم لم تأخذ من الحكومة تجارة الرقيق فحسب ، بل تجارة العاج الأوسع انتشاراً وكان أسلوب هؤلاء التجار حربياً أكثر منه تجارياً . فكانت الفرق المدججة بالسلاح تغير على القرى وتحاصر الماشية وتستولى عليها رهائن حتى يعود أهلها بالعاج والرقيق والغذاء والشراب وكانت هذه الحملات تضرب غرباً على طول بحر الغزال وروافده . وجنوباً فى أوطان النيلوتيين من جنوب أوغندة . وقد استولت على أهل الخرطوم الدهشة عندما وجدوا منافسيهم من الزنجباريين يدفعون ثمن ما يحصلون عليه بضائع ملموسة ، وكان هذا أمراً لا يستطيعون قط مجاراتهم فيه . حيث أن خطوط مواصلاتهم بقاعدتهم طويلة جداً .

بعد احتلال البرتغال لشرق إفريقية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كان أول ضغط أوروبى للوصول إلى أى بقعة فى شرق إفريقية مصدره اهتمام الحكومة البريطانية فى بومباى بتجارة سلطنة مسقط وزنجبار الذى لم يكن منه مفر . فقد عقد البريطانيون أول معاهدة لهم مع خلفاء السيد سعيد فى عهد تهديد نابليون للشرق الأوسط والهند ، وكان مما يناسبهم تماماً أن تمد سلطة شرقية نفوذها على الساحل الغربى للمحيط الهندى ، فالعرب أهون من

---

(١) لم يكن غرض محمد على من فتح السودان السيطرة على تجارة الرقيق ولم تشتغل الحكومة المصرية قط بهذه التجارة ، وإن لم تحرمها قانوناً . وإنما كان من أهداف حملة السودان هو تجنيد السودانيين فى الجيش المصرى الجديد . وقد لجأ محمد على إلى أبناء مصر من الفلاحين بعد أن فشلت تجربة تجنيد السودانيين . غير أن الحكومة المصرية أدخلت المدنية وحكم القانون والإسلام إلى أعالى النيل ، فدخل كثير من أهل السودان الجنوبى مثل الدنكا الجندية ، وكونوا فرق الجهادية المعروفة واعتنقوا الإسلام ، ووصل بعضهم إلى مراكز عالية فى الجيش المصرى ، وكانوا أحراراً وليسوا عبيداً . (المترجم)



شرق وشمال شرق افريقيا في القرن الثامن عشر

(شكل ١٤)

الفرنسيين بالنسبة لهم : ومن ناحية أخرى فإن الوحدة السياسية تسهل الظروف التى تتم فيها التجارة كما تسهل العلاقات الدبلوماسية . فلقد كانت أكبر عقبة فى محاربة تجارة الرقيق على الساحل الغربى تفتت هذا الساحل بين عدد لا حصر له من الرؤساء والزعماء والوحدات السياسية الذين يجب أن يتفق معهم ، فسلطة السيد سعيد إذن على شرق إفريقية ، هيأت الظروف المواتية لبريطانيا للتعامل مع تجارة الساحل الشرقى ولإنشاء منطقة نفوذ بريطانية واحدة عن طريق السيطرة على رجل واحد فى المنطقة ، وقد حصل البريطانيون عام١٨٢٢ ، عندما كان سعيد لا يزال فى مسقط على معاهدة تحدد فيها تجارة الرقيق وتقصرها على السواحل الغربية للمحيط الهندى ، وكان الهدف من هذا منع إدخال هذه التجارة فى الهند البريطانية . وعندما انتقل سعيد إلى زنجبار عام ١٨٤٠ تأسست أول قنصلية بريطانية فى شرق إفريقية فى بلاطه ، وبعد ذلك بخمس سنوات حددت معاهدة أخرى تجارة الرقيق وقصرتها على أملاك السلطان الإفريقية ، وفى عام ١٨٦١ بعد وفاة السيد سعيد بخمس سنوات انقسمت السلطة ، فاستقل أحد الأبناء بمسقط والآخر بزنجبار . وأخيراً فى عام ١٨٧٣ وقع السلطان برغش سلطان زنجبار تحت تهديد الأسطول البريطانى ، معاهدة تحريم تجارة الرقيق فى أملاكه كلها . فأغلق سوق الرقيق الكبيرة فى زنجبار ، وقامت كاتدرائية مسيحية مكانها .

كان لهذه السنوات الخمسين من الجهود البريطانية الدبلوماسية والحربية أثرها بلا شك على تجارة الرقيق وتصديره من شرق إفريقية إلى الأسواق الآسيوية السابقة ولم يكن لها أى أثر فى شرق إفريقية . فقد كانت تجارة الرقيق فى زنجبار وبمبا ، وفى منطقة الساحل وظهير ، مشروعة حتى عام١٨٧٣ : واستمرت هذه التجارة بعد ذلك عدة سنوات حتى أصبح الرق غير مشروع فى العهد الاستعمارى . وأكثر من هذا فإن تجارة العاج ازدادت اتساعاً عاماً بعد عام حتى بعد إلغاء تجارة الرقيق . وكان البحث عن العاج ، أكثر من البحث عن الرقيق ، هو الذى جذب سكان السواحل ، عاماً بعد آخر وتوغل

بهم نحو الداخل أبعد فأبعد . إلا أن الرق ، وما تبعه من شرور كان قريناً لا مناص له بتجارة العاج . فصيد الفيلة يحتاج لأسلحة وذخائر ، وهذه يمكن استخدامها أيضاً فى شن الغارات ، ونقل العاج كان يتم فوق رءوس الحمالين ومعظم هؤلاء كانوا رقيقاً . وقد لا يعبر هؤلاء البحار الواسعة نحو أسواق خارجية ، ولكن برغم هذا فلا بد وأنهم أزيحوا عن أوطانهم بالقوة ثم بيعوا أخيراً لزعيم انياموزيزى فى الداخل أو لأحد أصحاب الحوانيت السواحليين على الساحل ، أو لعربى يمتلك مزرعة قرنفل فى بمبا أو زنجبار . ولم يكن هناك فى الحقيقة مقابل لزراع نخيل الزيت فى شرقى إفريقية . فالحملة الأوروبية على تجارة الرقيق عابرة البحار وتقوية العلاقات التجارية مع زنجبار ، لم تؤد إلا لزيادة استغلال السلعة الوحيدة القابلة للتصدير ، والتى تستطيع أن تتحمل تكاليف نقلها نحو الساحل وكانت النتيجة لهذا اتساع نطاق عمليات رجال الساحل فى الداخل :

وتكررت القصة نفسها فى النطاق المصرى : فقد اضطرت بريطانيا لممارسة ضغطها فى مصر بشكل أكثر سفوراً منها فى زنجبار . وبرغم هذا فأبناء محمد على الثلاثة الذين خلفوه على حكم مصر ، كانوا مسايرين إلى حد ما الروح الإنسانية السائدة فى أوروبا المعاصرة . وربما أوقفوا تجارة الرقيق إذا استطاعوا فقد أصدروا القوانين ضد هذه التجارة ، وسار الخديو إسماعيل أبعد من هذا ، فاستخدم أول مكتشف أوروبى وهو صمويل بيكر ، ثم الجنرال جوردون كحكام عامين ، بأمل إدخال سياسة جديدة . وفى الواقع كانت السياسة الوحيدة التى يمكن اتباعها ، هى إخضاع المنطقة كلها تحت النفوذ[1] البريطانى إذا وجد المال اللازم الذى يمكن أن يصرف عليها . ومثل هذا المال

---

(١) لم تكن محاولات بريطانيا المتكررة لإخضاع مصر جزءاً من سياستها فى منع تجارة الرقيق فحملة فريزر على رشيد (١٨٠٧) كانت سابقة فى الزمن لفتح مصر للسودان (١٨٢١) وقد تحدث المؤلف نفسه عن أطماع بريطانيا فى مصر منذ أيام الحملة الفرنسية ، وتجنبها الفرص للتدخل فى شئون البلاد بعد ذلك . (المترجم)

اللازم – على الأمد الطويل – أمكن الحصول عليه بعد إدخال الوسائل الآلية فى المواصلات ، وإدخال المحاصيل الزراعية النقدية فى الداخل . أما بالنسبة للأمد القصير ، فإن مثل هذا المال لم يحصل عليه إلا بتجارة العاج التى كانت – على الأقل – مهلكة بالنسبة للمجتمعات الضعيفة الموجودة فى جنوب السودان ، مثل تجارة الرقيق تماماً .

وقد حاول بيكر أن يسيطر على تجارة العاج بدفع الحدود المصرية إلى الجنوب من غندكرو إلى ما يسمى الآن بأوغندا الشمالية . ولاقى فى ذلك نجاحاً محدوداً . وقد أدرك غوردون الذى خلفه كحاكم للمديرية الاستوائية الحقيقة الأساسية الهامة الآتية : وهى أن الجنوب أقرب منالا من الساحل الشرقى منه من الشمال . وقد أرسل إسماعيل بمشورة غوردون حملة بحرية لاحتلال ميناء كيسمايو على الساحل الشرقى دون أى اعتبار لأملاك زنجبار التى كان يغزوها فى الواقع . وقد أقنعته الدبلوماسية القنصلية البريطانية عند وصول البعثة ، بأن يعقد معاهدة سلمية ، وفى الوقت نفسه ، فشل غوردون وهو فى ذيل خطوط مواصلات طويلة مرهقة فى إخضاع ممالك بوغندا ، وبونيورو لسلطان مصر . وهكذا باءت محاولات مصر للتوغل جنوباً بالفشل ، قبل أن تضع ثورة المهدى سنة ١٨٨١ نهاية لحكم مصر فى السودان عموماً .

ومن الممكن أن يقال إن كلا من النطاق المصرى والنطاق الزنجبارى كان يمثل انتصاراً للأسلحة النارية الأوروبية الصنع على السهام والحراب الإفريقية . فكان امتلاك الأسلحة النارية هو الذى أعطى كلا من هؤلاء العرب الثقة بالتقدم بجسارة بين السود الكفرة وكانت هذه الأسلحة النارية هى التى مكنتهم لمجابهة أى قوة سياسية إفريقية منظمة تعترضهم وكان وجود هذه الأسلحة النارية فى تجارتهم هى التى مكنتهم من التفوق فى أى منافسة مع أى تجار أفقر منهم وأقل نظاماً .

بين النطاقين المصرى والزنجبارى ، نمت خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر منطقة نفوذ ثالثة هى منطقة الحبشة المسيحية ، التى لم تكن أقل

نجاحاً من المسلمين في الشمال والشرق في استغلال جيرانها الوثنيين الضعفاء . وقد بدأ التوسع الأثيوبي في وقت متأخر بالنسبة لمصر وزنجبار ، حيث ازدادت الفوضى الداخلية مع الأيام سوءاً منذ منتصف القرن الثامن عشر . وفي منتصف القرن التاسع عشر تحطمت المملكة وتفتت إلى ولايات عديدة ، وقام أباطرة متنافسون . ثم استطاع الرأس كاسا وهو بارون نهاب في منطقة الحدود الشمالية الغربية من أن يتوج نفسه إمبراطوراً في اكسوم عام ١٨٥٥ باسم الإمبراطور تيودور ، وكان هذا الإمبراطور هو الذى استطاع أن يؤسس ما يمكن أن يقترب من الجيوش الحديثة ، وبذلك استطاع أن يستعيد السيطرة على الجالا الوثنيين الذين كانوا يكثرون من الإغارة على جنوبي المملكة وجنوبها الغربي منذ نهاية القرن السادس عشر . وكان تيودور هو الذى بدأ حركة إعادة توحيد تيجرة وأمهرة في الشمال . بولاية شوا الجنوبية . غير أن سوء معاملته لرسولين بريطانيين قد أثار عليه أول تدخل أوروبي في إقليمه منذ القرن السادس عشر ، فأرسلت حملة سير روبرت نابيير عام ١٨٦٧ نحو قلعة مجدلا ، حيث هجره معظم رجاله فأطلق تيودور على نفسه النار .

وقد أحدث تفوق أسلحة نابيير على الأثيوبيين تأثيراً عميقاً ، وليس فقط على خلفه الإمبراطور يوحنا الرابع ، وهو زعيم تيجراني استطاع أن يشق طريقه إلى العرش بمعاونة أسلحة البريطانيين التى حصل عليها ثمن معاونته في حملة مجدلا ، بل أيضاً على أحد أتباعه ، منليك ملك شوا ، الذى استطاع أن يجعل نفسه من القوة بحيث أجبر يوحنا على الاعتراف به خلفاً له سنة ١٨٧٨ . وبينما كان منليك ينتظر دوره للارتقاء إلى العرش ، كان يكدس لنفسه رصيداً ضخماً من الأسلحة الأوروبية من كل مكان يستطيع الحصول منه على أسلحة فحصل أيضاً من الإيطاليين على أسلحة ، هزمهم بها في معركة عدوة عام ١٨٩٥ . كما كان يقوم بنفس الشيء الذى كان يقوم به معاصروه من الحكام الإفريقيين الناجحين ، فكان يستخدم العاج للحصول على الأسلحة النارية ، والأسلحة النارية للحصول على مزيد من العاج . وفي أثناء ذلك كان يوسع

حدود مملكته شرقاً وجنوباً وغرباً على حساب آفار وصومال وهررو وأوجادين ، وحساب الجالا فى الجنوب ، والكافا وممالك سيداما التى كان يحتلها الجالا فى الجنوب الغربى . ويرى الأوروبيون أن منلك حالة استثنائية فهو أحد المتكالبين على إفريقية من الإفريقيين أنفسهم . وفى الحقيقة ، فإن منلك ملك الحبشة قام من منلك شوا ، الذى لم يختلف كثيراً عن موتيسا البوجندى ، أو كاباريجا البونيورى أو مسيرى الكاتنجى .

هذه هى الخطوط البارزة الهامة للأحوال التى سادت شرق وشمال شرق إفريقية فى الوقت الذى بدأ فيه المكتشفون الأوروبيون رحلاتهم فى إفريقية ، وبدأوا فيه ينشرون مذكرات رحلاتهم للعالم الغربى ، يضعون فيه أول وصف للقارة . فهذه هى الحال عندما بدأت جماعات قليلة من المبشرين المسيحيين ينشئون محلاتهم الأولى على الساحل وفى الداخل ، ويجمعون حولهم جماعات صغيرة (معظمهم من الرقيق المحررين) الذين أصبحوا أول المعتنقين للمسيحية ولكنهم أيضاً قاموا بدور لا بد منه كمستشارين للزعماء الإفريقيين الذين كانوا ينظرون لهم وللعرب أيضاً كمصدر لمعرفة ما يحدث خارج شرق إفريقية . وكانت هذه هى الظروف التى قام فيها القناصل البريطانيون والفرنسيون بتنفيذ أهدافهم المحددة ، وفرض نفوذهم القومى ومصالحهم من قواعدهم فى القاهرة وزنجبار .

ولم تكن هناك حتى الآن أى نوايا أوروبية واضحة على أنهم ينوون التكالب على إفريقية وتقسيمها ، ومن ثم فمن الخطأ الجسيم أن نعتبر المرحلة الثانية نتيجة لازمة للمرحلة الأولى . فاللوثة الدولية التى أدت إلى تقسيم القارة لم يكن سببها الدول الأوروبية القليلة التى كان قد أصبح لها فعلا مصالح فى إفريقية المدارية ، ولكن سببتها الدول التى دخلت المعركة فجأة ولم تكن لها مصالح إفريقية من قبل . ولو لم تتدخل مثل هذه الدول لكان من المحتمل أن تستمر الأحوال التى سبقت التقسيم على ما هى عليه فترة من الزمن ، فقد كان فى كل من شرق إفريقية وشمالها الشرقى مجتمعات مستعدة لأن تتعلم من أوروبا

دون أن تطويها الموجة الأوروبية ، وكان فى استطاعتها أن تتعــامل مع ظروف القرن التاسع عشر وأن تستفيد منها . ولو لم يكن هناك تدخل أوروبى صريح ، لاستطاع النفوذ العربى أن يتكتل فى الساحل الشرقى وفى السودان الشمالى ، بل وفى السودان الجنوبى وفى أجزاء كثيرة أخرى من شرقى إفريقية والكونغو . وكان هذا نتيجة استعمار مقصود بوساطة جماعات حاكمة أجنبية ، ولكنه كان سيحدث أيضاً نتيجة اتصالات تجارية وممارسة نفوذ سياسى مما كان سيؤدى إلى استخدام النظم المحلية ، كما حدث فى السودان فى أوقات سالفة ، ومن المشكوك فيه إن كانت البعثات التبشيرية بقادرة على وقف التوسع الإسلامى فى أوطان ثبت المسلمون نفوذهم فيها . ولو تأخر التدخل الأوروبى الواسع النطاق خمسين سنة أخرى لما أصبح الثلث الشمالى من القارة إسلامياً فقط ، بل لأصبح ثلثاها أيضاً جزءاً من العالم الإسلامى كذلك .

— ١٦ —

التكالب الاوروبى على المستعمرات الافريقية

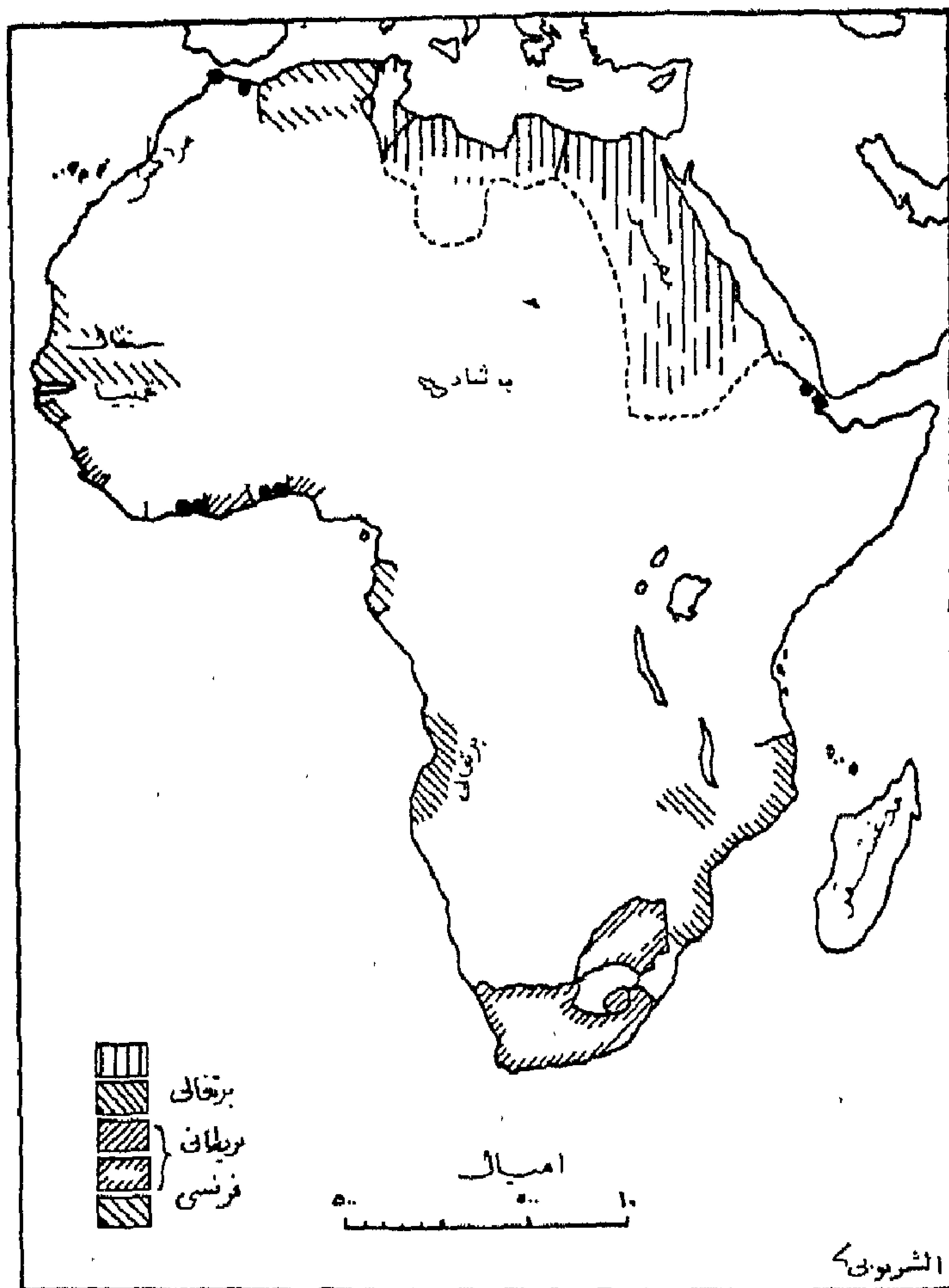
رغم ازدياد تفوق الدول الغربية بمقارنتها مع غيرها من دول العالم ، فإن جزءاً صغيراً من القارة فقط هو الذى كان تحت السيطرة الأوروبية عام ١٨٧٩. فالجزائر أصبحت فرنسية غير أن بقية شمال إفريقية لم تكن قد خضعت بعد للنفوذ الأوروبى ، فيما عدا بعض بوادر التدخل الأوروبى فى مصر وتونس . وفى غرب إفريقية حيث كان للأوروبيين معاملات تجارية مع شعوب السواحل منذ أربعة قرون ، لم تكن هناك مستعمرات سوى السنغال الفرنسى وساحل الذهب البريطانى . ولم يتوغل النفوذ الأوروبى سوى بضع عشرات من الأميال فى الداخل إلا فى السنغال . أما المستعمرات البريطانية فى غامبيا وسيراليون ولاجوس فلم تكن إلا نقطاً صغيرة فى عالم لا يزال يحكمه الإفريقيون . أما فى الإقليم الذى أصبح غينيا البرتغالية فكان هناك نفوذ برتغالى ولم يكن هناك حكم برتغالى إلا بالكاد . ولم تتكون المستعمرة الفرنسية على الجابون إلا من محطة بحرية صغيرة وجماعة من الرقيق المحررين فى ليبرفيل وذلك جنوب خليج بنين . وفيما عدا خمس أو ست مدن ساحلية ، فإن أنجولا وموزمبيق البرتغاليتين لم تكونا مستعمرات بالمعنى المعروف ، بل مناطق نفوذ تجارية غير محددة ممتدة إلى الداخل .

حتى الساحل شمال موزمبيق ، لم يكن قدمسته دولة أوروبية . وكان النفوذ الدبلوماسى البريطانى قوياً فى زنجبار ، وكان الفرنسيون يحتلون كوموروس وكانت لهم موطئ قدم فى مدغشقر . أما فى الأرض الداخلية ذاتها فلم يرتفع

أى علم أوروبى إلا فى أقصى الشمال الشرقى وكان هذا نتيجة شق قناة السويس، الذى دفع الفرنسيين أن يحتلوا الساحل الصومالى القفر عند ابوك Obok ليكونوا فى مقابل البريطانيين فى عدن . أما التوغل الأوروبى العميق فى القارة فلم يكن إلا فى جنوب إفريقية ، وهنا عقد الأمور تنافس المستعمرات البريطانية على الساحل والأفريكانر (البوير) فى الداخل وعدائها .

وبرغم هذا فلم تكد يمضى عشرون عاماً من القرن العشرين حتى كانت الدول الأوروبية تفرض سيادتها على ما يقرب من أربعين وحدة سياسية قسمت إليها القارة ، فيما عدا حالات ست ، أربعا منها كان استقلالها اسمياً وليس حقيقياً . ولم يكن تقسيم إفريقية بين الدول الأوروبية فى القرن التاسع عشر نتيجة ضرورية لاكتشاف الأوروبيين للقارة فى خلال ثلاثة أرباع هذا القرن الأولى . فقليل جداً من المكتشفين ، هم الذين أرسلتهم دولهم يتجسسون ويجمعون المعلومات لإعداد حملة حربية . ومن المحتمل أن نقول إنه لم يكن هناك مبشر واحد يتخيل نفسه فى خدمة رأس الحربة الاستعمارية . وأما فيما يتعلق بالحوافز الاقتصادية التى يتحدث عنها الكتاب الماركسيون ، فإنها لم توجد إلا بالنسبة للدول الأوروبية التى لم يكن لها نصيب من مستعمرات إفريقية ، ولم يكن لها سوى نفوذ تجارى ضئيل فيها ، أكثر ما كانت بالنسبة للدول التى أسست لها مصالح تجارية فى القارة . وقد كان تقسيم القارة أساساً نتيجة لظهور دولة أو اثنتين من الدول التى لم يكن لها مصالح فى إفريقية ولم تظهر على مسرح الحوادث فيها . فهذا التنافس هو الذى قلب ميزان القوى والمصالح ، وهو الذى أوجد لوثة دولية أصابت كل الدول فاندفعت تنهب جسم القارة وتفرض سيادتها ، وتدخل فى مساومات ضارية بعضها مع البعض الآخر لتعترف بهذا الجزء أو ذاك لهذه الدولة أو تلك :

وأول عامل جديد ظهر على المسرح الإفريقى ، لم يكن دولة بالمعنى الدقيق ، بل كان ملكاً أوروبياً يتصرف لحسابه الخاص ، برغم أنه استخدم صفته كملك لكى يمسك بالخيوط الدبلوماسية الدولية فى سبيل مصلحته الخاصة



افريقيا سنة ١٨٧٩

(شكل ١٥)

فالملك ليوبولد الثانى ملك البلجيكيين ، كان شخصاً ذا مطامح ومقدرات كبيرة تفوق طبيعة البلد الصغير الذى ولد ليحكمه ، وقد بدأت مطامعه فى إنشاء إمبراطورية واسعة وراء البحار فى الخمسينات والستينات من القرن الماضى عندما سافر إلى مصر دوقاً لبرابانت ، وشاهد ثغرات محتملة فى أماكن بعيدة مثل فرموزة ، وساراوك ، وفيجى وهبرديز الجديدة . وعندما ولى العرش عام ١٨٦٥ بذل جزءاً كبيراً من جهده فى دراسة اكتشاف إفريقية . وأصبح مستعداً للعمل بعد ذلك بعشر سنوات ، فاستتّر وراء الجمعية الإفريقية الدولية التى تكونت عام ١٨٧٦ لتنشئ عدداً من المحطات العلمية والتجارية عبر وسط إفريقية من زنجبار حتى الأطلنطى . وكان لا بد من وضع حراس على هذه المحطات ، وأصبح عليها أن تخدم كقواعد تهاجم تجارة الرقيق وتحمى الإرساليات التبشيرية المسيحية . وكان أول بعثتين كشفيتين للجمعية قد دخلتا القارة من زنجبار عام ١٨٧٨ و ١٨٧٩ وارتبطتا بمحطات البعثات التبشيرية للآباء البيض فى تابورا وبحيرة تنجانيقا . ومنذ هذه اللحظة تحولت أنظار ليوبولد بازدياد نحو الساحل الغربى لإفريقية البانتو . فأكمل ستانلى عام ١٨٧٧ رحلته عبر القارة من المحيط إلى المحيط بأن هبط مع نهر الكونغو ، ودخل فى خدمة ليوبولد عام ١٨٧٩ ، وفى خلال خمس سنوات بعد ذلك أنشأ شبكة مواصلات برية ومائية من مصب نهر الكونغو الخليجى إلى شلالات ستانلى ، مسافة تزيد على ألف ميل حتى ستانلى فيل الحالية .

وفى الوقت ذاته كان ليوبولد يعمل جاهداً لكى تعترف الدول رسمياً بحكمه لحوض الكونغو بأكمله . وبرغم أنه كان يقصد إلى أن ينمى مستعمرته على أساس احتكار تجارته احتكاراً محكماً إلا أنه نجح فى أن يقنع معظم الدول الأوروبية بأنه من الأفضل أن يصبح حوض الكونغو منطقة تجارية حرة تحت نظامه « الدولى » من أن يقع فى يد الدول المتنافسة . وقد أقر الجميع بمهارة ليوبولد الدبلوماسية . إلا أن أحداً لم يفطن إلى ما أثارته مهارته من تبادل عدم الثقة والشكوك بين الدول الأوروبية فى الأمور الإفريقية كلها . ومن المحتمل

أن يكون ليبولد أكثر من أى شخص آخر هو المسئول عن خلق « جو التكالب » على إفريقية .

أما الدولة الأخرى التى دخلت فى الميدان فكانت ألمانيا . فقد استطاعت بالسرعة والانقضاض خلال ثمانية عشر شهراً من نهاية ١٨٨٣ حتى بدء ١٨٨٥ من أن تقتطع لنفسها أربعة أجزاء متباعدة من القارة هى جنوب غرب إفريقية ، وتوجولاند ، والكمرون وشرق إفريقية وكان هذا النشاط الألمانى هو الذى أطلق التكالب على أشده وجعل الدول الأوروبية تتسابق فى اقتطاع أجزاء القارة حتى تم تقسيم القارة كلها . ومن ثم فمن الملاحظ أن البحث التاريخى الحديث قد بين أن ألمانيا لم تدخل إفريقية أساساً لإشباع نهمها الإمبراطورى فحسب ، ولكن تنفيذاً لخطة أرادت بها أن تحول تيار المنافسة الفرنسية من أوروبا وتحول أنظار فرنسا إلى ميدان تلعب فيه ألمانيا دور الوسيط بين فرنسا وبريطانيا .

وكان مفتاح هذا الموقف فى مصر حيث تحطمت الرقابة المالية الإنجليزية الفرنسية أمام ثورة الجيش المصرى التى قادها عرابى باشا أعظم قادة الجيش برضاء خفى من الخديو توفيق ، وقد اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا على تنسيق العمل بينهما لتحطيم عرابى ، ولكن عشية تنفيذ هذه المؤامرة ، منعت إحدى الأزمات الداخلية الحكومة الفرنسية من الإسهام فى هذا العمل ومن ثم غزت الجيوش البريطانية مصر عام١٨٨٢ ، وظلت بها ، برغم الوعود المتكررة بالانسحاب وظل البريطانيون حكام مصر الفعليين ، وليس الشرعيين حتى إعلان الحماية البريطانية عام ١٩١٤ . وقد أثار استمرار الاحتلال البريطانى لمصر ثائرة فرنسا وشجعها على أن تنمى إمبراطوريتها فى غرب إفريقية . وهذا لاءم ألمانيا تماماً ، وأعطى الألمـــان وسائل مضايقة البريطانيين ، دون أن تؤيد فرنسا علانية ، لأن بريطانيا لم تتمكن من أن تحكم مصر إلا بتأييد أغلبية الدائنين الممثلين فى صندوق الدين ، وهذه الأغلبية ألمانية . ولقد أيدت ألمانيا الحكم البريطانى لمصر فى أثناء سنى تقسيم إفريقية ، ولكن على حساب

موافقة بريطانيا على ما تقدم عليه ألمانيا فى أنحاء القارة كلها . وبهذه الوسيلة يمكن أن ينسى موضوع الإلزاس واللورين الصعب فى خضم المنافسة الإنجليزية الفرنسية على أرض إفريقية .

تلك إذن كانت دوافع التكالب فقد أضيف إلى الدول الثلاث ذات النشاط الساحلى الإفريقى – بريطانيا وفرنسا والبرتغال – دولتان أوروبيتان أخريان ، إحداهما ممثلة فى ملك أوروبى يريد إمبراطورية شخصية ، والأخرى أقوى دولة فى القارة الأوروبية تريد أن تلهى أحدث ضحاياها وتستهلك قواها فى مغامرات استعمارية . وكان لا بد للتقسيم أن يتم فى هذه الظروف . وكان الملك ليوبولد هو الوحيد من بين هذه الدول الخمس المتعطش لبناء إمبراطورية قارية كبرى . ولم يكن أحد من الباقين على استعداد للوقوف موقف المتفرج وغيره يقتطع أجزاء من القارة لنفسه . أما بالنسبة لأسبانيا وإيطاليا فكانت المسألة مسألة وقت لكى يدخلا المعمعة . ولم يكن تقسيم إفريقية إلا انعكاساً للسياسة الأوروبية على إفريقية ولم تحمل الخريطة الجديدة لإفريقية إلا القليل من نشاط الأوروبيين السابق فى إفريقية .

ومن الغريب أن الملك ليوبولد كان أول من تلقى اعترافاً دولياً بإمبراطورية إفريقية ، وعندما عارض التجار البريطانيون الذين اشتغلوا بتجارة الكونغونية حكومتهم للاعتراف بحق البرتغال فى الكونغو الأسفل عام ١٨٨٤ غيرت البرتغال وسيلتها ولجأت إلى طلب تأييد فرنسا وألمانيا . وقد وافقت فرنسا على اقتراح بسمارك الخاص بتسوية مسألة الكونغو فى مؤتمر دولى ببرلين وذلك لمضايقة بريطانيا . وقبل أن ينعقد المؤتمر انضمت فرنسا (التى عقدت اتفاقاً مع الملك ليوبولد بمقتضاه حصلت على حق استرجاع إمبراطورية الكونغو إذا تبين أن تنميتها فوق طاقة الملك) مع ألمانيا والولايات المتحدة فى الاعتراف « بدولة الكونغو الحرة » . وعندما انعقد المؤتمر لم يكن أمام الدول الأخرى سوى الاعتراف بهذا الوضع .

وقد أقر مؤتمر برلين قرارات ذات رنين عال فيما يختص بتجارة الرقيق والتجارة الحرة وعن الحاجة لتثبيت الاحتلال فى المستعمرات قبل البدء فى ضم غيرها . إلا أن مدة انعقاد المؤتمر وهى ستة أشهر قد شهدت أشهر عمليات الضم السريع فى تاريخ تقسيم القارة ، وكان ذلك على يد ألمانيا نفسها . فبينما كان المؤتمر منعقداً فعلا أعلن بسمارك أن حكومته تبسط حمايتها على تلك الأجزاء من شرق إفريقية التى حصل فيها كارل بيترز وجماعته على معاهدات مشكوك فيها من « زعماء مزعومين » خلال رحلة واحدة لم تستمر إلا أسابيع قليلة . ومن ثم بدا واضحاً للجميع أن لا بد من تقسيم القارة كلها . وعاد مندوبو الدول المختلفة من برلين فى أوائل عام ١٨٨٥ للتباحث مع حكوماتهم عن الأقطار التى يمكن أن يستغلوها أكثر من غيرها ، وكان منطق المصالح السابقة يبين أنه لا مناص للفرنسيين من أن يوسعوا إمبراطوريتهم الإفريقية من بروزها الغربى : وقد أوصلتهم حروبهم مع أحمدو التى بدأوها عام١٨٧٩ إلى أعالى النيجر عام ١٨٨٣ . وكان من الطبيعى أنه لا بد لهم أن يفكروا فى التوسع مع خطوط المواصلات التى تقدمها لهم الأنهار الكبرى . ثم يربطوا أقاليم فتحهم هذه بنطاق نفوذهم على الساحل . غير أن تقدمهم مع نهر النيجر كان بطيئاً فلم يصلوا إلى تمبكتو إلا عام ١٨٩٣ وكان السبب فى ذلك هو أن جناح الفرنسيين الغربى كان يقع فى إقليم ماندى ، حيث قامت ثورة قومية إسلامية بقيادة زعيمهم سـاموری ، الذى كان صادق العزم فى استعادة استقلال قومه التقليدى التاريخى . ولم يهزم ساموری نهائياً إلا عام ١٨٩٨ ، ولم يتمكن الفرنسيون من التقدم غرباً إلا قبل ذلك بسنتين .

وخلال الثمانينات كان مستقبل الفرنسيين فى الجابون غير واضح . وبرغم أن نشاط الملك ليبولد فى الكونغو الأسفل قد حفز الفرنسيين على الحصول على معاهدات عديدة مع زعماء المنطقة التى اكتشفها دى برازا ، فإنهم لم يبدأوا فى دفع حملاتهم شمالا ليصلوا إلى حدود غرب إفريقية الفرنسى عند بحيرة تشاد وشمالا بشرق حتى أوبانجى ليهددوا أعالى النيل إلا فى التسعينات .

أما استراتيجية بريطانيا في التوسع فلم تكن بمثل وضوح استراتيجية فرنسا . فقد كانت جنوبي إفريقية نقطة بدء للتوسع ، كما كانت منطقة اضطر فيها البريطانيون إلى الاعتراف باستقلال جمهوريات البوير ، والتي أصبحت تواجه التوسع الألماني الكبير في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة . وكان التوسع البريطاني شمالا يبدأ من الكاب ، ومن ثم إلى عنق الزجاجة في بتشوانالاند التي ضمت بسرعة عام ١٨٨٥ لمجابهة الألمان . وأكثر من هذا فإنه على الرغم من أن بريطانيا كانت مضطرة إلى معالجة مسألة تقسيم إفريقية دبلوماسياً ، وكانت تسعى للحصول على اعتراف الدول بسيادتها على الأقطار التي كانت تضمها فإنها كانت في جنوب إفريقية – في منطقة يقع العبء الأول في التوسع فيها على الأوروبيين المستعمرين للكاب . وكان أكثر هؤلاء نشاطاً هو سيسل رودس ، وهو مستعمر بريطاني كون ثروة طائلة من تكتيل مناجم الماس في كمبرلي (بإقليم جريكوالاند الغربية) وقداستجابت بريطانيا لإلحاحه فأعلنت عام ١٨٨٨ وجود منطقة نفوذ بريطانية ما بين بتشوانالاند وزمبيزي ، ثم أصدرت عام ١٨٨٩ مرسوماً ملكياً بندب شركة جنوب إفريقية البريطانية لصاحبها رودس للقيام بمهام الحكومة في هذه الأصقاع .

ومنحت امتيازات عديدة للشركات شمالي نهر الزمبيزي ، وكانت أغنى الأقاليم من الناحية التجارية تقع في غرب إفريقية . وكان هناك الكثيرون الذين ينادون بضرورة تضحية بعض المصالح في مقابل تقسيم هذا الجزء من القارة بين بريطانيا وفرنسا . وربما مر حين من الدهر في أثناء الثمانينات كان من الممكن فيه أن تتفق فرنسا مع بريطانيا على ترك جزء كبير متصل من غرب إفريقية يمتد من سيراليون حتى الكاميرون للحكم البريطاني ، ولو أن بريطانيا انسحبت من شرق إفريقية لانسحبت ألمانيا من ساحلها الغربي . ومثل هذه التسوية ما كان لها أن تتم إلا بانسحاب بريطانيا من مصر ، وهذا أمر لم تكن تجرؤ أي حكومة بريطانية في التفكير فيه بعد عام ١٨٨٥ ، بل إن لورد سالسبوري رئيس وزراء بريطانياوزير خارجيتها الذي وقع على عاتقه أمر

تقسيم إفريقية ، خلال الأعوام الحاسمة الواقعة بين ١٨٨٦ – ١٨٩٢ ، شيد سياسته الإفريقية كلها حول الاحتفاظ بمصر . وكان معنى هذا تشجيع فرنسا بالتوسع فى الغرب ، والإغضاء عن ذلك عن قصد ، حتى إنها لم تفعل ذلك لتمنع تطويق فرنسا للممتلكات البريطانية الأربع فى غرب إفريقية . وكان معنى هذا أيضاً اعتبار نصيب بريطانيا فى الجانب الشرقى من القارة قليل القيمة تجارياً ، أو أن احتلاله باهظ الثمن . وكان الألمان قد ثبتوا أقدامهم فعلا على الأرض المقابلة لزنجبار ، إلا أن سالسبورى استطاع عام ١٨٨٦ أن يخطط بصفة دائمة حدود منطقة نفوذ بريطانيا فيما يعرف الآن بكينيا ، بينما ترك احتلال أوغندا أمراً محتملا ، بوصفها الباب الخلفى للسودان ولمصر . ففى شرق إفريقية كما فى زمبيزيا ، وفى وسط نيجيريا وشمالها كان سالسبورى يمنح الشركات عقود الامتياز وحق الإدارة ، بينما يحاول هو الحصول على الاعتراف بسيادة بريطانيا على المستوى الدولى .

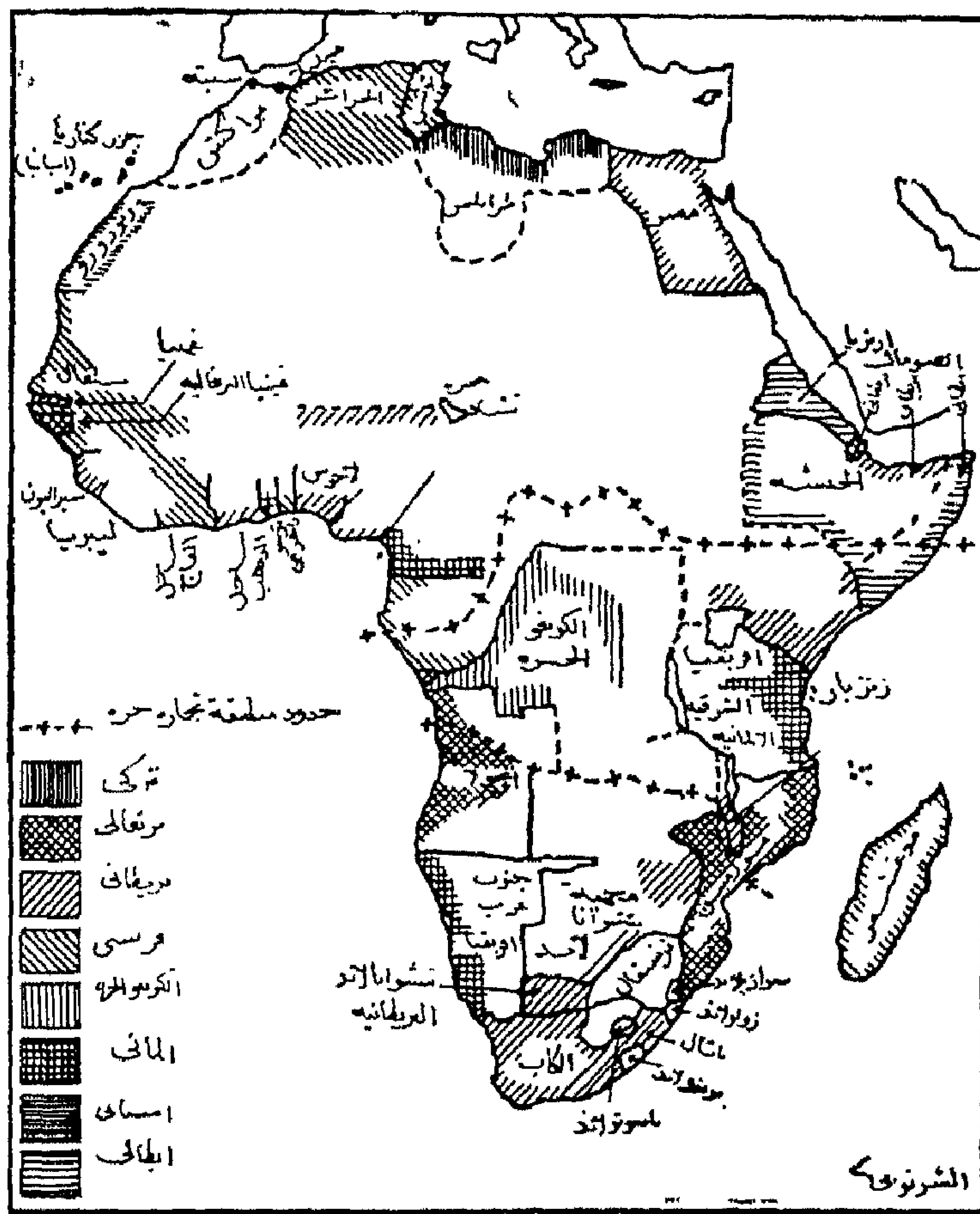
ولم يبق بعد ذلك إلا المطالبة بما يعرف الآن بروديسيا الشمالية ونياسالا ، وهذا تم فى ١٨٨٩ – ١٨٩٠ ، وبذلك تمت خطة سالسبورى ثم تقدم عام ١٨٩٠ ، ١٨٩١ لتحديد مطالب ألمانيا وفرنسا والبرتغال وإيطاليا . وكان أهم اتفاق عقدته هو اتفاقها مع ألمانيا ، الذى وصف بأنه مقايضة هليجولاند بزنجبار ، والواقع أن بريطانيا تنازلت عن هليجولاند لألمانيا كجزء من اتفاق خطط معظم الحدود الإنجليزية الألمانية فى إفريقية على هوى سالسبورى : وحددت الاتفاقية الإنجليزية الإيطالية الحدود بين شرق إفريقية البريطانى ومستعمرة الصومال الإيطالية الجديدة أما الاتفاقيتان الإنجليزيتان البرتغاليتان ، فبرغم أن بريطانيا كانت لها اليد العليا والكلمة النافذة فى إملائهما فإنهما رسمتا الحدود بين وسط إفريقية البريطانى وبين جارتها البرتغالية وكانت الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية أقل هذه الاتفاقات تلبية لرغبات بريطانيا ، حيث إنها تركت الحدود الداخلية فى غرب إفريقية غير محددة وحيث إنها فشلت فى الاقتراب من مسألة السودان البالغة الأهمية :

إن أهم ظاهرة فى السنوات العشر الأولى من التكالب على إفريقية ، كان المدى العظيم الذى تم به كل ما هو هام فى أوروبا ، فكان الساسة والدبلوماسيون يتقابلون فى المكاتب وفى المنازل الريفية ويرسمون خطوطاً فوق خرائط لا يعرفون مدى دقتها عادة. وقد وصل بهم الجهل بالتفاصيل الجغرافية حداً جعلهم يركنون إلى خطوط الطول ودوائر العرض فى رسم الحدود . وكانت حقائق التقسيم فى إفريقية ذاتها ضئيلة الأثر جداً . فربما قامت حفنة من الرجال المرهقين بأعمال الشركة صاحبة الامتياز . وربما قام قنصل واثنان من مساعديه بتشكيل حكومة الحماية . ومثل هذه التشكيلات السريعة التكوين كانت منهمكة فى الاصطدامات العسكرية مع الحكومة المجاورة . وحتى فى حالة انهماك الجماعات المتنافسة فى الحصول على توقيعات الزعماء المحليين على معاهدات . فإنها قلما كانت تتقابل ثم تصفى الخلافات بعد ذلك بعام أو أكثر حول مائدة مفاوضات .

إلا أن التكالب عندما دخل عقده الثانى ، بدأ نشاط رجاله فى اتخاذ دلالات جديدة . فكان الوضع بالنسبة للحدود الداخلية يتوقف على مقدرة أحد الجانبين على جعل احتلاله أكثر واقعية . فازدادت الاصطدامات بين مواطنى الدول الاستعمارية المختلفة . وكانت هذه أكثر حدوثاً على طول الحدود الغربية لنيجيريا حيث هددت بعض الكتائب العسكرية بالاشتباك حول إقليم بورجو المتنازع عليه (بعد أن أتم الفرنسيون احتلال مملكة داهومى عام ١٨٩٣) . وكانت اللهفة على الوصول إلى بورجو أيضاً قبل الفرنسيين سبباً فى اشتباك شركة جولدى الملكية للنيجر بالولايات الإفريقية التى تقع داخل إقليم امتيازها . وكان لا بد للاسراع ومسابقة الفرنسيين فى احتلال بورجو أيضاً من غزو إمارات نوبى وإلورين :

وفى أواخر التسعينات كانت الحملات الفرنسية قد التفت حول بحيرة تشاد من ثلاث جهات من الكونغو الفرنسى ، من الجزائر ، ومن أعالى النيجر ، وحلقت فى أذهان الفرنسيين فترة من الزمن آمال عريضة ، كانت

تحلم بإيصال الممتلكات الفرنسية من ساحل البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطى فالمحيط الهندى وتكوين إمبراطورية فرنسية شاسعة . وكان احتلال فرنسا لأعالى النيل كفيلا بتسديد ضربة قاضية للبريطانيين فى مصر . ومن ١٨٩٦ إلى ١٨٩٨ ، شق القومندان مارشان طريقـــاً وعراً على رأس جماعة من الجنود الوطنيين من الجابون حتى فاشودة على النيل الأبيض ، على بعد ٤٠٠ ميل تقريباً من الخرطوم . وقد أجبرت بريطانيا مصر على إخلاء ممتلكاتها السابقة فى السودان النيلى وتسليمها لقوات محمد أحمد المهدى بحجة أن مصر حينذاك كانت تعجز مالياً عن استعادة أملاكها فيه . غير أن سالسبورى لم يغمض قط عينيه عن السودان . ففى عام ١٨٩٦ بعد أن أنزل الإمبراطور منلك هزيمة منكرة بالجيوش الإيطالية فى عدوة ، أمر الجيش المصرى الجديد الذى دربه كتشنر بالتحرك نحو الجنوب . فسقطت مديرية دنقلة فى نفس العام ، وبربر عام ١٨٩٧ والخرطوم بعد معركة أم درمان عام ١٨٩١ . وبعد ذلك بأسبوع سمع كتشنر بوجود مارشان فى فاشودة ، فأسرع لملاقاته بقوات متفوقة تفوقاً ظاهراً وأوجد حادث فاشودة بريطانيا وفرنسا على حافة الحرب . وقد حجب هذا الحادث المعروف عن الأنظار حادثاً آخر ، وهو أن إعادة كتشنر فتح السودان قد تم بثمن باهظ ، إذ سقط فى الميدان ما يقرب من عشرين ألف سودانى . وهكذا بدأت عملية تقسيم إفريقية تتخضب بالدماء وكانت قمة الأعمال الدموية قد وقعت على الرجال فى جنوب إفريقية إذ أن اكتشاف مناجم الذهب الغنية الواسعة فى وتوترزراند عام ١٨٨٦ قد منح ترنسفال إمكانات قوية وكانت حتى ذلك الحين أفقر وأضعف المجتمعات الأوروبية . وقد كان هذا واضحاً تماماً أمام أعين عمالقة جنوب إفريقية . أمام بول كروجر رئيس الترنسفال من ١٨٨٣ - ١٩٠٢ ، وأمام سيسل رودس الذى مد اهتمامه التعدينى من كمبرلى إلى وتوترزراند والذى كان رئيس وزراء مستعمرة الكاب من ١٨٩٠ — ١٨٩٦ . فتعارضت أمانى كروجر فى توحيد جنوب إفريقية البيضاء فى جمهورية بويرية واحدة ،



افريقيا فى سنة ١٨٩١

(شكل ١٦)

مع أحلام رودس الاستغلالية : فاقترح اتحاداً لجنوب إفريقية يضم البوير والبريطانيين ، بل ربما أيضاً البانتو الذين يمكن أن يتعاونوا فى انسجام. ومثل هذا الاتحاد يتمتع بالاستقلال الداخلى ولكنه يحتفظ بوشائج قوية مع بريطانيا والإمبراطورية البريطانية التى قال عنها رودس يوماً ما إنها عقيدته الوحيدة . وكان كروجر يمثل عقلية بوير القرن السابع عشر الذى حاول متأخراً أن يتلاءم مع الظروف الجديدة . وكان رودس تجسيداً محلياً لإمبريالية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الرأسمالية ، والتى كان لها لون بريطانى صارخ فى جنوب إفريقية .

وفى مطلع الصراع — كما رأينا — ركز رودس جهده على الجناح الترنسفالى وساعد الحكومة البريطانية على المناورة فى بتشوانالاند وحصل على مرسوم ملكى يخول له سلطة حكومة الإقليم الذى يقع شمالها . وأرسل عام ١٨٩٠ طابوراً استكشافياً من رجال البوليس والمستعمرين ليحتلوا أراضى ماشونا شمال أرض ماتابيل وشمالها الشرقى . وفى عام ١٨٩١ امتد نطاق عملياته ليشمل ما يسمى الآن بروديسيا الشمالية[1] واعتقد رودس أنه بهذه العمليات ، التى كانت تعتبر الخطوات الأولى نحو التوسع البريطانى قد ساعد أيضاً على تطويق الترنسفال وإلى دفعها إلى ازدياد الارتباط بمستعمرة الكاب ، فكان يأمل فى أن تمكنه معادن الأقطار الشمالية من أن يوازن بها ثروة الترنسفال . ولكن قبل أن يتمكن المستعمرون فى الاستقرار فى الشمال ، كان عليهم أن يشتبكوا فى حرب مع البرتغاليين فى موزمبيق ، ثم كان عليهم أن يقهروا شعب الماتابيل الذى قاوم احتلالهم بضراوة ومرارة وأخيراً أن يقهروا ثورة قام بها كل من الماتابيل والماشونا فى وجه استيلاء رجال رودس على الأرض واليد العاملة . ولم يتوقف القتال حتى عام ١٨٩٧ . غير أن آمال رودس فى ذهب إمبراطورية مونوماتابا السابقة قد تبددت ، وثبت أنها باهظة التكاليف (حتى مد السكة الحديدية من الكاب ومن بيرا عام ١٨٩٩) .

(١) وافق رودس على دفع ١٠,٠٠٠ جنيه سنوياً لبضعة أعوام لحكومة نياسالاند فى مقابل توسيع نطاق امتيازه هذا .

أما بالنسبة للترنسفال ، فلم يكن أمام رودس إلا أن يقنع كروجر أن وجوده فى هذا الإقليم كان مهدداً بالخطر . وأن يوقفه عن الانفصال عن بقية جنوب إفريقية باستكمال خطه الحديدى الممتد من ترانسفال إلى الميناء البرتغالى الواقع على خليج ديلاجوا . وقد تمكن كروجر بهذا من أن يخرج عن الاتحاد الجمركى وعن النظام الحديدى المتكامل الممتد من الكاب وناتال ، الذى حاول رودس أن يكبله به . وفى الوقت نفسه ، كان نظام كروجر الجمهورى البويرى معرضاً للانهيار من الداخل بنمو عدد الوتلاندر Witlanders وهى طبقة الأثرياء الأجانب الذين اجتذبتهم صناعة التعدين نحو ترانسفال . فتنحت آراء البوير القديمة التقليدية عن الحكومة أمام نظام إدارى جديد ، عماده الهولنديون المثقفون الذين أصروا على خضوع الوتلاندر لمثل البوير قبل أن يحصلوا على أى حقوق سياسية . فتحين رودس العجوز هذه الفرصة وأطلق غارة جيمسون عام ١٨٩٦ فى محاولة جريئة بإحلال حكومة من الوتلاندر موالية له وتنفذ خططه الخاصة بجنوب إفريقية محل حكومة كروجر .

وقضى فشل هذه الغارة الذريع على رودس سياسياً . ففقد تأييد البوير حتى فى مستعمرة الكاب ، بل إنه أقنع البوير فى كل جنوب إفريقية أن جنوب إفريقية البريطانية ، أو بتأييد بريطانيا ترمى إلى القضاء على جمهوريات البوير والمثل الذى تقوم عليها . وكانت تلك هى أحوال جنوب إفريقية والسياسة البريطانية فيها عندما ولى أمرها تشامبرلين الذى كان مستشاراً للقارة ، ولمرشحه كمندوب سام فى جنوب إفريقية ، السير ألفريد ملنر . وبينما كان رودس برغم جميع أخطائه ومثالبه إفريقيا جنوبياً كما كان بريطانيا فى ميوله واتجاهاته وعواطفه ، فإن كلا من تشامبرلين وملنر لم يعبآ مطلقاً بالمشاعر المحلية ، بل لقد ذهب ملنر إلى أبعد مما ذهب سيده ، فقد كان يعتقد أن لا بد من غزو جنوب إفريقية كلها وقهرها وحكمها حتى يصطبغ العنصر الهولندى بالصبغة الإنجليزية . فعمد ملنر عن قصد إلى دفع وجهة نظر الوتلاندر وتحريضهم إلى حد الصراع ، وبذلك اشتعلت نار الحرب عام

١٨٩٩ . ولم تتحقق آمال كروجر فى مساعدة منافسى بريطانيا الأوروبيين ، ولم تقف بجوار الترنسفال إلا جمهورية أورانج الحرة الشقيقة ، وذلك فى مواجهة قوة بريطانيا وإمبراطوريتها . ولقد استمرت فصائل الفدائيين من البوير فى شن الغارات على البريطانيين فترة طويلة بعد احتلال الجمهوريتين احتلالا رسمياً ، غير أن البوير أنهكت قواهم وركنوا للسلم عام ١٩٠٢ .

انتهى التكالب الأوروبى على تقسيم إفريقية بالغزو البريطانى لجمهوريات البوير . ولم يعد الخلاف على تقسيم القارة إلا مسألة عمليات تتم بالمفاوضات فى وزارات الخارجية أو مستعمرات أوروبا ولم تظهر دلالة ذلك للإفريقيين إلا متأخراً . وبرغم هذا فقد أثار الاحتلال الأوروبى لأصقاع القارة المترامية الأطراف كثيراً من المقاومة العنيفة . فلم يكن هذا الاحتلال يعنى سوى تحطيم أساليب الحياة التقليدية وفرض نظم جديدة ، لم يكن للإفريقى فيها أى مجال وذلك بالنسبة لأحمدو وساموري فى السودان الغربى ، والأشانتى وداهومى وبنين ، والعرب والسواحليين تجار الرقيق فى شرق إفريقية ووسطها وللمهديين فى النيل الأوسط ، والمتابيل فى روديسيا ، بل وللبوير فى أقصى الجنوب . كل من هؤلاء حارب طاقته وفشل .

أما عن الإفريقيين الذين ظلوا مستقلين ، فقد احتفظ للقبائل المغربية باستقلالها حتى سنة ١٩٠٢ وذلك بسبب منافسات الدول الأوروبية . غير أن بريطانيا وفرنسا وصلتا إلى وفاق عام ١٩٠٤ . واشترت فرنسا سكوت الألمان بتنازلها عن جزء كبير من أرض الكونغو لمستعمرة الكاميرون الألمانية . ومن ثم خلا الجو لفرنسا وأسبانيا فى اقتسام مراكش . ولم تنجح إلا الحبشة فى دفع المد الأوروبى ، وإجبار الإيطاليين — إلى حين — على الاقتصار على الساحل الحار الجاف فى أرتريا والصومال . فاتجهت إيطاليا لتعويض ذلك عام ١٩١١ بغزو ليبيا واقتطاعها من الإمبراطورية التركية المتداعية . واستطاعت ليبريا أيضاً أن تحتفظ باستقلالها ، من جميع الأوروبيين ما عدا المرابين . وفيما عدا ذلك فقد دخلت أجزاء إفريقية المختلفة القرن العشرين وهى تحت سيطرة إحدى الدول الأوروبية الاستعمارية القوية .

— ١٧ —

العصر الاستعمارى

المرحلة الأولى

لايصور شيء عنصر البعد عن الواقع فى تقسيم إفريقية ، كما تصورها السنوات الخمس والثلاثون من الغموض الشامل التى تلت ذروة التقسيم : فطالما كانت هناك منافسة دولية كانت المسألة الإفريقية هى أهم مسألة فى العالم يشتغل بها الرؤساء والوزراء ، وتجتمع من أجلها مجالس الوزراء ، وتدخل فى كل مجال من مجالات الدبلوماسية الدولية ، ولقد يحمد لكل من اشترك فى هذا العمل أن تقسيم إفريقية تم دون الاشتباك فى حرب عالمية : فالتوتر العالمى ازداد مع انكماش المناطق المتنازع عليها ، ولكن ما إن تم رسم خريطة إفريقية المستعمرة حتى انتهى التوتر العالمى فجأة كما بدأ فجأة : وما إن تعلن دولة من الدول ضم إقليم فى حيز مستعمراتها أو محمياتها حتى تنصرف عنها الأنظار ويتحول عنها الاهتمام . فلقد قسمت الدول الاستعمارية إفريقية كتأمين لمستقبلها ، ومن ثم فإنها لم تهتم إلا بتخفيض القسط السنوى لهذا التأمين بقدر الإمكان .

وكانت المستعمرة المثالية هى المستعمرة التى تستطيع أن تعول نفسها اقتصادياً . ولا يهم كثيراً ما إن كانت المستعمرة تنتج الكثير أو القليل ، ما إن كان أهلها يتقدمون بسرعة أو ببطء ، ما إن كان نموها الاقتصادى فى يد أهلها تحت إشراف الحكومة المستعمرة أو فى يد المستقرين الأوروبيين أو فى يد شركات التعدين ، إنما المهم أن تكون ميزانيتها متوازنة ، وأن يكون

نصيبها من إعانة الدولة المستعمرة قليلا . ولم تكن أوروبا فى مطلع القرن العشرين فى حاجة إلى مزيد من المحاصيل الإفريقية ، وكانت الأسواق الإفريقية لا تستطيع أن تستوعب إلا القليل من الصادرات الأوروبية . وقد يتغير هذا الوضع يوماً ما . وإلى ذلك الحين فمن الخير ألا نسمع الكثير عن المستعمرات الإفريقيـــة :

هذا الاتجاه من جانب الدول الاستعمارية الذى استمر حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، كان من شأنه أن يضع عبء المستعمرات على الإدارات الاستعمارية الحديثة العهد فى إفريقية ، وأنه لمن المدهش أن نعلم أن عدد أفراد تلك الإدارات كان ضئيلا . فقد أرسل جونسون مثلا لإدارة مستعمرة نياسالاند بميزانية قدرها ١٠,٠٠٠ جنيه إلى جانب مرتبه وبدأ كولفيل إدارة محمية أوغندا بمعونة سنوية قدرها ٥٠,٠٠٠ جنيه، ولم يكن لدى لوجارد فى نيجيريا الشمالية سوى ١٠٠,٠٠٠ جنيه لإقليم يسكنه عشرة ملايين نسمة . ولم يختلف الطراز الفرنسى للمستعمرات كثيراً عن هذا وإن كان الفرنسيون أقل شحاً من البريطانيين . واضطرت فرنسا إلى التنازل عن مبدئها العام الذى كان يقضى بأن تقصر المستعمرات تجارتها على فرنسا وحدها : ولقد رحب المستعمرون بأى مورد للدخل يخفف العبء عن الدولة المستعمرة .

هذا الاتجاه كان من شأنه أن يجعل الاحتلال الاستعمارى عملية بطيئة السير فجونسون ومعه ١٠,٠٠٠ جنيه لم يستطع إلا أن يسير قوة عسكرية تتكون من ٧٥ جندياً هندياً تحت قيادة ضابط بريطانى واحد . وكان عليه أن يمول أى زيادة فى القوة العسكرية أو المدنية من الدخل المحلى إن كان هناك دخل . وأرسل لوجارد ليحكم نيجيريا الشمالية بهيئة تتكون من خمسة إداريين أوروبيين وفصيلة من قوة حدود غرب إفريقية ، وهى تتكون من ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ جندى تحت قيادة ١٢٠ ضابطاً أوروبياً . وكان فى استطاعة أى أمير من أمراء الهاوسا الستة الأقوياء أن يجند ضعف هذا العدد . غير أن القوى العسكرية الأوروبية كانت تفوق أى قوى محلية فى حسن النظام والتسلح .

إلا أنه كان لا بد من استخدام هذه القوى العسكرية لحفظ النظام وإخضاع الشعوب الإفريقية . وأن هزيمة واحدة أو الوقوع فى عدد من الكمائن الوطنية كان كفيلا بإزالة إمبراطوريات واسعة فى مطلع العصر الاستعمارى . ولقد كان الاحتلال الأوروبى يتم دون إراقة دماء ، بعكس ما تصوره النظرية الماركسية من قوى إمبريالية وحشية مدججة بالمدافع الرشاشة تضرب بها الإفريقيين العـــزل .

وكان من الواضح أن أول مهمة للحكومة الاستعمارية هى فرض سيطرتها واحترامها على رعاياها . وكان حجر الزاوية فى هذا هو فرض الضرائب . ولربما استحقت الإدارة الاستعمارية الثناء طالما قنعت بأن تظل فى المستعمرة وتعيش فيها على نفقتها الخاصة دون أن تتقاضى شيئاً من الأهالى.وقد استمرت مثل هذه الحال فى بعض المستعمرات عدة سنين ولكن عندماأرادت الدول الاستعمارية أن تستعيد ما أنفقته، واجهت امتحاناً حقيقياً . وكانت كل حكومة استعمارية تريد أن تنشئ نواة لحكمها حول العاصمة ثم تمد نفوذها ببطء من هذه النواة كلما ازدادت مواردها . وقد تعلمت كل حكومة استعمارية أن سكان أطراف المستعمرة لا يقعدونساكنين منتظرين دورهم كى يقعوا تحت سلطان الحكومة . فإنهم بدأوا فى بيع عاجهم وتكديس أسلحتهم ، وبدأوا فى تشكيل الأحلاف ضد الحكومات الاستعمارية ، أو بدأوا فى مضايقة الحكومات المجاورة ، وقطعوا أسلاك التلغراف، وهاجموا القوافل،وآووا اللاجئين السياسيين . ومن ثم كان لابد من إرسال الحملات التأديبية فى وقت مبكر جداً عما كان متوقعاً ، وعندما كانت الجنود تغادر العاصمة والنواة التى حولها ، تبدأ تلك فى الثورة عليها . تلك كانت حياة الإدارة الاستعمارية الجديدة .

ولم ترسل التعزيزات العسكرية أو ترفع الإعانات المالية فى كل إقليم تقريباً من أقاليم المستعمرات إلا إثر أزمة عسكرية عنيفة . ففى عام ١٩٠٠ مثلا ارتفعت إعانة حكومة نياسالاند من ١٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ جنيه وإعانة

أوغندا من ٥٠,٠٠٠ إلى ٤٠٠,٠٠٠ . وهكذا ازدادت نفقات المستعمرات الأخرى خلال خمس أو عشر سنوات من بدء العصر الاستعماري . وكانت هذه هى قمة الاتفاق على المستعمرات ، إذ بدأ الاتفاق بعد ذلك يقل باطراد ، باستمرار ارتفاع الدخل المحلى حتى اختفت المساعدات نهائياً حوالى عام ١٩١٤ . وكان عجز الملك ليوبولد فى الاتفاق على الكونغو هو الذى أدى بالإدارة البلجيكية إلى التدهور فى الحضيض . فلما واجهته احتمالات العجز عن الحصول على الدخل اللازم للاتفاق ، استخدم شراذم من الجنود الإفريقيين المتبربرين عديمى النظام لجمع كميات من المطاط والعاج جمعاً تعسفياً، بشكل ضريبة للحكومة أو لشركات الاحتكار التى تسهم فيها الحكومة ولقد فشلت هذه الإجراءات التعسفية فى الحصول على الأموال اللازمة ، وعندما تسربت أنباء الأعمال الوحشية التى لجأ إليها رجال ليوبولد وشركاته إلى الخارج ، اضطر الرأى العام العالمى هذا الملك أن يسلم إمبراطوريته للحكومة البلجيكية عام ١٩٠٨ .

وقد عاصر إنهاء الإعانات المالية فى جميع إفريقية المدارية ، ما عدا الأجزاء السحيقة البعيدة ، زمن إخضاع الأقطار الإفريقية كلها للحكومات المدنية . أى أن الإعانات المالية كانت الثمن الذى دفعته تلك الحكومات ريثما تكون لها الهيبة اللازمة لفرض سلطانها على أقاليم لم تكن قد خضعت بعد للإدارة الأوروبية . كما أن الاكتفاء الذاتى المالى كان الحصيلة البسيطة التى حصلت عليها المستعمرات من انتقالها من الحكم العسكرى إلى الحكم المدنى . ولذلك فإن المؤرخين كانوا يتحدثون دائماً عن عصر « التهدئة » الذى سبق عصر « القانون والنظام » . وفى الحق كانت هذه العملية لازمة لعملية مد خطوط المواصلات . فقبل أن يدفع أى إقليم الضرائب كان لا بد لهم من إنتاج شىء ما ، وبيعه . وقبل أن توجد محاصيل زراعية لابد من إيجاد وسائل النقل التى تنقلها إلى الأسواق .

وأحسن مثال لهذه النظرية هى محمية أنهر الزيت فى نيجيريا الشرقية حيث تأسست الإدارة الاستعمارية وحصلت على نفقاتها من الضرائب المفروضة على نخيل الزيت دون أى مساعدة من الخارج (فقد كانت نخيل الزيت هى المحصول الاقتصادى وأفرع الدلتا هى طرق المواصلات المائية) . هذا من ناحية ، أما من ناحية أخرى فإنه لم يكن من المستطاع فرض ضرائب على أوغندا حتى تمد السكة الحديدية من ممباسا إلى بحيرة فكتوريا حوالى عام ١٩٠٠ . وقبل هذا التاريخ كان المحصول الاقتصادى الوحيد هو العاج . أما مع وجود محطة السكك الحديدية فى كيسومو وباخرتين فى البحيرة ، فإنه أصبح من المستطاع جمع جلود الحيوان وفرائها والمطاط البرى وعسل النخل وغيره من حاصلات الغابة الطبيعية وجعلها قريبة التناول من الأسواق ، بينما أصبح الطريق ممهداً لإدخال محاصيل القطن والبن وهما أهم محصولين فى منطقة بحيرة فكتوريا فى الوقت الحاضر ، ومن ثم لم تعد هناك أى مشكلة خاصة بالضرائب فى نواة المحمية . غير أن اقتصادها لم يتم إلا بعد مرور عقد آخر وذلك بعد إنشاء الطرق ووصول سيارات النقل الكبيرة والتوسع فى استخدام البواخر فى البحيرة مما مكن الأهالى من تقديم قدر من الضرائب يفوق ما كان يمكن أن يقدموه من عمل كبديل لها . ولذلك فإن هذه المحمية كانت لا تخضع إلا للدوريات المسلحة حتى عام ١٩١٠ ولم تقم فيها إدارة منظمة مدنية إلا حوالى عام ١٩١٩ .

ومن أصعب المسائل فى التعميم درجة تغير أسلوب حياة الأشخاص العاديين بإدخال النظم الإدارية الأوروبية الاستعمارية . وهنا لا بد من التفرقة بين الأجزاء التى دخلها الأوروبى بحثاً عن المعادن ولامتلاك الأرض والأجزاء التى دخلها ليتاجر ويحكم . أما الأجزاء الأولى فلم تشمل روديسيا الجنوبية وروديسيا الشمالية ونياسالاند وكينيا فقط ، بل شملت الأراضى البرتغالية فى شرق إفريقية والكاميرون وتلك الأجزاء من الكونغو البلجيكى والفرنسى التى منحت الحكومات امتيازها للشركات . وهنا فقد مئات الآلاف من

افريقيا في سنة ١٩١٤

(شكل ١٧)

الإفريقيين أراضيهم وهى مصدر رزقهم بشكل أو بآخر . وأجبر الكثير منهم على الجلاء إلى أراض أخرى – أقل قيمة – أطلق عليها الأراضى « المحجوزة للوطنيين » . وترك بعضهم فى الأرض التى كانوا يزرعونها وقت الاحتلال ولكنهم حرموا من الأرض غير المزروعة التى تحيط بهم والتى كانت تترك بوراً فعندما بدأوا يتحركون إليها – إذ هم يمارسون الزراعة المتنقلة – وجدوا أنفسهم مضطرين لأن يدفعوا إيجار أراض انتزعت منهم وأصبحوا فيها مجرد « قاعدين » .

وربما كان من الخطأ الجسيم أن نتصور أن كل الإفريقيين الذين يقطنون مستعمرات الأوروبيين أو أراضى الامتياز الأجنبية قد عانوا بهذه الوسيلة أو أن هذه الحالة اقتصرت على الأراضى التى انتزعت من الإفريقيين وسلمت للأوروبيين . ونستطيع أن نقول إن كثيراً من الإفريقيين فى روديسيا الجنوبية قد قاسوا من إزعاجهم وإخراجهم من أراضيهم نتيجة للهجرة الأوروبية . ولقد كان عدد الإفريقيين الذين قاسوا من هذا شمال الزمبيزى قليلا بالنسبة لبقية المواطنين . وكان هذا الاستيلاء الأوروبى على الأراضى مقصوراً فى شرق إفريقية الألمانى على ركن صغير فى شمالى المستعمرة . أما فى كينيا فشعوب ليو وبانتوكافرندو العديدين لم يمسهم الاستعمار الأوروبى فى شىء بينما لم يتأثر سوى ١٪ من الكيكويو الذى جأروا بالشكوى بعد ذلك . وكانت معظم الأراضى المغتصبة فى كينيا قد استولى عليها من القبائل الرعوية مثل الماساى والناندى والكبسيجى . وكل ما فعله المستقرون البيض أنهم وقفوا توسع الزراع الوطنيين الطبيعى فى أراض كان يمتلكها الرعاة بحد رماحهم .

أما الأمر الثانى الذى تأثر به الوطنيون فى كل مكان فكان ازدياد طلب المستقرين الأوروبيين[1] على اليد العاملة ، ولا سيما فى المزارع الواسعة والمناجم وكان هذا الطلب لا يجد حاجته الكاملة فى مطلع عهد الاستعمار وذلك لأسباب

---

(١) المستقرون الأوروبيون أو المهاجرون أو المتوطنون
sealers, colonizers or colons (المترجم)

سياسية فعلية ولا بد لنا من القول بأن جزءاً كبيراً من الطلب على اليد العاملة كان يأتي من قبل الحكومات الاستعمارية نفسها ، التي كانت تطلب اليد العاملة اللازمة لشق الطرق وصيانتها ومد السكك الحديدية وتهيئة مباني الحكومة وبنائها وفوق ذلك كله (وخصوصاً في بدء الاستعمار) طلب الحمالين . ومثل هذا العمل كان يقدم لقاء الضرائب المستحقة اسما . أما في الحقيقة فقد كان هذا العمل يتم سخرة لا تفرض على كل المواطنين بالتساوي، ولكن على من يرشد عنهم زعماء القبائل حسب طلب موظفي الحكومة . ولم يفهم الإفريقيون في ذلك العهد الفرق بين العمل الإجباري للأغراض العامة ، والعمل الإجباري للأغراض الخاصة ، ولكنهم كانوا على وعي تام بأن وجود الأوروبيين قد أدى إلى تسخير كل رجل سليم في أعمال شاقة لم يقم بها من قبل إلا النساء والعبيد .

ولم يكن أهم عامل بالنسبة للشعوب الإفريقية في هذه المرحلة من التاريخ الاستعماري مسألة الاستقرار الأوروبي أو غيابه ، أو مسألة الأرض والعمل وهي مسألة محسوسة نسبياً ، بل لم تكن مسألة الفرق بين سياسة استعمارية وأخرى ، بل كانت أعقد المسائل نفسية وهي ما إن كانت أي جماعة من الجماعات قد شعرت بأنها استفادت من الاحتلال الأوروبي أو أن الاحتلال الأوروبي قد أذلها . وكان هذا متعلقاً بالحوادث التي صاحبت عملية الاحتلال في المناطق المختلفة . فكل دولة محتلة كانت تصطفي فريقاً وتعادي آخرين . وكل دولة محتلة ، قبل أن تستطيع تدريب قوة عسكرية أو بوليسية محلية احتاجت إلى حلفاء وطنيين وكانت على استعداد لمنح امتيازات هامة لمن يستعد بأن يقوم بهذا الدور .

وكان هؤلاء المتعاونون طبقاً لمقاييس الإفريقيين الحديثين ، خونة . ولكن من الصعب أن نحكم بمقاييس اليوم على ما كان يجرى منذ ثمانين عاماً . كما أن اللوم لا ينبغي أن يقع على العامة ، بل على قادتهم السياسيين . فإذا كانوا بعيدي النظر ، على علم بحقائق الأمور وأكثر من هذا لو كان لهم

مستشارون أجانب مثل رجال الإرساليات التبشيرية لعلموا أنه لا جدوى من المقاومة ومن الخير لهم أن يتفاوضوا . وإذا كانوا أقصر نظراً وأقل علماً لرأوا أعداءهم التقليديين قد انحازوا إلى جانب الغزاة ، ومن ثم فإنهم يقفون موقف المعارضة والمقاومة التى لم تكن لها نتيجة إلا الهزيمة العسكرية بسرعة ، بل والتى لم يكن من جرائها إلا تفتيت مجتمعاتهم . ولا بد ونحن نحاول التعرف إلى آثار الاحتلال الأجنبى أن نذكر أن المنافسات والمنازعات المحلية لم تتوقف بالاحتلال الاستعمارى نفسه . فقد استمرت تلك المشاحنات ، التى استغلتها الإدارة الاستعمارية ، أو التى استغلت الإدارة الاستعمارية لنفسها . فقد خسروا وكسبوا من هذه المشاحنات كما حدث بالنسبة لعصر تجارة الرقيق .

وفيما يتعلق بحساب الخسائر والأرباح ، فمما لا شك فيه أن وجود البعثات التبشيرية أو عدم وجودها كان عاملا بالغ الأهمية فى العصر الاستعمارى. ولقد كان المبشرون فى بدء هذا العصر أكثر عدداً وأكثر نفوذاً من ممثلى الحكومات الاستعمارية . فقد كانوا يعرفون لغات الشعوب التى يعملون بها ، كما كانوا يفهمون القوى الجديدة التى بدأت تشق طريقها فى جسم القارة ، برغم اختلاف جنسياتهم أحياناً عن جنسيات الدول الاستعمارية التى تحكم الأقاليم . فكانوا مهيئين أحسن تهيئة ليقوموا بدور الوسطاء بين الإفريقيين والمستعمرين . وقاموا بدور جديد ليس فقط دور المستشارين للحكام الإفريقيين ، بل دور المعلمين لرعاياهم .

ولم تكن لدى أى دولة استعمارية الموارد الكاملة فى ذلك الوقت لبدء تعليم الإفريقيين . غير أن المبشرين وجدوا أن المدرسة هى أحسن مكان للتأثير فى إفريقية الوثنية وأحسن وسيلة للتبشير بالديانة المسيحية . ففى بدء الاحتلال الاستعمارى كان هناك فعلا عدد قليل من الإفريقيين الذين اعتنقوا المسيحية ويعرفون القراءة والكتابة ، ويلتفون حول مراكز التبشير المسيحية القديمة السابقة للعصر الاستعمارى . وأرسل هؤلاء لفتح المدارس والكنائس فى القرى المجاورة ومهما كان هذا التعليم الذى تلقاه الإفريقيون ضئيلا فإنه على الأقل

أرسل بصيصاً من النور فى عقولهم ؛ فهم لم يتعلموا شيئاً من التعاليم المسيحية والإنجيل فحسب ، بل تعلموا شيئاً من أسلوب الحياة الجديد الذى أدخله النظام الاستعمارى وأدركوا أن معرفة القادمين الجدد ومهاراتهم يمكن أن تنتقل بالتعليم ووجدوا أن العهد الجديد بالنسبة لمن يستطيع أن يتعلم لا يعنى العبودية ، بل النهضة :

فكان الثلث الأول من العهد الاستعمارى فى إفريقية المدارية كلها تقريباً من الصحراء إلى الزمبيزى عهداً يتسم بعدم وجود سياسة معينة لدى الدول الاستعمارية وعهداً يتسم بإصرار المستعمرين على جعل مستعمراتهم ذاتية الاكتفاء اقتصادياً . وكان لا بد من اتخاذ خطوات فورية فى هذا الاتجاه بفرض رسوم على الصادرات والواردات وبمنح صكوك الامتياز للشركات وبتأجير أو بيع حقوق التعدين . وكان من الضرورى خلق ظروف مناسبة للوطنيين لكسب دخل نقدى يمكن أن تفرض عليه الضرائب ، وكان هذا ممكناً بحثهم على زراعة محاصيل نقدية فى أراضيهم ، أو بتشجيع المهاجرين الأوروبيين أو الشركات الأوروبية على إنشاء مزارع واسعة أو تنمية المناجم التى يمكن أن يعمل بها الإفريقيون كأجراء . فالمهم هو فرض ضرائب مباشرة وكان هذا هو الدافع على التنمية الاقتصادية . غير أن مثل هذه الضرائب لم تكن لتفرض قبل أن يصبح هيكل الإدارة قائماً ، وهو يتكون من القانون والنظام والمواصلات ولذلك فقد احتاج الأمر لعشرين أو ثلاثين عاماً قبل أن تستطيع المستعمرات أن تغطى مصاريفها ، بأقل ما يمكن من الدخل ، وكان على الدول الاستعمارية أن تغطى العجز فى المصروفات على مضض .

وحيث استطاعت حكومة استعمارية ما أن تركز على التنمية الاقتصادية سواء بتشجيع الهجرات النشيطة ، أو بتشجيع الفلاح الوطنى على الإنتاج ، فإن مثل هذه الحالة لم تنجم إلا نتيجة جهود فردية لحكام مختلفين . فاتبعت فرنسا سياسة معينة فى غرب إفريقية . وأخرى فى إفريقية الاستوائية : وشجعت الحكومات الاستعمارية البريطانية إنشاء المزارع الواسعة فى كينيا

وإلى حد ما فى نياسالاند ، ولكنها لم تشجعها فى أوغندا ، ومنعتها تماماً فى غرب إفريقية . وعلى كل فإن الحكومات الإمبراطورية فى فرنسا أو إنجلترا لم تشغل نفسها بهذه المسائل ، كما أن تغير السياسات الاستعمارية لم يكن يعنى شيئاً إلا بالنسبة لجماعات قليلة من الإفريقيين تعيش فى شمالى الزمبيزى . ولم يظهر الفرق واضحاً بين الأقاليم التى استقبلت مهاجرين أوروبيين والأقاليم التى لم تستقبلهم إلا فى وقت متأخر ، عندما حاول المهاجرون الأوروبيون تكتيل أنفسهم وتجميع نفوذهم السياسى فى وجه الأمانى الناشئة للأغلبية الإفريقية من السكان . فلقد كانت أهم المسائل بالنسبة للسكان الإفريقيين خلال الثلاثين سنة الأولى من العهد الاستعمارى هى كيف يصلون إلى اتفاق مع حكومتهم الاستعمارية ، وماهية هذا الاتفاق ، وزمنه مبكراً أو متأخراً ، بالقوة أو بالمفاوضة ، وإلى أى مدى يحقق هذا الاتفاق أمانيهم . ففى داخل إطار هذا التغيير فى المجتمع وفى إطار الفرص التى خلفها عهد الاستعمار ، كان على كل فرد أن يختار بين المقاومة أو التعاون .

— ١٨ —

العصر الاستعمارى

المرحلة الثانية

بدأت المستعمرات جنوبى الصحراء الكبرى وشمال الزمبيزى تتخذ أشكالها التقليدية التى احتفظت بها حتى فجر الاستقلال فى السنوات التالية للحرب العالمية الأولى. فأصبحت الحكومات الاستعمارية سواء كانت بريطانية أو فرنسية أو ألمانية أو بلجيكية أو برتغالية هى صاحبة اليد العليا والسيدة الفعلية لأراضيها. فقد انتهى عصر المقاومة الذى مارسته المجتمعات القبلية، وكانت الحاميات العسكرية التى تتكون من جنود إفريقيين بقيادة ضباط أوروبيين كافية لحفظ النظام، بينما تقدمت المواصلات البحرية والجوية تقدماً جعل إمداد أى جزء من المستعمرات بالإمدادات العسكرية يتم فى غضون أسابيع أو أيام.

وكانت الإدارة المدنية هى القاعدة فى جميع الأنحاء ما عدا الأطراف النائية، وتكونت الأنظمة الإدارية تحت إمرة الحكام وسكرتيريهم المركزيين ومفتشى الأقاليم والموظفين واختير هؤلاء على أسس مهنية ولم يعودوا يختارون من بين ضباط الجيش أو التجار المحليين أو الصيادين، وخطت الحكومات خطوات واسعة فى ميادين الطب والصحة، طالما كانت تؤثر فى حياة الأوروبيين فى الأقاليم المدارية، بل لقد سافرت بعض زوجات الموظفين المغتربين إلى إفريقية. وتبع الزوجات إنشاء النوادى وإقامة حاجز اللون. وقد كان الجيل الثانى من الحكام الاستعماريين أوطد أقداماً من حيث الأمن والمظهر من الجيل السابق.

وتضخم عدد الموظفين المغتربين عند بدء الحرب العالمية الأولى من بضع العشرات الأصلية إلى بضع مئات . غير أن وظائف الحكومة الاستعمارية ظلت محدودة جداً . فكل زيادة فى الموظفين سمحت بها الميزانية النامية استوعبتها الخدمات المدنية العامة، أما المصالح الفنية التى أنشئت بعناية فكانت مصالح الأشغال العامة مثل السكك الحديدية والطرق والقنوات والمبانى الحكومية التى تشمل مساكن الموظفين المغتربين وكانت الخدمات الصحية — عامة — كافية للموظفين الحكوميين فقط . أما التعليم — بصفته من مهام الحكومة — فكان فى الواقع لا وجود له . أما الخدمات الزراعية والبيطرية — برغم أهميتها — فلم تكن تلق إلا قليلا من عناية الموظفين الذين قد يوصون بإدخال نبات ما أو استخدام وسيلة فنية ما ، ولم تكن أى عناية لتصل إلى مستوى البحث والتجربة :

وكانت كل الاختصاصات الإدارية والفنية فى يد موظف الحكومة فى الأقاليم غير أن أثره ونفوذه كان ضئيلا . فكان واجبه الأول بصفته ممثلا للحكومة الاستعمارية أن يحفظ النظام والقانون ويشرف على جمع الضرائب : وكان معنى هذا أن يتمتع بإشراف ما على الوسيلة التى تحكم بها المجتمعات المحلية نفسها . ولكن إلى أى حد كان هذا الإشراف وعند أى مستوى فهذا أمر يختلف من إقليم إلى آخر ، بل من جزء من أجزاء الإقليم الواحد إلى آخر : فقد تشاحن الموظفون الفرنسيون والبلجيكيون مع جميع الملوك والرؤساء الإفريقيين وعزلوهم من مناصبهم . وحطموا الوحدات السياسية الكبيرة التى وجدوها وفتتوها إلى وحدات أصغر عينوا عليها حكاماً من قبلهم . أمـــا البريطانيون والألمان فقد احترموا تكتل الوحدات الكبيرة ومالوا إلى حكمها حكماً غير مباشر عن طريق حكامها التقليديين ونظام رؤساء العشائر ، والقبائل إلا أنه كانت هناك مناطق عديدة وجدت بها الوحدات السياسية الصغيرة وتوزعت منها السلطة على عدد كبير من كبار السن . وفى مثل هذه المناطق ركن البريطانيون والألمان إلى أسلوب الفرنسيين فى الحكم :

وبينما كانت هناك اختلافات فى درجة التدخل الأوروبى فى شئون الإفريقيين إلا أن الإفريقيين فى معظم الأحيان ظلوا يحكمون أنفسهم . فكانت المحاكم القبلية تفصل فى معظم الجرائم الجنائية والمدنية طبقاً لشرائعها وعرفها ؛ ولم يتدخل الإداريون الأوروبيون إلا فى حالات قليلة هامة . واقتصر عملهم القضائى على مراجعة وتعديل الأحكام التى تصدرها المحاكم القبلية . وكانت مسائل وضع اليد على الأراضى والميراث والزواج والميلاد والمرض والموت تتناول بنفس الوسيلة التى كانت متبعة فى العهد السابق للاستعمار (فيما عدا بعض تأثر بالتعاليم المسيحية أدخلته البعثات التبشيرية) . فإن أول آثار العهد الاستعمارى الأول بالنسبة لسكان المناطق الريفية ومعظم الأقاليم هو استئصال الحروب القبلية وفرض الضرائب، غير أن الضرائب كانت خفيفة وكان هناك كثير لا يؤدونها وكثير آخرون يدعون للعمل الإجبارى بعض أيام أو أسابيع قليلة فى مقابلها . وذلك فى تعبيد الطرق أو حمل الأثقال أو المبانى ولم يكن الأمر محتاجاً إلا إلى تعديل طفيف فى النظم الإدارية للحكومات الأجنبية ، التى استطاعت بعد عشرين عاماً من العجز المالى المستمر أن توازن مصاريفها وإيراداتها . ولم يكن هناك أى إحساس بضرورة التغيير . وكانت معظم الدول الاستعمارية تفترض أن هذه النظم الإدارية يمكن أن تستمر مئات السنين فى مستقبل الأيام . ولم تكن الحكومة تهتم إلا بحفظ الأمن والنظام وحكم القانون . أما مسائل التعليم والأخلاق ، بل والصحة ، فهى تتركها للبعثات التبشيرية ومسائل التنمية الاقتصادية فتتركها للأفراد من منتجين وتجار

فى الفترة بين الحربين الأولى والثانية لم تكن الحكومات الاستعمارية فى عجلة من أمرها ، غير أنه قد حدث تغيير ملحوظ فى تصورها لمهام الحكومة : وكان هذا راجعاً إلى الحرب الأولى من ناحية ، فهى بعد أن اشتبكت فى حرب دامية أربعة أعوام أصبحت أقل زهواً وافتخاراً واعتداداً بأنفسها وأصبحت أقل ثقة بتفوق العالم الغربى تفوقاً طبيعياً . وأصبحت أقل ثقة بسيادة الدول القومية سيادة لا شك فيها ، وشعر الناس فى الدول الاستعمارية بأنه لا بد من وجود

هدف وفلسفة للاستعمار : وكانت الحاجة لهذا ملحة بعد أن قرر المنتصرون تحطيم الإمبراطورية الألمانية الاستعمارية . فقسمت كل من المستعمرات الألمانية الإفريقية فى توجولاند والكاميرون بين الفرنسيين والبريطانيين فكان من نصيب جنوب إفريقية جنوب غرب إفريقية وقسمت شرق إفريقية الألمانى بين بريطانيا وبلجيكا . وبرغم أن الحلفاء اتفقوا فيما بينهم على تفاصيل تصفية الإمبراطورية الألمانية إلا أنهم لم يجرءوا على إعلان ضم أجزائها المبعثرة إلى أملاكهم فى معاهدة الصلح : ولكنهم قبلوا من عصبة الأمم الحديثة التكوين القيام بواجب حكم هذه المستعمرات « كوصية مقدسة للمدنية » حتى ذلك الحين الذى تصبح فيه قادرة على الوقوف على أقدامها ومواجهة مطالب العصر الحديث فى ذلك العالم المضطرب ، ولا شك أن إعلان الوصاية هذا قد تضمن الكثير من الكذب والخداع ولم يكن من بين هؤلاء الذين قاموا بهذا سوى قليل يمتلكون من بعد النظر والحكمة ما يرون به ضرورة خلق نظم استعمارية جديدة صالحة للأجيال الثالثة والرابعة من الحكم الاستعمارى .

أما الفكرة الجديدة الهامة فى نظام الانتداب الذى ابتدعته عصبة الأمم فهى التزام الدول الاستعمارية نحو الشعوب المحكومة ليس فقط بحكمها بعدالة بل بترقية شعوبها ترقية فعلية اقتصادياً وسياسياً ، وقد وضح هذه الفكرة لورد لوجارد أعظم الإداريين البريطانيين فى إفريقية فى كتابه الالتزام الثنائى فى إفريقية المدارية البريطانية ووزير المستعمرات الفرنسى ألبرت ساروت فى كتابه الاستفادة من المستعمرات الفرنسية وذلك فى السنوات التالية للحرب العالمية الأولى مباشرة(1) وكان كل من لوجارد وساروت لا يزال يرى مستقبلا طويلا للاستعمار . غير أن آراءهم كانت متطورة وليست جامدة وكل منها يصل إلى النتيجة السارة التى ترى أن خير المستعمرات هو نفسه خير ومصلحة الدول المستعمرة . وأن الوقت قد انقضى الذى كان يظن فيه أن خيرات إفريقية

(1) Lord Lugard, Dual Mandate in British Tropical Africa. Albert Sarraut, Mise en valeur des colonies françaises

وأسواقها يمكن أن تظل رصيداً مخبئاً . وأن وقت التنمية قد حان بالنسبة لكل من إفريقية وأوروبا .

أما وقد استرحنا من التزامات الغزو فلا بد وأن تكرس جهود فرنسا كلها فى تنمية ميزانها الاستعمارى . وفرنسا فى كفاحها لاسترداد قوتها من الحرب التى خاضتها بشجاعة ودافعت فيها عن مصير مستعمراتها أصبحت مصلحتها متفقة تماماً مع مصالح كل مستعمرة من مستعمراتها، وعليها أن تضع الخطط التوجيهية والمبادئ الأساسية ووجهات النظر الموحدة التى يجب أن تهيمن وتسير عملية التنمية .

وقد وضح تقرير أورسبى جور عن الممتلكات البريطانية فى إفريقية نظرية ساروت بكل وضوح وكفاءة. ويشير تقرير شرق إفريقية عام ١٩٢٤ وغرب إفريقية ١٩٢٦ بأن التنمية الاقتصادية فى إفريقية المدارية يجب أن تتركز حول السكان الأصليين أنفسهم ، وأنه لا بد من أن يبتدأ بالخدمات الطبية والتعليمية والزراعية . وهذا من شأنه أن يهيئ لكل إفريقى فرصة تنشئة أسرة تتمتع بالصحة ، مفتحة عيونها نحو ضرورة تحسين مستوى المعيشة وأكثر من ذلك فلا بد من تقديم العون والإرشاد للأقاليم الريفية حتى يتمكن الفلاح وصاحب الماشية الإفريقى من أن يسهم فى إنتاج المحاصيل للسوق العالمية . وحتى يصبح هو أيضاً مشترياً من هذه السوق ولم تكن خطة أورسبى جور مجرد مثالية تحلق فى السماء ولكنها خطة حكيمة تهدف إلى المصلحة البريطانية نفسها . فلم توص بتقديم مساعدات كبيرة من الدول المستعمرة لمستعمراتها المدارية — ولكنها برغم ذلك أشارت بأن تتوسع الحكومة فى الإنفاق على ما هو مصطلح عليه من الواجبات الحكومية ، بعد أن أصبحت إيراداتها تغطى مصاريف الإدارة وحفظ الأمن والنظام وتحقق فائضاً كذلك ومثل هذا ما كانت تفكر فيه أى حكومة استعمارية من تلقاء نفسها .

والمثل البريطانى الواضح لهذه السياسة الجديدة هو التعليم وهو ميدان لو ترك للحكومات الاستعمارية ما أبدت نحوه أى اهتمام . ففى عام ١٩٢٥

كونت الحكومة البريطانية مجلساً استشارياً فى وزارة المستعمرات ودعى حكام المستعمرات الإفريقية لحضور مؤتمر وضعت فيه خطة عملية وسياسية بعيدة المدى للتعليم واتفق على أن تتفق الحكومات الاستعمارية ميزانياتها المحدودة فى إعانة المدارس التبشيرية الموجودة فعلا ، والتفتيش عليها وتحسينها بدلا من أن تنشئ مدارس أخرى باهظة التكاليف لمنافستها . وفى مدى عشرة أو خمسة عشر عاماً أصبح فى إفريقية المدارية البريطانية نظم تعليمية تكفى لتعليم ربع أطفالها مدة عامين أو أربعة وأن تعلم نخبة صغيرة فترة طولها ثمانية أو اثنا عشر عاماً ، واتبعت بلجيكا نفس السياسة فى الكونغو ولكنها كانت أكثر اهتماماً بالتعليم الأولى أما الفرنسيون فهم لايستخدمون المدارس التبشيرية ، بل أقاموا مدارس حكومية تستطيع أقلية ضئيلة من الصغار الإفريقيين متابعة المناهج الفرنسية بها . ولم يكن عدد المتعلمين هاماً مطلقاً فى هذه المرحلة . إنما كان المهم أن يثبت فى جميع أنحاء إفريقية أن الإفريقيين قابلون كغيرهم من الناس لأن يكونوا متعلمين وأكفاء مسئولين ،قادرين على حمل الأعباء التى تفرضها الدولة الحديثة . ومن هذه اللحظة لم يعد أحد يشك فى مستقبل الإفريقى فى بلاده .

أما من الناحية النظرية فقد كانت هناك اختلافات أساسية فى سنى ما بين الحربين بين السياسة الاستعمارية البريطانية وسياسات الدول الاستعمارية الأخرى ففرنسا وبلجيكا والبرتغال وإيطاليا جميعاً قد اعتنقت نظرية التمثل(١). وبرغم قيام الإمبراطوريات الفرنسية السابقة وسقوطها فى كندا والهند فإن الفرنسيين أصروا على تسمية إمبراطوريتهم الإفريقية بفرنساوراء البحار ؛ وقد تعلم السنغاليون أن يفكروا كما لو كانوا فرنسيين ؛وتعلم أهل الكونغو أن يفكروا كبلجيك،والصوماليون تعلموا أن يكونوا إيطاليين ؛ وكان الإفريقى — من الناحية النظرية — فى الممتلكات الفرنسية أو البلجيكية يستطيع إذا وصل إلى

(١) Assimilation ومعناه أن يذوب الإفريقى فى الكيان الفرنسى أو الإيطالى الذى يتمثله (المترجم)

افريقيا بعد سنة ١٩١٩

(شكل ١٨)

حد معين من الثقافة والثروة أن يرقى من مرتبة الرعوية إلى مرتبة المواطنة ، يخضع لقوانين الدولة المستعمرة وليس لقانون المستعمرة العرفى ويستطيع أن يمثل فى حكومة الدولة المستعمرة ذاتها ، وهو أفضل من حق التمثيل فى المجالس المحلية للمستعمرة . ولم يكن هناك أى تفكير جاد — فيما بين الحربين — أو اقتراح بأن تصبح هذه الممتلكات مستقلة عن الدول الاستعمارية .وكل ما يرنو إليه أهلها أن يرقوا لمرتبة المواطنة فى فرنسا الكبرى أو بلجيكا الكبرى أو البرتغال الكبرى أو إيطاليا خليفة الإمبراطورية الرومانية . وعلى العكس من ذلك لم تفكر بريطانيا بهذه الطريقة فى سنى ما بين الحربين ، بل إن الكومنولث كان فكرة جديدة نشأت فى قانون وستمنستر عام ١٩٣٠ ولم يفكر أحد فى أنه سيضم يوماً ما الهند ، بل المستعمرات الإفريقية . ولم يكن هناك أى شعور بأن لا بد من أن يتحول الإفريقيون إلى بريطانيين . وعلى العكس من هذا كان الرأى دائماً أن ينموا على « أسلوبهم الخاص » برغم أنه لم تكن هناك أى فكرة واضحة عن هذا الاتجاه أو الأسلوب ومن ثم نشأ الطراز البريطانى فى تنمية المستعمرات .

وبينما كانت السياسات الأوروبية التى تبغى التمثيل والمركزية غير واقعية مثلها فى ذلك مثل السياسة البريطانية القائمة على التجربة واللامركزية . فإن الدول الأوروبية الاستعمارية أراحت نفسها من المشكلات الدستورية والسياسية المعقدة التى أثارها وجود المهاجرين البيض ، فى إفريقية المدارية والتى شغلت جزءاً كبيراً من وقت ومجهود البريطانيين فى العشرينات من هذا القرن حتى فجر الاستقلال . فلقد ثبت وشيكاً خطل النظرية القائلة بأن المستعمرة لا بد وأن تصبح جزءاً لا يتجزأ من الدولة المستعمرة . ولكنها أثارت مخاوف المهاجرين الأوروبيين فى إفريقية المدارية فترة وجودها . وقد شجعت الروح التجريبية البريطانية المهاجرين البيض على الاعتقاد بأن مستقبلهم السياسى فى إفريقية متعلق بمجهودهم الخاص وأنهم إذا استطاعوا السيطرة على مقاليد الحكم تدريجياً من الموظفين المغتربين فإنهم ولا شك سيمسكون زمام أمورهم بأنفسهم وسيسيطرون على مصائر مواطنيهم الإفريقيين فترة غير محدودة من الزمن ؛

وقد كان هذا فى الواقع وهماً لا شك فيه ، فكان عدد المهاجرين البيض شمالى الزمبيزى من الضآلة بحيث أن وجودهم ومركزهم السياسى كان يعتمد اعتماداً تاماً على مساندة قوة الإمبراطورية البريطانية، وبرغم هذا فإن السياسة البريطانية فى إفريقية قد أعطت هؤلاء المهاجرين حق التصويت على النمط الاستعمارى القديم . وليس على النمط الذى كان سائداً فى الهند البريطانية كما أعطاهم حق التمثيل فى المجالس التشريعية للحكومات الاستعمارية وشجعهم على خوض معركة ميئوس منها للسيطرة على الحكومة ، دون أى فكرة واضحة عن مصير هذه المعركة :

وإذا استثنينا جنوب إفريقية فلم يكن هناك انتقال كامل للسلطة إلى يد الأقلية الأوروبية إلا فى روديسيا الجنوبية . وكان هذا نتيجة لظروف احتلال هذا القطر الخاصة حيث كان المهاجرون البيض هم اليد اليمنى للشركة صاحبة الامتياز . وعندما انتهى الامتياز عام ١٩٢٣ كان من الصعب إنشاء حكومة استعمارية بديلا عن الشركة . وقد عرض على المهاجرين البيض فرصة الدخول فى اتحاد جنوب إفريقية أو الحكم الداخلى الذاتى على أساس أن يمنح حق التصويت لمن يصل إلى حد اقتصادى معين كفيل بأن يمنع هذا الحق عن الإفريقيين فيما عدا حفنة قليلة منهم . فاختاروا الحكم الذاتى وركزوا كل جهودهم فى الثلاثين عاماً التالية على جذب مزيد من المهاجرين البيض ونجحوا فى بناء قوتهم وتوطيد سلطانهم السياسى لدرجة تحتاج إلى ما هو أكثر من حركة وطنية إفريقية لزحزحتهم :

أما فيما عدا ذلك فى وسط إفريقية وشرقها فقد كانت حركات المهاجرين البيض السياسية لا تعدو أن تكون واجهات موقتة . وكان أول مركز لهم فى كينيا حيث حصل حفنة من المهاجرين الأثرياء المترابطين بقيادة لورد ديلامير على نفوذ كبير فى حكومة الإقليم . وقد ظل نفوذ المهاجرين البريطانيين قوياً فى شئون كينيا السياسية حتى أواخر الخمسينات، غير أن حركة التغيير الحقيقية كانت قد بدأت فى أوائل العشرينات . فعندما زاد عدد المهاجرين فى الأعوام

ما بين ١٩١٩ – ١٩٢٢ ارتفعت أصوات محذرة من أن تعرقل زيادة المهاجرين فرص التنمية الاقتصادية أمام السكان الإفريقيين . وأوضحت الحكومة البريطانية عام ١٩٢٣ أن مصالح الإفريقيين هي فوق أي مصلحة أخرى في كينيا كما هي في أوغنداوتنجانيقا . ومع احترام حقوق الأوروبيين إلا أنه لن يسمح بقيام حكومة على غرار حكومة روديسيا الجنوبية . ومنذ هذا التاريخ قل نفوذ المهاجرين البيض .

أما في شرق إفريقية كما هي الحال في نيجيريا وساحل الذهب وأكثر الممتلكات الفرنسية ازدهاراً كالسنغال ، كان العامل الهام فيتطور إفريقية هو العدد القليل النامي من الإفريقيين الذين يتلقون تعليمهم في المدارس الثانوية . وبذلك يقتربون منالمستوى الثقافي لكثير من المهاجرين والموظفين المغتربين . ولم يصل المهاجرون البيض شمالي الزمبيزي إلى قوة اقتصادية ذات قيمة إلا في روديسيا الشمالية وذلك بنمو صناعة تعدين النحاس في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات . ويشبه هؤلاء في الكونغو المشتغلون بصناعة استخراج المعادن في كاتانجا ،وقد فهم هؤلاء من الحكومة البلجيكيةأنهم قديحصلون على امتيازات ولكنهم لن يحصلوا على حقوق سياسية خاصة .

وكانت الفترة بين عام ١٩١٤ – ١٩٣٩ هي الفترة التي يقبض فيها الأوروبيون على مصائر الأمور ظاهرياً . فلم يكن هناك أي إفريقي في مراكز ذات مسئولية حقيقية . فلقد انهارت عام ١٩٣٥ مملكة الحبشة تحت الغزو الإيطالي . وكان الحكم الأوروبي في كل أنحاء إفريقية في ذروة قوته . وحيث استطاع أي ملك إفريقي أن يبقى فإنه تحول إما إلى مجرد رمز أو موظف مدني خاضع للسلطة الأوروبية ، بل إن الإفريقيين لم يخوضوا معارك المحافظة على حقوقهم أمام المهاجرين البيض ، بل خاضها لهم موظفون استعماريون أو مبعوثون تبشيريون أو أصوات متحررة في الدول الاستعمارية . وكان هؤلاء يخوضون تلك المعارك وهم يعتقدون أن سكان أظلم جهات إفريقية السوداء

لديهم القدرات الكافية كغيرهم من بنى البشر لكى يصبحوا سادة بلادهم لو وجدوا التدريب الكافى : وفى خلال هذه الفترة دخل جيل جديد من الإفريقيين المدارس ومنها خرج صفوة مهيئة ليس فقط للمشاركة فى حكم بلادها ، بل لقيادة الإفريقيين فى إفريقية الجديدة وبدأ بعض الرجال البيض فى إفريقية يتحدثون باستخفاف عن السود لابسى السراويل أو « حفنة التلاميذ خريجى الامتحانات المدرسية » غير أن ظهور هؤلاء الإفريقيين فى تلك المرحلة من الاستعمار كان أهم ظاهرة فى تاريخ إفريقية :

— ١٩ —

الفترة الاستعمارية

المرحلة الثالثة : التنمية الاقتصادية

لم تكن نظرية الدول الاستعمارية تتضمن حتى العشرينات أو طريقتها للحكم فى الأربعينات أى فكرة عن تقديم المساعدة المالية لتنمية المستعمرات اقتصادياً . وكان هذا أساساً تطبيقياً لنظرياتها الاقتصادية التى تمارسها فى الدول المستعمرة ذاتها ، وهو تطبيق استمر حتى تلك الفترة . فلقد كانت الدول الاستعمارية فى إفريقية مستعدة إلى مساعدة المستعمرات مالياً حتى يحين الوقت الذى تعادل فيه دخلها بمصروفها فى الإدارة . أما بالنسبة للإنفاق على المشروعات الإنتاجية فإن الدول الاستعمارية وجهت معظم أوجه إنفاقها على إنشاء السكك الحديدية الاستراتيجية . مثل سكك حديد أوغندا وسكك حديد شرق إفريقية الألمانى وجنوب غرب إفريقية الألمانى وهى سكك حديدية نشطت فى السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى مباشرة ، ولم تفعل الدول ذلك إلا بعد أن فشلت فى تمويلها بوسائل أخرى . وفيما عدا ذلك فان الحكومات الاستعمارية كان لا بد لها أن تعيش على مواردها الضئيلة وأن تحدد قروضها بحدود ضمانات دفعها من دخلها الضئيل :

وعلى الرغم من هذه القيود فقد تم الكثير بشكل ملحوظ . فقد انتهت فى العشرينات مثلا خريطة سكك حديد إفريقية الحالية . وبرغم ما نتج عن ذلك من نمو اقتصادى فإنه كان أقل مما ينتظر ، فالسكك الحديدية التى خططت على أسس استراتيجية لمواجهة حاجات حكام المستعمرات لم تكن دائماً فى خدمة

التجارة بكفاءة . كما أن قوارب الحكومة مثلا كانت تستطيع أن تبحر فى السنغال والنيجر بينما لم تستطع ذلك السفن المحملة بالبضائع . وكان نظام المواصلات فى الكونغو يحتاج باستمرار إلى تفريغ البضائع ثم شحنها عدة مرات للانتقال من الخطوط الحديدية إلى السفن النهرية ومن السفن النهرية مرة أخرى إلى القطارات وهكذا . كما أن نقص الأموال اللازمة حال دون توسيع الموانى المحيطة لاستقبال السفن وتفريغ بضائعها وجاء إنشاء الموانى الإفريقية متأخرة جداً بالنسبة للسكك الحديدية ، بل إن مستعمرة ساحل الذهب ذات الثراء النسبي تأخر بها افتتاح المرفأ العميق اللازم لخدمة سكك حديد أشانتى حتى عام ١٩٢١ برغم الانتهاء من السكك الحديدية عام ١٩٠٣ .

ولم تكن السكك الحديدية دائماً وسيلة تلقائية لتنشيط النمو الاقتصادى فمن الواضح أن مثل هذا النمو تم بسهولة وبشكل طبيعى فى الأقاليم التى أقبلت على الإنتاج والتجارة . فإنشاء السكك الحديدية أتى بنتائج أعظم فى غرب إفريقية منه فى شرقها ، وكانت النتائج أحسن فى غرب إفريقية ذاتها فى المناطق الساحلية منها فى السودان الغربى . وقد أدركت شعوب ساحل الذهب الجنوبى ونيجيريا الجنوبية قيمة نظم النقل الحديثة فى تصدير الكاكاو والخشب ومنتجات النخيل ولم تتخلف السنغال كثيراً عن ذلك فى إنتاج الفول السودانى ، كما أن اقتصاد ساحل العاج وغينيا الفرنسية قد انتعش . أما فى شرق إفريقية فقد كان على السكك الحديدية أن تقطع مئات الأميال فى بلاد جافة مقفرة نادرة السكان قبل أن تصل إلى المناطق الزراعية الجيدة الكثيفة السكان فى حوض بحيرة فكتوريا . وقد وجد حل جزئى لاقتصاديات سكك حديد أوغندا ، وذلك بتشجيع الهجرة الأوروبية إلى كينيا . ولم يكن مثل هذا الحل مجدياً بالنسبة لتنجانيقا حيث تتوسطها مناطق واسعة ذات تضاريس خشنة متقطعة قبل أن تصل إلى جنوب بحيرة فكتوريا ومن ثم تأخر إنشاء سككها الحديدية عشرين عاماً . وتضرب جنوب غرب إفريقية المثل الأكبر فى سكة حديدية متسعة النطاق باهظة التكاليف أنشئت لأهداف استراتيجية عبر مساحات شاسعة من

الأرض المقفرة تماماً من السكان ومن ثم لن نستطيع مطلقاً أن تغطى تكاليف إنشائهـــا .

وقد عقدت آمال عريضة فى عهد تقسيم إفريقية على التنشيط الاقتصادى الذى يمكن أن يدفعه المهاجرون الأوروبيون . غير أن نتائج هذه الهجرة كانت ضئيلة جداً بعد مرور ثلاثين عام على بدئها . برغم أن ما يقرب من خمسين مليوناً قد هاجروا من أوروبا إلى جهات أخرى ما بين عام ١٨٨٠ — ١٩٣٠ فإن قليلا من هؤلاء اتجهوا إلى إفريقية ، ومعظم هؤلاء هاجروا إلى الجزائر أو جنوب إفريقية . فلم يصل عدد المهاجرين الأوروبيين إلى المنطقة الواقعة بين الصحراء الكبرى ونهر اللمبوبو خلال الثلاثينات الأولى سوى ستين ألفاً . وكان معظمهم من فائض سوق العمل ، عندهم قليل من المهارات ولا مال لهم وكان هناك مجالات محدودة لمثل هؤلاء فى إفريقية المدارية التى كان ينقصها رأس المال الخاص باليد العاملة غير الماهرة من الإفريقيين ، وقد ارتكبت أخطاء عديدة كما مرت سنون عجاف قبل أن يستطيع الفلاح الأوروبى المالك لرأس المال والذى يستخدم العمال الإفريقيين أن يتعلم ماذا يجب عليه أن يزرع من نبات وماذا يجب عليه أن يربى من حيوان. ويمثل هذا مر الأوروبيون الذين أنشئوا مزارع واسعة ، وإذا استثنى محصول كالطباق فى روديسيا الجنوبية والشاى فى نياسالاند والسيسال فى تنجانيقا فإن معظم المحاصيل الإفريقية يمكن أن ينتجها الفلاح الإفريقى بنفس الكفاية التى ينتجها به المزارع الأوروبى وبتكاليف أقل لأن الفلاح الإفريقى يعمل لحسابه وفى أرضه هو . فإذا أراد الأوروبيون أن يستغلوا أموالهم فى إفريقية — ولقد كان الاستغلال فى غير إفريقية حتى العشرينات أقل تعرضاً للمخاطر وأكثر ربحاً — فقد كان عليهم أن يستغلوا تلك الأموال فى إعانة شركات تعمل أساساً فى البيع والشراء مع المنتجين الإفريقيين ، أكثر مما تعمل فى الإنتاج الزراعى بنفسها .

ويستثنى التعدين من هذه القاعدة بصفته أساساً للاستقرار الأوروبى وجاذباً لرأس المال الخاص . فلقد كان اكتشاف مناجم الذهب والماس فى

السبعينات والثمانينات من القرن الماضى هو السبب فى ظهور مجتمعات حضرية وصناعية فى جنوب إفريقية . وكان الأمل فى العثور على مزيد من الذهب وغيره من المعادن هو الذى مكن تلك المجتمعات من التوسع إلى روديسيا الجنوبية فى التسعينات وفى حزام النحاس على طول الحدود بين روديسيا الشمالية والكونغو فى الثلاثة العقود الأولى من هذا القرن. وقد وضح الأستاذ س . ه . فرانكل عام ١٩٣٨ أهمية الثروة المعدنية وما تلاها من تصنيع توضيحاً قوياً عندما نشر الأرقام الدالة على رأس المال المستغل فى إفريقية جنوب الصحراء . فلم يستغل أقل من ٥٥٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى جنوب إفريقية فى صناعات التعدين وذلك من المجموع الكلى للاستثمارات المقدر بنحو ١,٢٢٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه مقسما بالتساوى بين الاستثمار الخاص والقروض العامة . كما استثمر ١٠٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه أخرى فى الروديسيتين و ١٤٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى الكونغو وبمعنى آخر استثمر ثلث رأس المال الأوروبى فى الأقطار التى تعتمد اقتصادياً على التعدين .

أما فى جنوب إفريقية فقد كانت حركة الدفع الاقتصادى من القوة بحيث كان القطاع الخاص قادراً على إنشاء السكك الحديدية وغيرها من المشروعات الرأسمالية كما خلق القطاع الخاص المدن التى نمت حول معسكرات التعدين وأثرت أثراً بالغاً فى مجموعات كاملة من السكان فى أقاليم بأثرها . أما فى النصف البلجيكى من كاتانجا فإن شركات التعدين اتبعت سياسة تحديد حجم اليد العاملة، فشجعت موظفيها على أن يحضروا أسرهم ويستقروا حول المناجم بصفة دائمة ويكونوا طبقة حضرية دائمة، وكان من الصعب تكوين قوة عمل إفريقية دائمة فى جنوب إفريقية أو الروديسيتين بسبب وجود المحلات الأوروبية قبل إنشاء صناعة التعدين . إذ أن نقابات العمال البيض خشيت أن يكتسب الإفريقيون خبرة وتدريباً تمكنهم من أن ينافسوا احتكار البيض للمهارات الآلية فكان معظم الإفريقيين « عمال تراحيل » فى المناجم يجلبون من مئات الأميال حول المناجم ويتركون أسرهم فى القرى ليعملوا عاماً — أى

فترة موقتة ـــ يسكنون خلاله فى معسكرات تقيمها لهم شركات التعدين ؛ وبرغم أن هذا الأسلوب ضار اجتماعياً كما أنه فى النهاية ضار اقتصادياً برغم ضآلة أجر العمال لأن العامل غير المدرب الموقت غير كفء . فإنه كان يعنى أيضاً إنشاء الحياة الحضرية . ولم تأت الثلاثينات حتى لم تعد هناك سوى أسر قليلة لم يكن لها ابن يعمل بعيداً فى المدن .

يضاف إلى هذا أن أجر العامل الإفريقى رغم ضآلته وبرغم عدم عدالته بالنسبة لأجر العامل الأبيض فإنه كان فى المتوسط أعلى من دخل أى إفريقى آخر . فإذا أضفنا إلى هذا أيضاً وجود عدد لا بأس به من السكان الأوروبيين لعلمنا كيف أمكن النشاط الأوروبى أن يقيم صناعات ثانوية تنتج لكفاية السوق المحلية . وكانت هذه الصناعات إحدى ظاهرات جنوب إفريقية فى العشرينات وظاهرة من ظاهرات روديسيا الجنوبية فى أواخر الأربعينات ؛ وقد أدى هذا التصنيع المستمر إلى تدفق اليد العاملة الإفريقية نحو المدن كما جعلت هؤلاء الإفريقيين يركنون إلى الحياة الحضرية دائماً . ولم يتصور السادة الأوروبيون فى إفريقية الجنوبية تكون طبقة دهماء فى إفريقية السوداء بهذا الحجم . فلقد تكدس مئات الآلاف من الإفريقيين فى أحياء قذرة منحطة حول النويات الأوروبية الكبرى .

لقد أعطت هذه الثورة الصناعية المحلية ، برغم أنها خلقت ظروفاً من التوتر الاجتماعى ، إفريقية الجنوبية اقتصاداً مختلفاً تماماً عن بقية الاقتصاد الإفريقى . فلقد تمثل فى اتحاد جنوب إفريقية فى منتصف الثلاثينات نحو نصف التجارة الدولية التى أسهمت بها إفريقية جنوبى الصحراء فكان نصيب الشخص الواحد من التجارة الدولية نحو ٢٢ جنيهاً بينما لم يزد نصيب الفرد من تنجانيقا على ١½ جنيه ، وقل نصيب الفرد الواحد عن ذلك فى غرب إفريقية الفرنسى بأجمعه ولم يبدأ أى جزء آخر من إفريقية المدارية فى الإسهام فى التجارة الدولية سوى الوحدات الكبيرة من غرب إفريقية التى نشط فيها استخراج المعادن والتى تكونت فيها مجتمعات زراعية تنتج المحاصيل النقدية لأجل التصدير ؛

ولم يزد نصيب غرب إفريقية حتى الثلاثينات عندما أدى الكساد العالمي إلى عدم الإقبال على محاصيلها على السدس ، بل إن أغنى أقطار إفريقية أى ساحل الذهب لم يزد نصيب الفرد الواحد فيها من التجارة الدولية على ٧ جنيهات .

لقد كانت الأزمة العالمية هي التي علمت الدول الأوروبية أنها لا يمكن أن تنتظر من الاقتصاد الإفريقي أن ينمو بنجاح نتيجة مجهود السكان الأصليين وحدهم وبمساعدة رأس المال الأوروبي الخاص وحده الذي يقدمه المهاجر والمستثمر الأوروبي . فأقدمت بريطانيا عام ١٩٢٩ لأول مرة على إقراض المستعمرات لتنمية اقتصادها وتنشيطه . ولم يكن هذا عن إيثار ولكن عن أثرة فقد شعرت بريطانيا خلال الأزمة العالمية الملحة إلى زيادة تجارتها الخارجية فكان اقتصاديات المستعمرات الراكدة مخرجاً ملائماً في متناول يدها . إلا أن المال — في هذه السنوات — كان عزيز المنال، ومن ثم لم تكن النتائج عظيمة فلم يصل إلى الممتلكات البريطانية في إفريقية أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ جنيه حتى عام ١٩٣٨ وذلك عن طريق ميزانية التنمية الاستعمارية وهو مبلغ يوازى ١٪ من مجموع ميزانيات تلك الممتلكات مجتمعة .

وقد بينت الحرب العالمية الثانية مدى الإمكانات الضخمة التي تنطوى عليها إفريقية المدارية والتي ظلت دون استثمار . فلقد قطعت هذه الحرب سبل التموين القديمة ونشأت صعوبات خاصة بالعملة واشتد الطلب على المواد الاستراتيجية الأولية التي يمكن أن تنتجها إفريقية وظهر عجز واضح في المواد الغذائية والمواد الخام بعد الحرب وأصبحت المستعمرات فجأة ذات قيمة اقتصادية ضخمة . فكانت المستعمرات الإفريقية بالنسبة لبلجيكا . وبدرجة أقل لفرنسا المصدر الوحيد الذي يمكن أن يسهم في المجهود الحربي خلال الأعوام من ١٩٤٠ — ١٩٤٤ :

وكانت نتائج هذه الظروف الجديدة في معظم الأحيان جيدة : فارتفع إنتاج صناعات التعدين في روديسيا الشمالية والكونغو إلى حد لم تصله من قبل وكانت قد عانت من الجمود بعد الأزمة الاقتصادية العالمية فزادت قيمة

صادرات الكونغو حتى ١٩٥٣ أربعة عشر ضعفاً ، وزاد دخل الحكومة أربع مرات وازدادت صادرات روديسيا الشمالية من المعادن تسع مرات، وكان كل هذا الإنتاج تقريباً من النحاس، كما زاد دخل حكومتها عشرين ضعفاً، وبعد أن كانت مع نياسالاند سندرلا وسط إفريقية البريطانى أصبحت أغنى هذه الأقطار جميعاً . أما فى جنوب غرب إفريقية البريطانى فقد حطمت الأداة الحكومية ووكلاؤها المشترون للحاصلات الهامة مثل محاصيل الزيت والكاكاو احتكار شركات التجارة الأوروبية وسيطرتها على اقتصاديات الفلاحين. وقد هيأت هذه الوكالات الحكومية الطرق لإنشاء مجالس للتسويق تحت الإشراف الحكومى المحلى بعد انتهاء الحرب استطاعت أن تضمن للفلاح سعراً أعلى لمنتجاته يقيه شر تقلبات الأسعار العالمية كما استطاعت أن تكدس مخزوناً احتياطياً كبيراً يقابل احتياجات السوق فى السنوات العجاف . وقد وصل هذا المخزون الاحتياطى من الضخامة بحيث أصبح من الممكن التسليف عليه أو دفع مبالغ ائتمانية بضمانه للقيام بمشروعات محلية تستهدف التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وأكثر من هذا فإن الصناعة الأوروبية خلال الحرب حتى الخمسينات كانت عاجزة عن أن تمد الممتلكات الإفريقية بالبضائع الإنتاجية أو الاستهلاكية التى تستطيع أن تستوعبها قوتها الشرائية الجديدة . وبذلك استطاعت كثير من المستعمرات أن تكون لنفسها أرصدة دائنة فى أوروبا .

فقد استطاعت المستعمرات الغنية بعد الحرب أن تنشغل بتنفيذ مشروعات تنمية كبيرة تعرف أنها تستطيع أن تموِّلها من مواردها الخاصة . ليس هذا فحسب ، بل لقد ارتفعت الاستثمارات الأوروبية فى كافة إفريقية وكانت هذه الاستثمارات قد نقلت ميادينها السابقة فى الأمريكتين وآسيا . كما ازداد رأس المال المستثمر القادم من أمريكا الشمالية ، وأكثر من هذا فقد أقدمت الحكومات الأوروبية على استثمار أموالها مباشرة فى المشروعات الإفريقية الكبيرة والتى كانت من نصيب رأس المال الخاص إذا فكر فى القيام بها فى الفترة

السابقة، برغم أن بعضاً من هذه المشروعات مثل إنتاج الفول السودانى بالوسائل الآلية لم يكن له نصيب من النجاح .

وقد أحدث ميثاق الأطلنطى وقيام منظمة الأمم المتحدة ثغرة كبيرة فى المناخ السياسى . فأقدمت الدول الاستعمارية على تنفيذ مشروعات سريعة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية لا لأن المستعمرات المتخلفة لم تعد ذات قيمة لهذه الدول ، بل لأنها شعرت بأن عليها التزاماً أدبياً نحو رعاياها المستعمرين . فبعد نهاية الحرب أصبحت « السياسة الجديدة » كما يقول سير كنيث هانكوك أحد رواد سياسة التنمية، هى ازدياد النشاط فى القيام بمشروعات التنمية الاقتصادية وتحقيق الرخاء الاجتماعى. ففى بريطانيا بدأت مشروعات التنمية الاستعمارية عام ١٩٢٩ تمتد إلى الميدان الاجتماعى كما تمتد إلى الميدان الاقتصادى فارتفعت قيمة الانفاق من ١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إلى ٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً (١٩٤٠) ثم ارتفعت إلى ١٢,٠٠٠,٠٠٠ أو أكثر عام ١٩٤٦ وقد مكن هذا المبلغ الكبير من إدخال المستعمرات البريطانية الفقيرة فى نطاقها وأن تشمل مشروعاتها حيث أن قيمة الإنفاق الكلى وصل إلى ٢١٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه خلال الأعوام ١٩٤٦ ـــ ١٩٥٥ ، أما بالنسبة لإفريقية الفرنسية حيث كانت معدلات الاستثمار أدنى بكثير ولا سيما إذا كان مصدرها رأس المال الخاص، فإن التغيير كان أيضاً عظيما توصلت قيمة الاستثمارات فى مشروعات التنمية للمستعمرات الفرنسية التسع فى غرب إفريقية إلى ٢٧٧,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى نفس الفترة وقد أسهم القطاع العام بنسبة أكبر مما أسهم به فى المستعمرات البريطانية . أما فى الكونغو فإن الحكومة الاستعمارية البلجيكية اضطرت أن تنفق فى المستعمرة ما وجدت نفسها مدينة به لها بعد انتهاء الحرب .

وقد كانت أعظم النتائج ـــ فى كثير من الأحيان ـــ لهذا الاتجاه الجديد نحو مشروعات التنمية نتائج اجتماعية . فمعظم التقدم الاقتصادى حتى بالنسبة للممتلكات الغنية وبتدخل الحكومات نفسها ، جاء نتيجة الظروف الاقتصادية الجديدة . غير أن الحال كان مختلفاً عن ذلك فى الميدان الاجتماعى . فقـــد

تذكرت الحكومات الأوروبية فجأة أن رعاياها فى المستعمرات محتاجون للأطباء والاجتماعيين ورجال النقابات وفى حاجة إلى خدمات صحية أفضل ومياه أنقى ومساكن أفضل،وفوق هذا كله مدارس أكثر عدداً وأحسن حالا . فاتجهت مشروعات التنمية الجديدة عن وعى نحو الميدان الاجتماعى كما اتجهت نحو الميدان الاقتصادى . فبعد الحرب مباشرة اتجهت نحو إنشاء جامعات استعمارية . وكان معنى هذا تقوية درجات السلم التعليمى الأدنى. ولم يتخلف البلجيكيون والفرنسيون كثيراً عن هذا برغم اختلاف أسلوبهم التربوى . فقمة التعليم الفرنسى للفرنسى أو للإفريقى فى المستعمرة الفرنسية هى إحدى جامعات فرنسا . وبذلك صاحبت الثورة الاجتماعية والتربوية فى جميع أنحاء إفريقية الثورة الاقتصادية الجديدة .

ولم تكن نتائج هذه الثورة واحدة فى جميع أنحاء القارة ، بل لقد كان لبعض النتائج غير متوقعة إطلاقاً . واختلفت أيضاً باختلاف الهدف النهائى للدول الاستعمارية وباختلاف تأثر الإدارة المحلية برعاياها من المهاجرين الأوروبيين ، ففى وسط وشرق إفريقيةالبريطانى حيث كان المهاجرون لهم صوت مسموع فى إدارة دفة الأمور،وكذلك فى الكونغو البلجيكى حيث لم تكن هناك خطة تهدف إلى أن يصحب التقدم الاقتصادى أى تقدم سياسى ، كان الاهتمام التربوى موجهاً نحو التعليم الأولى والمهنى ، وفى كل من الحالتين كان الرأى السائد أنه من الخطر أن يسمح للإفريقى بأن يتقدم إلى أبعد من هذا أو بأسرع من هذا .

ولما كانت الأقطار الإفريقية المستعمرة تنقصها المدارس والتسهيلات التربوية الأخرى من قبل فقد كان من الممكن الاستعانة بالأوروبيين للقيام بالمشروعات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة . وإذا استثنينا المهاجرين فإن الأوروبيين فى إفريقية كانوا حتى الآن يعملون فى ثلاثة ميادين رئيسية : التجارة وغيرها من الميادين الاستغلالية ؛ والتبشير (الذى كان ينهض بالتعليم كله من قبل) والإدارة سواء كانت فى الحكومة أو الخدمات الضرورية لها .

فأصبح من الضرورى الآن استيراد أعداد كبيرة من المدرسين وأساتذة الجامعات والخبراء البريطانيين ومقاولى أعمال ومهندسى مياه ريفية ومساحين وبنائين وغيرهم وغيرهم بالإضافة إلى عدد كبير من الباحثين والمخططين والمستشارين، ويحصل هؤلاء جميعاً على مرتبات مرتفعة ونفقات سفر لتمكينهم من قضاء إجازاتهم فى أوروبا . كما كان لا بد من تهيئة المساكن لهم حتى تستطيع عائلاتهم أن تعيش معهم فى ظروف طيبة لا تقل عن ظروف حياتهم فى أوطانهم إن لم تكن أفضل . وبهذا اختفى قدر كبير من المال المخصص للتنمية الإفريقية وعاد إلى أوروبا .

وقد استطاع الإفريقيون فى غرب إفريقية حتى الآن أن يتكفلوا بهذا كله فبعد الحرب بقليل استطاعوا أن يروا المنافذ التى ينفذوا منها للسيطرة على مقاليد أمورهم وعلموا أنه لا بد لهم أن يحلوا محل الأوروبيين كخبراء بينما يجعلون الباقية منهم تحت سيطرتهم . أما فى غير ذلك فإن الغزو الأوروبى الجديد وسع من شقة الخلاف بين الإفريقيين والأوروبيين ولا سيما عندما جاء هؤلاء ليزيدوامن عدد السكان البيض المهاجرين السابقين لهم . وربما أدى هذا الغزو الجديد إلى تشجيع أو حفز المطالبة بالتقدم السياسى - وأحياناً كما حدث فى جنوب القارة لم يؤد إلا إلى أن يزيد الشقة اتساعاً بين الإفريقيين وسادتهم من الأوروبيين فى الثروة والثقافة مما يجعل عبورها أمراً عسيراً .

ومن الواضح أن إفريقية المستعمرة خلال الأربعينات والخمسينات تتحرك بسرعة وتبعد عن حالة الركود التى كانت عليها فى نصف القرن الماضى . فزيادة الثروة مصطحبة بتحسن كبير فى وسائل النقل التى تمثلها طرق السيارات الجديدة التى وصلت إلى أقصى القرى النائية، وازدياد التعليم الذى حفز وسيلة جديدة للارتقاء الاجتماعى وأضعف الترابط القبلى القديم ، وخلق مشكلات جديدة للمستقبل وقد تغير كل من وجه القارة الطبيعى ، ووجهة نظر سكانها بقدر لم يسبق له مثيل فى تاريخها فلحق الإفريقى بكثير من آلام النمو مع بقية الركب العالمى مرة أخرى . ولا يزال الطريق طويلا أمام الإفريقيين

فالاقتصاد الإفريقى لا يزال معتمداً على تصدير عدد قليل فقط من الحاصلات الأولية، ولا يزال متوسط الدخل القومى للفرد الواحد فى إقليم لا يزال أفراده ينتجون ما يقيمون به أودهم فحسب منخفضاً انخفاضاً شديداً بالقياس إلى المستويات الأوروبية ، بل بالقياس إلى الأقطار الأسيوية كذلك . فبينما متوسط هذا الدخل ٣٠٠ جنيه فى غرب أوروبا فى أواسط الخمسينات فإنه لا يصل فى تنجانيقا إلا إلى ١٧ جنيهاً وفى نياسالاند ٧ جنيهات فقط . بينما هو لا يكاد يقاس فى الصومال أو الفولتا العليا . وأفضل مستوى للدخل القومى حققته إفريقية هو ١١٧ جنيهاً ، موزعاً توزيعاً غير متعادل بين الأبيض والإفريقى فى جنوب إفريقية و ٧٥ جنيهاً للإفريقى فى غرب إفريقية .

وبرغم هذا فقد بدأت الطلائع تبشر — بطرق مختلفة — بشروق غد جديد يتحدى فيه الإفريقى استمرار السيطرة السياسية الأوروبية على بلاده .

— ٢٠ —

إفريقية المستقلة (١)

بدأ تفكك النظام الاستعمارى فى إفريقية عام ١٩٥٧ عندما أصبحت مستعمرة ساحل الذهب البريطانى غانا المستقلة . وأصبح الظاهرة السائدة فى إفريقية المدارية بعد مرحلة النمو الاقتصادى والاجتماعى الذى أشرنا إليه أى فى أطراف القارة الأخرى، فقد كان توقيت الاستغلال وظروفه مختلفة . فاتحدت مستعمرات بريطانيا الأربع التى يعيش فيها الأوروبيون فى جنوب إفريقية وكونت عام ١٩٠٩ اتحاداً يتمتع بالحكم الذاتى بصفته دومنيون فى الكومنولث البريطانى، ومنحت روديسيا الجنوبية عام ١٩٢٣ نظاماً ووضعاً لا يختلف كثيراً عن وضع أماكن استيطان الأوروبيين فى الجنوب كثيراً .

كان الحكم الذاتى فى جنوب إفريقية وروديسيا الجنوبية لا يتعدى أثره السكان الأوروبيين فقط . فقد كانت حرب جنوب إفريقية (١٨٩٩–١٩٠٢) التى حولت جمهوريتى البوير إلى مستعمرات بريطانية محاولة لتسوية النزاع بين مجموعتين من السلالة البيضاء . وعندما كان البوير يتحدثون عن العلاقات الشعبية كانوا دائماً يقصدون العلاقات بين البوير والبريطانيين . وكان من الشروط التى قبلها البوير فى معاهدة الصلح عام ١٩٠٢ ألا تثار مسألة أصوات البانتو فى الجمهوريات السابقة حتى تستعيد الحكم الذاتى مرة أخرى . فمنح الحكم الذاتى للترنسفال وأورانج الحرة عامى ١٩٠٦ — ١٩٠٧ لأن الساسة البريطانيين فى ذلك الحين كانوا معارضين سياسة تشامبرلن الخاصة بجنوب إفريقية على أساس أنها تقيد حريات أمة البوير الناشئة . ولقد ملكت تلك

السياسة الليبرالية التى أملتها مبادئ جلادستون حواس الساسة فى بريطانيا حتى أنهم نسوا التزامات بريطانيا نحو شعوب جنوب إفريقية من غير الأوروبيين مثل البانتو والهنود . كما أن قادة البوير الجدد استغلوا ذلك المبدأ إلى أقصى حد ولا سيما جنرال بوتا وسمطس : ولذلك فلم يمنح حق التصويت والانتخاب إلا للبيض فقط فى دستور ترنسفال وأورانج الحرة الجديد .

ولذلك فعندما اجتمع الزعماء السياسيون لمستعمرة الكاب وناتال وترنسفال وأورانج الحرة عام١٩٠٨ – ١٩٠٩ لمناقشة بنود الاتحاد ذهبت وفودهم جميعاً ما عدا وفد الكاب مكونة من الرجال البيض فحسب . وفشلت الكاب فشلا ذريعاً فى حمل الوفود الأخرى على قبول مبدأ قبول منح حق التصويت لكل السلالات ، طالما وصل الفرد منها إلى حد معين من الدخل أو امتلك حداً معيناً من الملكية . وبرغم الحاجة الملحة لتوحيد السياسة قبل الوطنيين إلا أن هذا الاجتماع الدستورى الأول وصل إلى اتفاق بشأن الاتحاد على أن تؤجل مسألة السياسة قبل الوطنيين فى ذلك الحين . وكان من نتائج ذلك أن ظلت أراضى البانتو الثلاثة وهى باسوتولاند وبتشواناالاند وسوازيلاند ، خارج الاتحاد ووضعت تحت الحماية البريطانية مباشرة . والأمر الثانى هو أن حق التصويت لم يكن عاماً فى انتخابات أول برلمان فى جنوب إفريقية إذ احتفظ بالوضع القائم دون أى أصوات للإفريقيين خارج الكاب والأمر الثالث هو أنه على الرغم من اقتناع المتحدثين بالإنجليزية والبوير بأنه لا بد من الاحتفاظ بتقاليد الكاب الخاصة بمنح حق الانتخاب لغير الأوروبيين « المتمدينين » فإنه كان لا بد أيضاً من حماية هذا التقليد فى إحدى « المواد المستحدثة » فى دستور الاتحاد ولا يمكن تغييره إلا بأغلبية ثلثى الأصوات فى مجلسى البرلمان مجتمعين .

ويدور بقية تاريخ إفريقية حول حملات الوطنيين البوير فى تغطية هزيمة ١٩٠٢ وإحياء تقاليد المسيرة الكبرى . فأوقف حق التصويت لغير البيض فى الكاب أولا ثم ألغى نهائياً، كما أن أغلبية الناخبين منذ عام ١٩٤٨ كانت تصوت فى جانب سياسة التفرقة العنصرية وتقوم نظريتها على وجوب فصل كل من

البيض والسود فى جنوب إفريقية (أو فصلهما بقدر الإمكان) وتعتنق جمهورية جنوب إفريقية التى قامت عام ١٩٦١ مبدأ عزل غير البيض من أى نشاط سياسى وفصل البانتو فى أراضى خاصة بهم (بانتوستان) حيث يكونون يوماً أمماً منفصلة .

ولقد سير الأحداث أحياناً الناس خارج الاتحاد . على أنه ينبغى أن نتذكر أنه على الرغم من ازدياد عدد السكان البوير[1] (أفريكانز) بمعدل أسرع من ازدياد المتحدثين بالإنجليزية، وعلى الرغم من انتقال مركز الثقل السياسى من الكاب إلى الترنسفال وأن عدد أعضاء البرلمان يفوق كثيراً عدد أعضاء البرلمان من ذوى الأصل الإنجليزى وأن معظم هؤلاء من سكان الريف فإننا لا نستطيع أن ننسى أن خُمس سكان البيض ليسوا من أصل هولندى (بوير) .

ومثل هؤلاء الملاحظين ينسون ثلاثة عوامل أنهم ينسون رغبة البوير الملحة القوية فى إنشاء قومية خاصة بهم وإلى أى حد استثيرت هذه الرغبة فى السنوات الأخيرة بلا كلل أو تعب . وهم ينسون ثانياً أن آراء أهل الكاب الحرة لم تسمح بالمساواة السياسية إلا لأقلية صغيرة من السكان غير البيض الذى يقال إنهم « تمدينوا » . ففى الكاب ، كما فى أنحاء جنوب إفريقية الأخرى يعتنق معظم البيض سياسة عزل الإفريقيين الذين لم يصلوا بعد إلى مستوى معين هم أنفسهم الذين حددوه . وينسون ثالثاً أن مصلحة البيض المتحدثين بالإنجليزية حتى حديثى الهجرة منهم تقتضى منهم التصويت إلى جانب القومية الأفريكانية (البوير)[2]. ولقد ظهر هذا واضحاً فى انتخابات عام ١٩٢٤ عندما تمكنت

---

(١) يستخدم المؤلف كلمة أفريكانز ومعناها إفريقى باللغة الهولندية القديمة وهى الكلمة التى يطلقها الهولنديون القدماء المستوطنون جنوب إفريقية على أنفسهم ولكننا نؤثر أن نترجمها بالبوير لأنها أكثر شيوعاً ولا تختلط « بالإفريقى » وهو ساكن البلاد الأصلى (المراجع)

(٢) لكى نساعد القارئ على تتبع هذا الموضوع نذكر أن سكان جنوب إفريقية من العناصر الآتية : (١) البيض (٢) الملونون . وأن البيض الأوروبيين يتكونون من : (أ) الهولنديون الأصل أو البوير أو الأفريكانز . (ب) البريطانيون الأصل . والسود هم البانتو والخلاسيون والهنود . (المراجع)

أول حكومة وطنية (أى من الحزب الوطنى) من الفوز بالحكم بمساعدة حزب العمال واتحادات العمال البيض (الذى يقوده المتحدثون بالإنجليزية الذين كانوا يخشون منافسة العناصر الملونة لهم فى سوق العمل) . ومن ثم كانت معارضة الحزب الوطنى وهو حزب اتحاد جنوب إفريقية أو حزب الاتحاد الذى أسسه بوتا (وكان رئيساً للوزراء من ١٩١٠ — ١٩١٩ وسمطس الذى كان رئيساً للوزراء من ١٩١٩ — ١٩٢٤ و ١٩٣٩ — ١٩٤٨) كانت معارضة نظرية فقط . إذ كان حزب بوتا وسمطس مكوناً من اتحاد البوير والمتحدثين بالإنجليزية ومرتبطاً بمبادئ الكومنولث البريطانى : ولا يزال أغلبية مؤيدى هذا الحزب ترى وجوب التفرقة العنصرية حتى لو اشتط الحزب فى التعبير عن آرائه العنصرية أو تحرك ببطء وهدوء أكثر نحو تحقيق أهدافه . وإذا كانت هذه المعارضة غير حازمة فى سياستها نحو غير البيض، فإنها سرعان ما تفقد العناصر المؤيدة لها، وهذه تتحول إلى أصوات مؤيدة للحزب الوطنى وأكثر من هذا فإن البوير كانوا باستمرار هم المسيطرون على سياسة الاتحاد ، بل إن حزب المتحدثين بالإنجليزية United Party كان زعماؤه من البوير ولقد كان بزعامة هوتزويج فيما بين ١٩٣٣ — ١٩٣٩ الذى أدى تصوره للوطنية الأفريكانية إلى الانفصال عن بوتا وسمطس عام ١٩١٣ وإلى معارضتهما. وكان هرتزوج نفسه هو الذى قاد مطالب الحزب الوطنى فيما بين ١٩٢٣ — ١٩٣٣ ومنذ ذلك الحين ثبتت أقدام الحزب الوطنى وزعمائه وهم مالان ثم سترجدوم وأخيراً فرفورد، وفى عام ١٩٦١ الذى انفصلت فيه الآراء الليبرالية من الحزب الاتحادى أثبتت انتخاباته ما كان بديهياً، وهى أنه لا توجد سوى حفنة من البيض فى اتحاد جنوب إفريقية مستعدة بأن تصوت فى جانب السياسة التى تمنح غير البيض أى حقوق سياسية .

وبرغم أن غير البيض قد أبعدوا تماماً من الطبقة الحاكمة فى جنوب إفريقية إلا أنه لم يكن الاستغناء عنهم اقتصادياً . فكل نشاط الأوروبيين الاقتصادى يعتمد على اليد العاملة الإفريقية (التى تكون ثلثى قوة العمل) وعلى مجتمع

الملونين[1] كله وعلى كثير من الهنود . والمجتمع غير الأوروبى كله سوق هامة كمستهلكين ولا يمكن أن يمنح الملونون وعددهم ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة أو الهنود وعددهم ٥٠٠,٠٠٠ نسمة وطناً قوياً مثل البانتوستان المقترحة للإفريقيين والأرض المخصصة للإفريقيين التى يقترح أن تكون نواة البانتوستان لا تكون سوى ١٣٪ من سطح الاتحاد كله، ولا يمكن أن تكفى ثلثى السكان الإفريقيين الحاليين ، وليس هناك دليل واحد على أن حكومة الحزب الوطنى فى جنوب إفريقية ترغب فى أن تنفق أى مقدار من المال لتبدأ تنمية هذه المنطقة حتى تصل إلى مستوى أراضى الأوروبيين. وأكثر من هذا فمن المشكوك أن يرغب الإفريقيون فى تكوين أمم « قبلية » منفصلة أنهم لا يرغبون فى أكثر من نصيب عادل فى اتحاد جنوب إفريقية كجزء لا يتجزأ منه ولا يمكن أن يعتبر انتصار الحزب الوطنى كاملا طالما كان هناك اثنا عشر مليوناً (من خمسة عشر مليوناً) لم يشأ الله أن يمنحهم جلدة بيضاء يعارضونها معارضة متزايدة مستميتة .

ومن نتائج ازدياد سياسة التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقية ازدياد إصرار السكان البريطانيين فى روديسيا الجنوبية على البقاء خارج الاتحاد . إلا أن الأقلية تصر على أن تكون السلطة فى يد المتمدينين أى فى أيديهم فى المستقبل القريب وبذلك جمد حق الإفريقيين فى التصويت الذى حملوه معهم من الكاب وبدأوا يمارسون سياسة التفرقة العنصرية. وكان من رأى البيض فى روديسيا أن هدفهم المزدوج هذا يمكن تحقيقه إذا عملوا نحو خلق دومنيون بريطانى يتكون من الروديسيتين ونياسالاند إن أمكن . وهذا يحقق فهم التخلص من وصاية الحكومة البريطانية على حقوق الإفريقيين المنصوص عليها فى دستور ١٩٢٣ ويمكنهم من خلق كتلة قوية تستطيع أن تتوازن مع قوة اتحاد جنوب إفريقية السياسية والاقتصادية . وما لبثت هذه السياسة أن وجدت التأييد من المستقرين البيض فى حزام النحاس بروديسيا الشمالية . والتى كانت تخشى إعلان الحكومة

---

(١) يقصد بالملونين coloured الخلاسيون من اختلاط البيض والهوتنتوت فى مستعمرة الكاب. (المترجم)

البريطانية عام ١٩٣٠ القاضى بأن حقوق الإفريقيين فى ممتلكاتها بشرق إفريقية ووسطها هى العليا. غير أن خطط المهاجرين الأوروبيين فى الروديسيتين باءت بالفشل عندما أعلنت بريطانيا (فى تقرير بلدزلو عام ١٩٣٩) اعترافها بمعارضة الإفريقيين المتزايدة لأى اتحاد يجمع الروديسيتين ولسياسة التفرقة العنصرية فيهما) . غير أن الحملة تجددت بعد الحرب على أساس ما يمكن أن تجنيه «الروديسيتين» من الناحية الاقتصادية من الاتحاد، وقيل إن كلا من الروديسيتين تجلبان اليد العاملة من نياسالاند وأن نحاس روديسيا الشمالية يعتمد على فحم روديسيا الجنوبية وأن الثروة التى تتدفق منهما يمكن أن تستخدم فى تنميـــة الأقطار الفقيرة الأخرى. وأن صناعة روديسيا الجنوبية الناشئة تعتمد على سوق روديسيا الشمالية. وأخيراً فقد قيل إن اتحاداً يجمع أقطار وسط إفريقية سوف يجمع هذه المصادر جميعاً فى نظام متكامل . وسوف يجتذب مزيداً من رأس المال (ومن المهاجرين) لمزيد من التنمية الاقتصادية .وذلك فى صالح بريطانيا والكومنولث ولشعوبها أيضاً .

وقد قبلت الحكومة البريطانية وجهة النظر هذه التى قدمها بقوة ممثلو المهاجرين البيض وحلفاؤهم عام ١٩٥٣ . وتكون اتحاد روديسيا ونياسالاند . إلا أن معارضة الإفريقيين ازدادت قوة وإصراراً عن ذى قبل . ولم يلههم عن مطالبهم أو يخفف من حدتها تخصيص بعض المقاعد للإفريقيين فى البرلمان الاتحادى. وعزل المسائل الخاصة بمصالح الإفريقيين فى الإقليمين الشماليين عن سلطة البرلمان أو الحكومة . أو احتفاظ بريطانيا نظرياً بحق توجيه السياسة الخاصة بالإفريقيين فى الاتحاد .

وبهذا لم ينل المهاجرون الأوروبيون كثيراً مما كانوا يريدون من الدستور، كما أنه أثار حركة وطنية إفريقية معارضة قوية تهدف إلى تحطيمه وتطالب بالاستقلال للإقليمين الشماليين .

لقد تأثرت الأحداث فى شمال إفريقية بأمرين لا مثيل لهما فى بقية القارة

هما الصراع السياسى والحزبى المباشر بين الدول الأوروبية من ناحية وأهم من ذلك نمو القومية العربية .

فقد كانت الجيوش البريطانية والفرنسية والأمريكية تحارب الجيوش الإيطالية والألمانية على طول الساحل فى شمال إفريقية ، ما بين ١٩٤٠ – ١٩٤٣ . كما كان البريطانيون يعملون على تحطيم الإمبراطورية الإيطالية فى شمال وشرق إفريقية . كما أن أكبر الدول الاستعمارية وهما بريطانيا وفرنسا اعتبرتا غزو موسولينى للحبشة عام ١٩٣٥ – ١٩٣٦ عملا غير ملائم ويتسم بقلة الذوق . وزاد الأمر سوءاً أن الحبشة برغم مواقفها غير المشرفة فى بعض المسائل مثل تجارة الرقيق كانت عضواً فى عصبة الأمم مثل إيطاليا سواء. بسواء . ولم يحن عام ١٩٤١ حتى كان الإيطاليون قد أجلوا عن جميع الأراضى فى شرق إفريقية. واستعادت الحبشة مركزها كدولة مستقلة . كما عاد إليها إمبراطورها الذى نظر على وجه السرعة مسائل إدخال النظم الحديثة فى بلاده وتحويلها من مملكة على طراز العصور الوسطى إلى دولة حديثة دون أن يفقد سيطرته عليها . وظلت أرتيريا والصومال الإيطالى أولا تحت الإدارة الحربية البريطانية ثم أصبح من الممكن اتحاد أرتيريا والحبشة عام ١٩٥٢. ولم يكن من المستطاع اتخاذ نفس الحل بالنسبة لشعوب الصومال الرعوية المعادية . ولذلك فقد استأمنت الأمم المتحدة الإدارة الإيطالية التى قامت بكثير نحو تأسيس قواعد إدارية حديثة للحبشة والصومال فترة عشرة أعوام . وفى نهاية هذه الفترة أعلنت جمهورية الصومال المستقلة من الصومالين الإيطالى والإنجليزى :

وكانت مستعمرة ليبيا الإيطالية ضمن مواد الصراع الإنجليزى الإيطالى فوضعت تحت الإدارة العسكرية البريطانية عام ١٩٤٢ وبعد ذلك بتسع سنوات كونت أجزاءها الثلاثة ، طرابلس وبرقة وفزان مملكة متحدة على رأسها الملك إدريس السنوسى القائد الروحى للسنوسية . وهى طائفة إسلامية كانت عنصراً قوياً فى تماسك عناصر المقاومة القومية ضد الاحتلال الإيطالى :

أما فيما عدا ذلك فقد كان للحروب الأوروبية أثر غير مباشر وإن لم يكن

أقل أهمية فى استقلال أقطار شمال إفريقية . فلقد انتهت الحماية البريطانية على مصر عام ١٩٢٢ وكانت قد أعلنت عام ١٩١٤ لأن بريطانيا وجدت نفسها فى حرب مع تركيا صاحبة السلطان الشرعى الاسمى على البلاد . ومنذ ذلك الحين كانت مصر مستقلة اسماً وتكون مملكة على رأسها الملك فؤاد بن الخديو إسماعيل برغم أن جيوش الاحتلال البريطانية كانت لا تزال فى منطقة السويس. ولم يكن هذا الاحتلال بطبيعة الحال محوباً للحزب الذى يجمع الوطنيين وهو الوفد الذى تكون من معارضة الطلبة للحكم البريطانى والذى استطاع أن يصل إلى السلطة[1]. وكانت هذه المعارضة أيضاً — إلى حد ما — نتيجة لتصور البريطانيين فى ميدان الإصلاح التربوى الهادف إلى تدريب الطلبة المصريين على القيام بأمور البلاد وتسلم مقاليدها من البريطانيين ، ورغم الجهود البريطانية تحت إشراف كرومر فى تمدين الإدارة المصرية والجيش والبوليس والاقتصاد بصفة عامة[2].

وعندما أجريت انتخابات عامة بعد عام ١٩٢٢ عاد الوفد إلى الحكم ليجد

---

(١) هذا تشويه ظاهر للحركة الوطنية المصرية . فمن المعروف أن هذه الحركة التى بدأها عرابى ثم أقامها مصطفى كامل من عثرتها بعد الاحتلال لم تتكون من عناصر الطلبة فحسب كما أنها تجسدت فى الثورة المصرية الجليلة عام ١٩١٩ التى اجتمعت فيها عناصر الأمة كلها من فلاحين وعمال وموظفين وطلبة ووكلت سعداً ورفاقه للتحدث باسم الأمة فذهبوا يكونون وفداً قومياً . ومن ثم كان اسم الوفد . ولا يقلل من شأن الحركة الوطنية أن الطلبة كانوا يغذونها باستمرار فهذه ظاهرة سياسية فى جميع الأقطار المقهورة ظهرت فى مصر والهند وإيرلند وغيرها . فالطلبة فى هذه الأقطار — فى تلك المرحلة — هم رأس الحرب القومية . (المراجع)

(٢) هذه مغالطة تبدو فى كثير من كتابات الإنجليز ؛ فالبريطانيون لم يعملوا على تمدين الإدارة المصرية أو تقدمها ، بل العكس هو الصحيح . فمصر كما يذكر المؤلف نفسه فى الفصل الثالث عشر بدأت فى الأخذ بأسباب المدنية الحديثة منذ القرن التاسع عشر . وكان فى مصر نظام تربوى متكامل يبدأ بالمدرسة الابتدائية وينتهى بالمدارس العليا — الطب والهندسة والمعلمين ودار العلوم والقانون والحربية — منذ أواسط القرن الماضى وقد حاول البريطانيون السيطرة على هذا النظام وتشويهه . ورغم هذا فقد ظلت الروح الوطنية سائدة فى التربية والتعليم . وكان من شأن هذه المدارس أن تخرج الأكفاء فى فنون الإدارة والهندسة والطب وغيرها قبل الاحتلال البريطانى وبعده (المراجع)

آماله تتحطم على صخرة البريطانيين والملك فؤاد الذى كان يحب أن يملك ويحكم معاً. ثم يعود الحكم مرة أخرى إلى يد « المعتدلين » وهم من أصحاب المصالح ملاك الأرض الذين يفشلون فى الحكم أيضاً لأنهم لا يتمتعون بعطف الرأى العام أو بثقة الملك. ثم تبدأ مرحلة من حكم السراى حتى يستطيع الوفد والمعتدلون أن يتحدوا ويطالبوا بإجراء انتخابات عامة. ولكن خلال الثلاثينات بدا كل من الوفد والإنجليز فى تعديل وجهات نظرهم، وكانت نتيجة ذلك المعاهدة المصرية الإنجليزية عام ١٩٣٦ فأصبحت كل من مصر وبريطانيا شريكتين فى محالفة تنسحب بمقتضاها جيوش الاحتلال البريطانى إلى نطاق ضيق على جانبى قناة السويس، غير أنه قبل أن تنسحب جيوش الاحتلال هذه إلى منطقة القناة كانت البلاد كلها مسرحاً للعمليات العسكرية للجيوش البريطانية فيما بين ١٩٤٠ – ١٩٤٣. وقد ظن الملك فاروق وحاشيته أن تحرير مصر بات وشيكاً بعد انتصارات دول المحور الأولى. ولذلك ركنت بريطانيا إلى استخدام القوة عام ١٩٤٢ لفرض حكومة وفدية على الملك فاروق وقد وجه الوفد جهوده عام ١٩٤٥ نحو تكوين جامعة الدول العربية ومشكلة فلسطين. وتدهور الوفد وأصبح لا يفضل القصر وغيره من الأحزاب فى شيء فكان مثلهم فاسداً يعمل لمصالح أفراده. وقد ظهر هذا الفساد والعجز السياسى فى توجيه حملة فلسطين سياسياً مما أقنع جماعة من ضباط الجيش الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر بأن يقبضوا على السلطة ويستأنفوا عمل محمد على وعرابى باشا فاستطاعوا أخيراً عام ١٩٥٢ – ١٩٥٣ تطهير البلاد من نظامه البرلمانى والملكى الفاسد.

وقد أخذت حكومة جمال عبد الناصر فى إصلاح الحياة المصرية من كافة نواحيها ولا سيما فى مسألة ملكية الأراضى الزراعية. وقد جمع قانون الإصلاح الزراعى تأييد الجماهير المصرية القلبى حولها. غير أن القوى الخارجية لا تزال تقاوم خططه ولا تزال إسرائيل والخلافات العربية عقبة فى سبيل توحيد العالم العربى كما أن العالم الغربى لا يرضى بسياسته

الخارجية إذ أن الغرب لا يزال بطيء الفهم لا يستطيع أن ينسى الماضي ولا يستطيع أن يعترف بقوة القومية العربية الروحية . إلا أن عبد الناصر نجح في النهاية في تخليص مصر من آخر بقايا السيطرة الأوروبية فأجبرت بريطانيا على الجلاء عن منطقة البلاد عام ١٩٥٦ . وبرغم التجاء بريطانيا وفرنسا إلى القوة والعدوان الثلاثي لمجابهة تأميم قناة السويس فإن القناة وغيرها من مظاهر النشاط الاقتصادي الأخرى تسير سيراً حسناً تحت الإدارة المصرية .

وكانت مشكلة السودان إحدى العقبات التي ورثها النظام الجديد . حيث أن مصر كانت ترغب بطبيعة الحال في السيطرة على أعالي النيل ومياهه وكان قد أعيد فتح السودان من المهدية بجيوش بريطانية ومصرية، واتفق عام ١٨٩٩ على أن يكون السودان تحت الحكم الثنائي المصري البريطاني، وكان حاكم السودان العام تعينه مصر بتوصية من بريطانيا، وكانت لديه قوات مصرية وبريطانية وموظفون من المصريين والبريطانيين أيضاً .

ولكن في عام ١٩٢٤ أقدمت بريطانيا – انتقاماً لمصرع سردار الجيش المصري سير لي ستاك – على طرد المصريين من حكومة السودان، ومنذ ذلك الحين انفردت بريطانيا بحكم السودان ، وكانت الحكومة السودانية مكونة من رؤساء بريطانيين ومرءوسين سودانيين يزداد عددهم عاماً بعد عام دون أي اعتبار لمصالح مصر . وسحب جزء من مياه النيل لري مشروع الجزيرة وهو نظام زراعي تعاوني ممتاز ، وأدى نجاح محصول القطن إلى وضع أسس الاقتصاد السوداني . فنشأت نتيجة لازدياد فرص التعليم والثراء طبقة جديدة ذات اتجاهات وطنية . وقد انفصلت هذه الحركة بين المنادين بالاستقلال على يد السودانيين والمنادين بالاستعانة بمصر لطرد البريطانيين . وكان كل من مصر الملكية ومصر الجمهورية على استعداد للتدخل في شئون الحركة الوطنية السودانية إلا أن كلا من مصر وبريطانيا قد اتفقتا عام ١٩٥٥ على منح السودانيين حق تقرير المصير بعد ثلاثة أعوام تكون فترة انتقال، وخلال هذه الفترة يتمتع السودان بالحكم السوداني تحت إشراف لجنة دولية وفي عام ١٩٥٦ اختار

السودان الاستقلال[1] ولم تكن سنوات الاستقلال الأولى سعيدة مطلقاً فهى حكومة إسلامية أساساً تقع بين مصر القوية فى الشمال والسودان الوثنى فى الجنوب. ومن ثم حدث انقلاب عسكرى انتقلت به السلطة من يد السياسيين إلى يد ضباط كانوا قد تلقوا تدريبهم على يد البريطانيين فى قوة الدفاع السودانية من قبل.

عندما كانت فرنسا مشتركة فى الحرب العالمية الثانية ظهر بجلاء عقم سياستها فى شمال إفريقية عقماً كاملا. فقد كانت الجزائر معتبرة جزءاً من فرنسا إلا أن ثمانية ملايين جزائرى من تسعة ملايين كانوا محرومين تماماً من أى رأى خاص بإدارة بلادهم. حيث لم يكن فى استطاعة المسلمين أن يحصلوا على حق المواطنة الفرنسية إلا إذا تنازلوا عن الشريعة الإسلامية. وإذا لم تكن البلاد تحكم لصالح فرنسا فإنها على الأقل كانت تحكم لصالح المتوطنين الأوروبيين. كما أن هؤلاء المتوطنين لم يزيدوا أى فرص اقتصادية جديدة للمسلمين يمكن أن تعتبر تعويضاً عادلا لأراضيهم التى اغتصبت منهم. ومن ثم حدث تيار متدفق من الهجرة الجزائرية إلى فرنسا.

وكانت كل من تونس والجزائر لا تزال محمية فرنسية تديرها فرنسا نيابة عن حكامها التقليديين. وكانت الإدارة فيها مطلقة تماماً حتى لقد حرم الأوروبيون فى مراكش وعددهم ٤٠٠,٠٠٠ وأقرانهم فى تونس وعددهم ٢٥٠,٠٠٠ من أى حقوق سياسية. وقد أدى هذا الحكم المطلق إلى نشأة حركة تطالب بالحرية الدستورية بين الفرنسيين والمثقفين بثقافة فرنسية عام

---

(١) يقول المؤلف أن مصر كانت تصطاد فى الماء العكر. وهذا تشويه مقصود لدور مصر الوطنى وأثرها فى الحركة الوطنية فى السودان فلقد كانت مصر دائماً وهى تحت الاحتلال البريطانى تنادى بالحرية للسودان كما تنادى بالحرية لنفسها، وكثير من قادة الحركة الوطنية فى السودان تأثروا بالحركة الوطنية فى مصر. وكانت مصر دائماً ولا تزال تؤمن بالوحدة العربية وبوحدة وادى النيل التى تجمع شقيقين فى واد واحد. مصر الثورة هى التى أجبرت البريطانيين على الجلاء عن السودان قبل أن تجلو عن أراضيها نفسها كما أن موضوع تقرير المصير لم ينتظر ثلاثة أعوام الانتقال ولم يعرض للتصويت العام كما يقول المؤلف. وهذه مسألة نتركها لحكم التاريخ (المراجع)

١٩٣٤ وكان حزب الدستور الجديد بقيادة بورقيبه . وفى خلال أربع سنوات من هذا التاريخ كان بورقيبه فى السجن وحزبه منحلا .

ولم تكن الأمور فى مراكش بهذه البساطة . فعندما وصل الفرنسيون عام ١٩١١ كان نفوذ السلطان لا يكاد يتعدى السهول . ولم يتم إخضاع القبائل الجبلية إلا عام ١٩٣٤ أما فى مراكش فلم تبدأ حركة الاستقلال إلا بعد أن تم تكوين الإدارة الفرنسية وبعد أن تم إنشاء دولة بالمعنى الحديث . وقد كان من الممكن حتى عام ١٩٥٣ أن يستخدم الفرنسيون العداء التقليدى بين بربر جبال أطلس وأى حكومة مراكشية ليجدوا لأنفسهم العذر لعزل السلطان الذى كان يشجع أمانى حزب الاستقلال الذى تكون عام ١٩٤٤ تشجيعاً سافراً .

وكانت مراكش أقل أقطـار المغرب تأثراً بفقدان فرنسا لهيبتها بعد أن انهارت عام ١٩٤٠ (برغم أن أسبانيا انتهزت هذه الفرصة للسيطرة على مدينة طنجة) كما أنها دون شك كانت تأمل فى الحصول على بقية مراكش كلها نتيجة لانتصار ألمانيا . أما الجزائر وتونس فكانت مسرحاً لعمليات حربية واسعة . وقد أقنعت معارضة فرنسا لنزول قوات المحور بها عام ١٩٤٠ سكان هذين القطرين بغموض السياسة الفرنسية ، ولقد مرت فترة من الزمن بدأ خلالها كما لو كانت ألمانيا وحلفاؤها يعملون للتحرير . ففى خلال فترة الاحتلال الألمانى القصيرة لتونس أطلق سراح بورقيبه وسمح للباى بأن يعين وزراء حزب الدستور الجديد فى الحكم . ولكن عام ١٩٤٣ أعاد الفرنسيين للسلطة مرة أخرى برغم ميثاق الأطلنطى وبرغم مؤتمر الدار البيضاء واهتمام روزفلت بمستقبل المغرب . ولذلك اتجه زعماء شمال إفريقية بطبيعة الحال نحو مصر بعد تكوين جامعة الدول العربية . وقد بدأ بورقيبة عام ١٩٤٥ فى إنشاء المثال الذى احتزاه الجزائريون من بعد وهو تنظيم دعايته وحركة مقاومته من فوق أرض مصر .

وقد بدأت حركة المقاومة الفرنسية مثلا عام ١٩٥٢ بعد أن أفسد المتوطنون الأوروبيون الاتفاق الفرنسى التونسى . وبعد عامين من حرب العصابات

وافق الفرنسيون على منح تونس الحكم الذاتى وعاد بورقيبة عام ١٩٥٥ ليكون على رأس الحكومة .

وفى الجزائر أعلنت جبهة التحرير الجزائرية الحرب العلنية على الفرنسيين عام ١٩٥٤ وتتكون تلك الجبهة من تعاون قوى المعارضة للحكم الأوروبى التى لاقت العنت على يد الفرنسيين منذ ظهورها فى العشرينات . وبعد ذلك بعام قامت حركة ثورية أخرى تطالب بعودة السلطان فى مراكش . وقد رأى الفرنسيون عدم جدوى معارضتهم وفشلهم فى المحافظة على مركزهم فى شمال إفريقية ولا سيما تونس فى طريق الاستقلال . وبدأ من الملائم أن يركزوا جهودهم على الجزائر التى يمتلك المتوطنون فيها صوتاً قوياً فى السياسة الفرنسية .

ومن ثم فقد أعيد السلطان إلى عرشه واعترف بالاستقلال التام لمراكش عام ١٩٥٦ التى استعادت بعد ذلك بقليل مدينة طنجه والمحمية الأسبانية . ولم تتأخر تونس عن ذلك كثيراً وفى عام ١٩٥٧ عزل الباى وأصبحت تونس جمهورية رئيسها بورقيبة .

فأصبح لفرنسا حرب واحدة لتخوضها ولكنها كانت أشد الحروب ضراوة منذ أن غزت البلاد وقهرت القبائل الجزائرية عام ١٨٤٠ — ١٨٧٩ وكانت فى الحقيقة تعيد هذه الحرب كلها مرة أخرى . غير أن الظروف لم تكن واحدة فلقد كانت جبهة التحرير تحارب وهى تلقى التأييد من العالم الإسلامى كله ومن إفريقية السوداء المستقلة كلها، كما أنها كانت تتقبل العون الإيجابى من مصر وتونس ومراكش . ولم تستطع فرنسا أن تحافظ على سمعتها إلا باستخدام نصف مليون جندى . غير أن الثمن كان باهظاً سياسياً واقتصادياً فى المال والرجال فتمرد الجيش الفرنسى عام ١٩٥٨ فى الجزائر عند الساسة البرلمانيين ووضعوا الجنرال ديجول على رأس الدولة الفرنسية غير أن الجنرال بعكس ما كان يتوقعه ضباط الجيش كان مقتنعاً تماماً مثل بقية ساسة فرنسا أنه لا فائدة ترجى من محاولة الاحتفاظ بالجزائر بالقوة . فاعترف عام ١٩٥٩ بحق الجزائريين فى تقرير المصير ونجحت حكومته عام ١٩٦٢ فى

إعلان وقف إطلاق النار وأصبحت مشكلة فرنسا الأولى هى إقناع المتوطنين الأوروبيين بسياستها الجزائرية الجديدة وقد لجأ المتطرفون منهم إلى الإرهاب ضد فرنسا وضد المسلمين فى الجزائر فى محاولة يائسة لتخريب اتفاقية وقف إطلاق النار وإعلان استقلال الجزائر التى أعادت أمورها إلى يد أغلبية أهلها من المسلمين .

إلا أنه على الرغم من إراقة الدماء وسنوات الحرب المريرة من ١٩٥٤ — ١٩٦٢ فإن مستقبل الأوروبيين فى الجزائر ليس مظلماً مثل مستقبل أندادهم فى إفريقية الجنوبية الذين نجحوا حتى الآن فى الاحتفاظ بسيطرتهم على البلاد : ومن الممكن القول إن سيادة البيض فى جنوب إفريقية والوضع غير المستقر للأوروبيين فى روديسيا الجنوبية لم يكونا إلا نتيجة حدث تاريخى، فالأوروبيون يسيطرون على هذه البلاد لأن بريطانيا منحتهم فرصة السيطرة قبل أن تفكر فى حق الإفريقيين فى السياده على بلادهم وقبل أن تتذكر أن السيطرة الأوروبية أيضاً من شأنها أن تعرقل أى سيادة إفريقية، ومن ناحية أخرى فإن النظرية القائلة بأن الجزائر جزء من فرنسا قد خدرت الأوروبيين ومنعتهم من السيطرة على الأمور فى الجزائر سيطرة كاملة . ولما اقتنع الفرنسيون بضرورة الاتفاق مع الوطنيين العرب فى الجزائر أصبح من المستطاع الوصول إلى شروط تؤمن مصالح فرنسا وحقوق الوطنيين غير أن المناخ العالمى الذى أدى إلى اتفاقية الجزائر لا يؤدى إلى العكس فى جنوب إفريقية وإن اختلف الحال فى روديسيا الجنوبية . فهى تزيد الأوروبيين إصراراً على رفض أى مطالب إفريقية ترنو إلى منح تكافؤ الفرص أو إلى المساواة السياسية وإذا أصر الأوروبيون فى جنوب إفريقية على هذا الموقف فإنه يبدو أن لا مفر من حدوث انفجار وسوف لا يحطم هذا الانفجار كل ما مثلوه فى هذا الركن من القارة ، بل إنه سيحطم كل ما هو أوروبى فى جميع أنحاء القارة .

— ٢١ —

إفريقية المستقلة (٢)

لقد كانت أول القوى التى عارضت الحكم الأوروبى فى إفريقية المدارية هى المجتمعات الإفريقية التقليدية، التى قاومت القوالب الجديدة التى تريد الحكومات الاستعمارية أن تضعها فيها وكانت هذه المقاومة تميز بصفة خاصة الأصقاع البعيدة من المستعمرات فى أيام الاستعمار الأولى .

غير أن تماسك المجتمعات الإفريقية قد يكون من القوة بحيث يضطر الحكومات الاستعمارية إلى التفاهم معها . وفى مثل هذه الحالة تترك المجتمعات التقليدية على ما هى عليه مثل حال الباجندا فى الوقت الحاضر ولكن مع رسوخ قدم الإدارة الأوروبية وبدء الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى توطيد أقدامها نشأت أنماط أخرى من المقاومة .

بعض هذه الأنماط لم يكن سياسياً فى مظهره ، ففى إفريقية الجنوبية والشرقية والوسطى حيث سبقت البعثات التبشيرية الإدارة الأوروبية وحيث أدت الهجرة الأوروبية إلى تحيز ضد الإفريقيين وأوقعت بهم ألواناً من الضيم عبرت المقاومة الإفريقية عن نفسها بما يسمى بالأثيوبية[1] وهى تكوين كنيسة زنجية سوداء تلون بها تعاليم المسيحية التى تلقوها من البعثات التبشيرية بما يلائم طرق المعيشة الزنجية وربما انفجر أعضاء هذه الكنائس السوداء من حين إلى آخر فى ثورة عاتية ضد الإدارة الأوروبية والمهاجرين الذين ينظرون إليهم

(١) Ethiopianism ليس المقصود بذلك نسبتها إلى دولة أثيوبيا ولكن نسبتها إلى أثيوبى بالمعنى الإفريقى للكلمة . فالأثيوبية هى القومية السوداء . (المراجع)

بصفة عامة بعين البغض والعداء ومن أمثلتها الكبرى ثورة جون شيلمبوى فى نياسالاند عام ١٩١٥ كما كانت حركة الما ماو بين الكيكويو من ١٩٥٢ — ١٩٥٦ رد فعلى عكسى للضغط الأجنبي اتخذ مظهراً نفسياً ودينياً مغلفاً بالسحر .

غير أن أهم من هذا كله هو الاحتجاج السياسى . وقد بدأ هذا بالنسبة لإفريقية المدارية فى مستعمرات غرب إفريقية وهى أقدم أنحائها اتصالا بالأوروبيين فتكونت فيها إدارة أوروبية عريقة نشأت معها طبقة من الإفريقيين المثقفين بثقافة أوروبية وكلما اشتدت قبضة الأوروبيين على البلاد وكلما أسرعت الأنماط الاستعمارية فى التشكل ازداد عدد الأوروبيين القادمين ليحكموا ويسودوا وكلما شعرت تلك الطبقة الجديدة من الإفريقيين المثقفين باليأس والانعزال ،ولذلك فقد اتجهت نحو السيطرة على مصالح الحكومة التى فرضتها أوروبا على بلادهم .

وقد أثر فى اتجاه هذه المقاومة السياسية طبيعة السياسة الاستعمارية التى سلكتها الدولتان الاستعماريتان الكبيرتان . ففى المستعمرات البريطانية كانت مصائر البلاد فى يد الحكام المحليين الذين تساعدهم مجالس تشريعية وتنفيذية وكانت المجالس التنفيذية تتكون من الموظفين البريطانيين فقط بينما كان هناك قليل من الإفريقيين المعينين فى المجالس التشريعية . ومن هنا جاء هدف الإفريقيين أولا فى تحويل المجالس التشريعية إلى برلمانات إفريقية . والمجالس التنفيذية إلى مجالس للوزراء مسئولة أمام البرلمانات وقد تكونت الجمعيات السياسية التى تهدف إلى هذا فى التسعينات من القرن الماضى ،وكان هذا هو برنامج المؤتمر الوطنى لغرب إفريقية الذى تكون عام ١٩١٨ . أما فى المستعمرات الفرنسية فقد كانت السلطة مركزة فى فرنسا . وأكثر من هذا فقد وضع فى السنغال عام ١٨٤٨ المبدأ القائل بأن الإفريقى يمكن أن يكون مواطناً فرنسياً له أن يسهم فى انتخابات البرلمان فى فرنسا . ومن ثم كانت أمانى الإفريقيين الفرنسيين السياسية متجهة نحو باريس . وبدأت الجمعيات السياسية الإفريقية

الفرنسية ترتبط بالأحزاب السياسية الفرنسية بشكل واضح فى الثلاثينات .

غير أن هذه الجمعيات السياسية القديمة لم تؤثر تأثيراً يذكر على البريطانيين أو الفرنسيين فى غرب إفريقية لأن فكرة منح الحرية للإفريقيين فى ذلك الوقت كانت تبدو بعيدة التصور جداً . ولم يستطع أن ينال حق المواطنة الفرنسية فى مستعمرات فرنسا إلا القليل ممن ولد فى إحدى مقاطعات السنغال الأربع كما أن بريطانيا لم تمنح الحكم الذاتى إلا لمستعمرات المتوطنين الأوروبيين . ولهذا فقد بدأ الزعماء الإفريقيون فى ثوب المثقفين رجال الفكر وليس رجال السياسة . فليوبولد سنجور مثلا كان شاعراً سنغالياً ممتازاً ينظم شعره باللغة الفرنسية قبل أن يصبح زعيماً وطنياً وحصل موديبو كيتا على شهرته العالمية أولا كمدير للباليه الإفريقى وكان ج . ب دانقاه أول زعيم يحول اسم مستعمرة ساحل الذهب إلى غانا الجديدة (وهو الاسم الذى اختاره لها الزعيم بنفسه) كان فى أول أمره مؤلفاً لكتب عن عادات الأكان وديانتهم . وقد قضى هؤلاء الرجال وأمثالهم فترة من حياتهم فى جامعات فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة . كما أنهم جميعاً قد اعتنقوا مبادئ الاشتراكية السائدة فى أوساط المثقفين . كما بهرتهم حركة إحياء التراث الإفريقى فى أمريكا وجزر الهند الغربية والتى كان يقودها رجال مثل ج . ى . ب . ديبوا وماركوس جارفى . ومن هؤلاء بدأت تنبعث أول آراء عن الوحدة الإفريقية برغم أنها حتى قيام آخر مؤتمر من المؤتمرات الإفريقية قد اتخذت شكل حركة سياسية ، وقد عقد هذا المؤتمر الأخير فى مانشستر عام ١٩٤٥ وكان يضم جورج بادمور ، كوامى نكروما ، وجومو كينياتا . وكان أهم مهمة للزنوج على جانبى المحيط الأطلنطى هى أن يؤسسوا قاعدة فكرية وروحية لها وزنها للشعوب الزنجية تستطيع أن تفخر بها فى عالم تسوده تقاليد ومثل غرب أوروبا الحديثة .

ومن ثم كانت صياغة عبارات مثل الزنجية négritude أو الكيان الإفريقى والشخصية الإفريقية هى أهم عمل إفريقى فى المجال السياسى .

وكان هذا التركيز على مسائل الفكر والثقافة نتيجة حتمية للأحوال التى

تجابه هؤلاء الزعماء فى أوطانهم حيث كانت جماعاتهم السياسية لا تزيد فى مظهرها على جمعيات المناظرة السياسية، ولم يكن من السهل عليهم الحصول على التأييد الشعبى حيث لم تسنح الفرصة سوى لأقلية ضئيلة خارج دوائرهم لكى يتعلموا اللغة التى يتحدثون بها فما بالنا بالآراء التى يتداولونها عن السياسة الوطنية . وأكثر من هذا فقد كانت الوسائل التى يمكن أن يخاطبوا من خلالها الجماهير فى ظل حكم استعمارى نادرة أو لا وجود لها . ولذلك فقد كان الزعماء السياسيون الأوائل يتحدثون لأنفسهم كما يتحدثون للأوروبيين أو الإفريقيين الآخرين ويتجادلون مع الإداريين المحليين ويحاولون أن يكونوا رأياً عاماً بين الجماهير فى أوروبا . وكانت هذه الخطة ذات قيمة بالنسبة للإفريقيين الفرنسيين أما بالنسبة للمستعمرات البريطانية فكانت الوفود والبرقيات التى ترسل إلى لندن لا تهم سوى حكام مستعمرات غرب إفريقية البريطانية ولا تصل للجمهور حتى خلال الخمسينات .

غير أن الحرب العالمية الثانية قد أحدثت تغيراً كبيراً فى هذه الصورة فلقد أدرك الإفريقيون الأوروبيون معاً أن عرش أوروبا الإمبراطورى لم يعد الصخرة الصلبة التى لا تنالها يد الحدثان فى التاريخ العالمى . وقد صورت الأحداث الآسيوية هذا الأمر بشكل واضح حيث استطاعت الجيوش اليابانية أن تحتل كثيراً من الممتلكات الاستعمارية الأوروبية الهامة وحيث اعترف البريطانيون والهولنديون والفرنسيون بأشكال مختلفة فى أوقات مختلفة بأنه برغم انتصارهم على اليابان إلا أنهم لا يستطيعون استعادة الظروف الاستعمارية التى كانت سائدة قبل أن يضطروا إلى إخلاء تلك المستعمرات عام ١٩٤١ ففى خلال أعوام قليلة من نهاية هذه الحرب حصل عدد كبير من شعوب آسيا الجنوبية والجنوبية الشرقية مثل الهنود والباكستانيين والبرميين والأندونيسيين والهنود الصينيين على استقلالها أو كانت فى طريق ذلك الاستقلال ومن ثم بدأ الإفريقيون يسألون أنفسهم لماذا لا يدخلون هم أيضاً الأمم المتحدة أعضاء متساوين فى السيادة كغيرهم من الأمم . لا سيما وأن الدول الآسيوية الجديدة

تاريخ استقلال افريقيا

(شكل ١٩)

أصبحت تكون فى تلك الهيئة كتلة لها وزنها مناهضة للاستعمار وكانت تلك القضية قد كسبت تأييد الجمهوريات الأمريكية والدول الشيوعية من قبل .

لم يتلق النظام الاستعمارى فى إفريقية المدارية صدمة من صدمات الحرب المباشرة مثلما تلقى هذا النظام فى آسيا . غير أن احتلال ألمانيا لفرنسا وانقسام فرنسا إلى أنصار حكومة فيشى وأنصار ديجول قد ترك آثاراً عميقة فى الممتلكات الفرنسية فقد نشرت سياسة ألمانيا النازية ومثلها العنصرية على نطاق واسع ونشطت الدعاية الغربية ضدها كما أن الحكام الفرنسيين فى غرب إفريقية الفرنسى الذين انحازوا إلى جانب حكومة فيشى بدأوا فى تقليد سادتهم الألمان وتطبيق نظرياتهم العنصرية فى تلك المستعمرات مما كان له أسوأ الأثر فى نفوس أهلها وازداد التوتر عندما أعلن حاكم تشاد بتأثير فلكس أبوييه وهو من زنوج جزر الهند الغربية انحيازه إلى ديجول وفرنسا الحرة . ثم أصبح أبوييه حاكماً عاماً لإفريقية الاستوائية الفرنسية التى أصبحت تحت إدارته النشطة مركزاً لتجمع الجنود الفرنسيين والإفريقيين وتأهبهم للقيام بنصيبهم فى تحرير شمال إفريقية من احتلال النازى . وقد أدرك الفرنسيون فى غرب إفريقية ضرورة تغيير موقفهم عام ١٩٤٢ إلا أن توجيه السياسة الفرنسية الإفريقية كان قد خرج من يدهم . وفى برازافيل اجتمع ساسة فرنسا الحرة والموظفون الاستعماريون من إفريقية السوداء كلها بزعامة ايبوييه ورفاقه ورسموا خطة السياسة الفرنسية الجديدة فى المستعمرات الفرنسية الجديدة فى المستعمرات الإفريقية، وكان أهم قراراتهم هو أن يشترك ممثلو المستعمرات الإفريقية فى وضع دستور فرنسا الجديد بعد الحرب . وتحويل الإمبراطورية الفرنسية إلى الاتحاد الفرنسى حيث تصبح الممتلكات الفرنسية شركاء مع فرنسا . ويصبح جميع الإفريقيين مواطنين وبذلك يكونون قادرين على الإسهام فى الانتخابات البرلمانية الفرنسية وربما كان أخطر من هذا بدء تفتيت الإمبراطورية بمنح الحكام المحليين سلطات أوسع وتكوين مجالس منتخبة لها حق الرقابة على المـــيزانية .

ولقد أصبح لزعماء إفريقية الآن وضع سياسى يمكن استغلاله وكان أكثر الأحزاب الجديدة اجتذاباً للجماهير هو حزب التجمع الديمقراطى الإفريقى وهو حزب لا يقتصر على إقليم واحد تحت زعامة فيلكس هوفييه بوانييه من ساحل العاج وهو شخصية بدأت تقوم بدورها فى كل من فرنسا والمستعمرات غير أن ارتباطه بالشيوعيين الفرنسيين ووسائله العنيفة جعلته يستهدف لإجراءات إدارية عنيفة .

وقد تخلص الإفريقيون الفرنسيون فى هذه اللحظة من المأزق الذى وجدوا أنفسهم فيه باعتبارهم فرنسا ميدان جهادهم وليست إفريقية وذلك بملاحظة ما كان يحدث فى أراضى غرب إفريقية البريطانية التى جلبت لها الحرب اضطرابات سياسية واجتماعية كبيرة ولا سيما فى ساحل الذهب ونيجيريا أكثر جهات غرب إفريقية البريطانى ارتباطاً بالعالم الخارجى وقد رأينا كيف أن ظروف الحرب والفترة التى تلتها قد شجعت الطلب على المحاصيل المدارية وكيف ازداد دخل المنتجين الإفريقيين والحكومات الاستعمارية معاً . وفى نفس الوقت ازداد اتصال كثير من الإفريقيين بأحداث العالم الخارجى وما يكتنفه من آراء وأفكار ازدياداً لم يحدث له مثيل من قبل . ولقد جند كثير من سكان غرب إفريقية مع الجنود البريطانيين على قدم المساواة فى كثير من أنحاء العالم ولا سيما فى حملة بورما . ولم يكن كثير من هؤلاء الإفريقيين قد رأوا البريطانى إلا حاكماً أو إدارياً أو مديراً للعمال الإفريقيين ولكنهم دهشوا من رؤية هذه الأعداد الضخمة من الجنود البريطانيين والأمركيين . ثم انتعشت الآمال بحديث ميثاق الأطلنطى والأمم المتحدة والاستقلال الآسيوى ومشروعات بريطانيا الجديدة فى تنمية المستعمرات وتحقيق الرخاء لها غير أن أحداث ما بعد الحرب خيبت الآمال بالنسبة لعلاقة الإفريقيين الشخصية بالبريطانيين وبالنسبة للسياسة التى انتهجها البريطانيون عامة . فأحس المنتجون الإفريقيون أنهم قد خدعوا لنقص السلع الاستهلاكية المطلوبة التى يستطيعون شراءها الآن وخامرتهم الظنون فى أن المستوردين الأوروبيين

يطالبونهم بأثمان باهظة لما يريدون شراءه ويستغلونهم . وتأخرت مشروعات التنمية التى وعدت بها الحكومة أو التى وعد بها رجال الأعمال الأوروبيون هذا إلى أنهم رأوا بلادهم تزدحم بمزيد من المستشارين والفنيين والمديرين الأوروبيين وتحطمت فى كل مجال آمال الإفريقيين الذين اكتسبوا خبرات جديدة ووجهات نظر جديدة وثروات جديدة ومستويات للمعيشة جديدة .

ازداد التوتر أولا فى ساحل الذهب . فحدث عام ١٩٤٨ مقاطعة عامة للتجار الأوروبيين ثم قامت المظاهرات فى المدن الكبرى . واستغل الوطنيون هذه الأحداث استغلالا كبيراً إذ أن دانقاه وزملاءه كانوا قد أتوا بكوامى نكروما من إنجلترا وهو أحد زعماء الحركة الإفريقية الواحدة الجديدة ليساعد فى تنظيم الشعور الشعبى العام لتأييد حزب سياسى جديد يطالب بالحكم الذاتى . وقد بين التقرير الرسمى الذى وضع لتحقيق أسباب المظاهرات أن السبب الرئيسى لها هو شعور الإفريقيين باليأس المتزايد إذ أن دستور ساحل الذهب الذى منح قبل ذلك بعامين والذى سمح للإفريقيين – لأول مرة فى تاريخهم – بأغلبية فى المجلس التشريعى . كان منذ ولادته دون مطالب الإفريقيين وأوصى التقرير فى النهاية بالسير بسرعة نحو تكوين حكومة مسئولة . وفى عام ١٩٤٩ عين الحاكم البريطانى العام لجنة إفريقية صرفة لتضع دستوراً يؤدى إلى هذه الغاية .

وقد أسهمت المدرسة الوطنية القديمة فى وضع هذا الدستور غير أن نكروما وحزبه الجديد انتهز فرصة وأعلن أن لا شىء أقل من الحكم الذاتى «الآن» يرضى مطالبهم والتفت الجماهير حول نكروما وأيدت حزب الشعب الجديد الذى أقامه وأعطت نكروما ثقته فى أول انتخابات عامة أجريت فى ظل الدستور الجديد عام ١٩٥١ وكان نكروما فى ذلك الوقت يقضى عقوبة السجن بتهمة الحث على كراهية الحكومة غير أن الحاكم العام الجديد سير شارلز اردن كلارك أعاد الأمور إلى نصابها . فأفرج عن نكروما ورفاقه وسلم لهم الإدارة .

وعندما جاء عام ١٩٥٧ كانت جهود نكروما وحزبه والبريطانيين قد انتهت من تحويل ساحل الذهب إلى دولة غانا المستقلة عضو الكومنولث .

وعلمت الحكومة البريطانية أنه ما إن يتحطم السد الاستعمارى فى ساحل الذهب ، فمن العسير الوقوف أمام تيار الاستقلال فى أى مكان من غرب إفريقية فلم يتطلب الأمر كبير عناء من الوطنيين المحليين لكى يحصلوا على استقلال نيجيريا وسيراليون وغامبيا . وإذا تأخرت خطوات الاستقلال قليلا فى مكان ما فربما كان ذلك راجعاً إلى ظروفه المحلية الخاصة وقد احتاجت مساحة نيجيريا الواسعة والخلافات الكبيرة بين أجزائها الثلاثة فى الحضارة والثروة تكوين نظام اتحادى يتمتع فيه كل جزء بالحكم الذاتى ويمد بالتجربة والخطأ قبل أن تمنح البلاد جميعاً استقلالها عام ١٩٦٠ أما أكبر مشكلات سيراليون وغامبيا فهى أنها صغيرة المساحة وفقيرة الموارد جداً . ومن المشكوك فيه إذا كانت الحكومة البريطانية قد قدرت الأثر البالغ لسياستها الجديدة فى أجزاء إفريقية المدارية الأخرى . إلا أن أهم الآثار المباشرة لتلك السياسة انعكست على إفريقية الفرنسية فإذا كان الإفريقيون الغربيون قد أصبحوا أهلا للاستقلال ولحكم أنفسهم بأنفسهم فليس هناك ما يمنع من أن ينطبق نفس الشيء على جيرانهم الذين تحت الحكم الفرنسى فبدأت آمال الوطنيين فى التغير كما بدأ فرنسا أيضاً فى التغير كذلك إلا أن تغير الأولى كان أسرع من تغير الثانية وبرغم أن حزب التجمع الإفريقى الديمقراطى كان قد بدأ فى استعادة مكانته بعد أن أصيبت بنكسة بسبب خططه السابقة كما بدأ فى وضع خطط سياسة جديدة للتقدم عن طريق التفاهم مع الفرنسيين إلا أنه أصبح يواجه منافسة الأحزاب الوطنية فى كثير من الأقاليم وبذلك نشط هوفويه بوانييه عندما أصبح وزيراً فى الحكومة الفرنسية الاشتراكية عام ١٩٥٦ فى وضع مشروع قانون الكادر الذى منح الحكومة الفرنسية السلطة فى منح كل مستعمرة فرنسية درجة من درجات الحكم الذاتى وبذلك بدأت

الاجتماعات والمجالس المحلية تتمتع بكثير من السلطات التى كانت فى يد الفرنسيين فى باريس وداكار وبرازافيل .

غير أن هوفيه بوانييه وقانون الكادر تعرضا لكثير من النقد من قبل الوطنيين الذين شعروا أن إفريقية الفرنسية قد تفتت إلى عدد كبير من الوحدات الصغيرة ذات الاستقلال الذاتى بحيث لا تستطيع أن تستقل حقيقة عن السيطرة الفرنسية وبدأ سيكوتورى وهو من سلالة الساموري الغانية وزعيم قوى من زعماء اتحادات العمال فى إفريقية الفرنسية فى المطالبة بتكوين اتحادات بين الأقاليم والوقوف بصلابة فى وجه فرنسا والمطالبة بالاستقلال وقد عبر عن آرائه هذه من داخل حزب التجمع الإفريقى ونادى سنجور أيضاً بنفس الآراء فى السنغال وهى الإقليم الوحيد الذى لم يكن حزب التجمع الإفريقى الديمقراطى قوياً فيه والذى وصل فيه حزب سنجور الكتلة الشعبية السنغالية إلى السلطة بعد تطبيق قانون الكادر .

وجاءت الخطوة التالية من قبل الفرنسيين فعندما أتت تطورات الحوادث الجزائرية بالجنرال ديجول إلى الحكم . أراد أن يمتطى موجة المد الجديدة فأعطى الإفريقيين السود الخيار بين الاستقلال التام أو الحكم الذاتى فى جمهوريات منفصلة داخل « المجموعة » الفرنسية التى تحتفظ بالسياسة الخارجية والدفاع وعدد آخر من المسائل وقد ظهر أن هذه الحركة قد كللت بالنجاح لأن نتيجة الاستفتاء الذى تم فى الممتلكات الإفريقية الفرنسية صوتت كل الممتلكات فيما عدا غينيا حيث نفوذ سيكوتورى القوى إلى جانب البقاء فى المجموعة الفرنسية والاستقلال الذاتى ، غير أن سلوك غينيا قد أدى إلى تحطيم المجموعة من الداخل كما تنبأ ديجول . ففى عام ١٩٥٩ طلبت السنغال والسودان الفرنسى الاستقلال التام داخل المجموعة وتكوين اتحاد مالى . وعندما حصل هذا الاتحاد على استقلاله هذا شعرت الأجزاء الأخرى الداخلة فى نفوذ هوفويه بوانييه — وهى ساحل العاج والنيجر وداهومى وفولتا العليا بأنها لا بد وأن تصحح وضعها . وفى نهاية ١٩٦٠ أصبحت جميع المستعمرات الفرنسية السابقة التى تكون

غرب إفريقية وإفريقية الاستوائية الفرنسية قد حصلت على استقلالها القانونى .

عندما أعلنت غينيا استقلالها انسحبت الإدارة الفرنسية كلها فى الحال وتوقفت كل المساعدات المالية والاقتصادية الفرنسية، ولذلك اضطرت غينيا إلى الاستعانة بالمعسكر الشيوعى لمعاونتها فلجأت إلى الاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا والصين وألمانيا الشرقية غير أن العون الثورى التلقائى جاء من نكروما الذى شكل نوعاً من الاتحاد بين غانا وغينيا وأصبح واضحاً أن نكروما اعتبر استقلال غينيا وسيلة لهدف أكبر هو تحرير إفريقية كلها من الاستعمار وتحقيق أكبر قدر من الوحدة بين الشعوب الإفريقية . وجعل هذا الهدف نصب عينيه، لم يستطع أن تحمل أى خلافات داخلية فى غانا وجعل منها جمهورية موحدة تحت سلطان حزبه الكامل يسيطر عليها شخصاً رئيساً للجمهورية (عام ١٩٦٠) وأصبحت جهود الدولة كلها ومواردها موجهة لمحاربة الاستعمار وللوحدة الإفريقية . وقد شهدت أكرا عام ١٩٥٨ أول مؤتمر من نوعه بين حكومات الدول الإفريقية(١) المستقلة . كما كانت مسرحاً أيضاً لأول مؤتمر للشعوب الإفريقية حضره ممثلو الحركات الوطنية لثمانية وعشرين إقليما ، الكثير منها لا يزال تحت الحكم الاستعمارى .

ومن هذا المؤتمر الأخير انبعثت منظمة دائمة لتشجع وتدرب وتعاون الوطنيين فى الأراضى المستعمرة ، ولم تكن ثمة ضرورة لهذا فى شرق إفريقية البريطانى لأن الحكومة البريطانية كانت قد أدركت اتجاه الرياح الجديد وقبلت الاستقلال التام هدفاً نهائياً لهذه المستعمرات برغم أن وجود الأقليات الأوروبية الآسيوية وانعدام الوحدة بين الإفريقين فى أوغندا وكينيا كان معوقاً دون الوصول إلى هذا الهدف . وقد أدرك جوليوس نيريرى بثاقب حكمه وحنكته السياسية ما يجب أن يفعله عن طريق التعاون العنصرى فى تنجانيقا . وبذلك

---

(١) مصر والحبشة وغانا وغينيا وليبيريا وليبيا والمغرب والسودان وتونس وقد وجهت الدعوة لجنوب إفريقية أيضاً ولكنها رفضت الاشتراك فى المؤتمر ما لم تدع الحكومات الأوروبية التى تحكم المستعمرات أيضاً .

أصبحت بلاده رائدة حركة اتحادية بين حكومات إفريقية المستقلة فى شرقها ووسطها . وكانت يد بريطانيا مغلولة فى وسط إفريقية بسبب وجود اتحاد روديسيا ونياسالاند وبسبب نشاط المتوطنين الأوروبيين بين أروقة الحكومة للإبقاء على الاتحاد تحت سيطرتهم كما أن روديسيا الجنوبية كانت بعيدة المنال، ولذلك لم تكن هناك سوى نياسالاند التى يمكن أن تنتقل فيها مقاليد الحكومة إلى يد الإفريقيين وقد صمم هؤلاء على الانفصال عن الاتحاد واتجهت نحو شرق إفريقية وصمم المتوطنون الأوروبيون بتأييد من بنى جلدتهم فى روديسيا الجنوبية على الاحتفاظ بحق الاتحاد تحت السيطرة البيضاء .

وكان ضغط الحركة الإفريقية الواحدة أشد ما يكون فى الأقطار التى لا تزال تحت الحكم الأوروبى الغاشم فكان تشجيعاً كبيراً لمقاومة الإفريقيين فى جنوب إفريقية ولا سيا بعد استقلال الكونغو ومنحت آمالا جديدة للإفريقيين الذين حسبوا أن الخرافة البرتغالية القائلة بأنها لا تمتلك مستعمرات، بل أجزاء من البرتغال عبر البحار تقف عقبة كئوداً دون حصولهم على حريتهم ولقد كانت الكونغو هى التى منحت الحركة الإفريقية الواحدة انتصارها العظيم ووضعتها أمام امتحان عظيم أيضاً ، فلقد كان الذهن البلجيكى بطيئاً فى هضم فكرة التخلص عن المستعمرات إذ أن الحكام البلجيكيين كانوا قد اتبعوا سياسة جامدة تعتبرهم أوصياء على الإفريقيين ورغم أن هذه السياسة كانت مستنيرة فى نواحى تقدم الإفريقيين الاقتصادى إلا أنها لم تسمح قط بوجود أى مجال سياسى للإفريقيين (أو للمتوطنين البلجيكيين فى الكونغو) إلا أنهم اضطروا سنة ١٩٥٥ إلى ملاحظة ما يجرى فى بقية أنحاء إفريقية وخصوصاً فى المستعمرات الفرنسية المجاورة على حدود الكونغو الأسفل وفى أوبانجى وكان تقدمهم البطىء فى هذا الاتجاه قد سمح بتكوين عدد من الجماعات السياسية الإفريقية، غير أن هذه الجماعات السياسية تكونت على أسس إقليمية أو قبلية بسبب اتساع الكونغو الشايع وقلة عدد الإفريقين للذين تلقوا أى تعليم أو اتصلوا أى اتصال بالأوروبيين أو قاموا بأى عمل يحملهم أى مسئولية .

غير أن سير الحوادث ما لبث أن اكتسح الحكومة البلجيكية أمامه . ففى عام ١٩٥٨ ذهب بياتريس لومومبا وهو الزعيم الكونغوى الوحيد الذى يستطيع أن يزعم بأن له أتباعاً خارج نطاقه المحلى إلى أكرا ليحضر مؤتمر الشعوب الإفريقية وقد نال اعتراف المؤتمر بخطته الأساسية لمشكلة الكونغو وهى السعى لاستقلال الكونغو ووحدة أراضيه ومن ثم أصبح لومومبا زعيماً للوطنية الكونغوية وكان عام ١٩٥٩ اضطرابات عامة فى الكونغو فانتهى البلجيكيون عام ١٩٦٠ إلى أن أفضل فرصة للمحافظة على مصالحهم الاقتصادية الكبرى فى الكونغو هى إجراء انتخابات عامة ومنح البلاد استقلالها .

وأصبح لومومبا رئيساً للوزراء غير أن حكومته كانت تعتمد على تأييد السياسيين البرلمانى، وهؤلاء يعتنقون آراء مختلفة عن آرائه كما أنه لم يستطع الاستمرار فى الحكم بدون مساعدة الموظفين البلجيكيين والجيش الذى يقوده بلجيكيون . وعندما تمرد الجنود الإفريقيون على ضباطهم البلجيكيين تحطم الجهاز الحكومى كله . ونشب القتال بين القبائل التى أرادت تصفية حساباتها القديمة وأعلنت كاتانجا — التى كان يهيمن عليها تحالف غير مقدس بين السياسيين الإفريقيين المحليين وبين مصالح البلجيكيين — استقلالها واستخدمت بلجيكا القوة لحماية مواطنيها ومصالحها . وقد نجحت الدول الإفريقية فى أول الأمر فى إصرارها على وجوب إعادة النظام بوساطة جيوشها التى تعمل تحت علم الأمم المتحدة . ولكنها بدأت تختلف فيما بينها على مدى التدخل فى شئون دولة إفريقية شقيقة . فتمسكت مجموعة تشمل غانا وغينيا ومصر بمبدأ الوحدة الإفريقية وهو أن حكومة لومومبا هى الحكومة الشرعية الوحيدة فى الكونغو وعندما اغتيل لومومبا فى كاتانجا وجهت هذه المجموعة نقداً مراً لسلوك الأمم المتحدة فى الكونغو وركنت دول إفريقية أخرى مثل تونس ونيجيريا والسودان إلى المهادنة وطالبت باتحاد الأطراف المتنازعة فى الكنغو التى تستطيع أن تحصل على أغلبية فى المؤتمر الوطنى والتى يمكن أن تصل إلى وفاق دستورى بين مطالب أتباع لومومبا الوحدوية واتجاهات زعماء الكونغو الاتحادية . وقد زاد

الأمر تعقيداً عام ١٩٦٠ حصول كثير من الممتلكات الفرنسية السابقة على استقلالها ولما كانت هذه الدول الجديدة أكثر التصاقاً بحكم الجوار بالكونغو وأكثر اتصالا بآراء الغرب من الدول الإفريقية المستقلة الأخرى فإنها رأت أن كلا من أتباع الوحدة الإفريقية وهيئة الأمم المتحدة قد تدخلوا أكثر مما ينبغى فى شئون يجب أن تترك للكونغويين أنفسهم أمر حلها .

وكانت النتيجة النهائية لأزمة الكونغو عام ١٩٦٠ – ١٩٦١ أنها أماطت اللثام عن مدى الخلاف بين الإفريقيين حول مفهوم الاستقلال . وقد تأكد ذلك عام ١٩٦١ عندما عقد مؤتمران مختلفان للدول الإفريقية المشتغلة . أحدهما فى الدار البيضاء وآخر فى مونروفيا .

وكانت الدول الرائدة فى إفريقية السوداء تتكون من غينيا وغانا ومالى(١) ويعتقد زعماء هذه الدول، ويشاركهم فى ذلك زعماء المغرب والجمهورية العربية المتحدة، أن الصراع نحو تثبيت الاستقلال والشخصية الإفريقية بغض النظر عن الجزائر وإفريقية البرتغالية وجنوب إفريقية لم يبدأ بعد . فكثير من الدول بالغة الصغر بالغة الفقر بالغة الانقسام . وأن مأساة الكونغو واعتماد كثير من المستعمرات الإفريقية السابقة على المعونات المالية الفرنسية ليست سوى أمثلة واضحة لما أسمته بالاستعمار الجديد . وكان ردهم على هذا هو السر فى سياسة الوحدة الإفريقية التى ترمى إلى تكوين وحدات سياسية أكبر وفى النهاية إلى تكوين ولايات إفريقية المتحدة من القوة بحيث تستطيع أن تقف على قدميها وحدها أو من القوة بحيث تطلب المعونات الأجنبية غير المشروطة عن طريق مقدرتها على التفاوض حيادياً مع الشرق والغرب .

أما مجموعة مونروفيا فكانت أكثر حذراً . فبينما هى ترى ضرورة التعاون الإفريقى إلا أنها أرادت أن تبدأ بحل مشكلاتها الداخلية أولا ، ولذلك فقد رأى

---

(١) مالى الجديدة هى السودان الفرنسى السابق الذى وجد أن اتحاده بالسنغال ذى الاقتصاد الأقوى والأكثر ارتباطاً بفرنسا سيودى باستقلاله . ولذلك انفصل عن السنغال وأصبح أكثر ارتباطاً باتحاد غانا وغينيا .

عدد كبير منها أنها لا تزال فى حاجة إلى التعاون مع الدول الأوروبية التى يعتمد اقتصادها عليها .

وكان الانقسام الأكبر بين الدول الإفريقية التى تنهج حكومتها نهج ثورة اجتماعية واقتصادية تستكمل بها ثورتها السياسية مثل مصر وغانا وغينيا وبين الدول التى يسيطر عليها نخبة من الطبقة المتوسطة التى ترعرعت فى أحضان الاستعمار ففى معظم الدول الحديثة الاستقلال قفزت هذه النخبة بسهولة تامة إلى مقاعد الحكم التى كان يتربع عليها الحكام الاستعماريون، وبرغم فقر هذه الدول فإن هذه الطبقة المحترفة الجديدة تمسكت بمستوى معيشى وضع أصلا ليجتذب الموظفين المغتربين الأوروبيين عن العمل فى إفريقية المدارية فانتقل الحكام الجدد إلى منازل المستعمرين السابقين واستخدموا نفس خدمهم وركبوا نفس سياراتهم واستمرت الأمور فى القرى الإفريقية على ما كانت عليه برغم أن مفتش الإقليم قد أصبح أسود بعد أن كان أبيض .

وليس معنى هذا أن الرجل العادى فى القرية أو المدينة الصغيرة لم تستهوه السياسة ولم يحرك عواطفه تقدم بلاده نحو الاستقلال ، ورغم أن الجماهير الإفريقية لم تتضح أمامها الرؤية بعد نحو فرص التقدم المادى والاجتماعى ، فإنه مما لا شك فيه أن الطبقة الوسطى الإفريقية قد نجحت نجاحاً كبيراً فى تجميع السكان الإفريقيين وسوقهم نحو صناديق الانتخاب ، بل وفى إثارة اهتمامهم بالوحدة الإفريقية .

ولا تزال العصبيات القبلية — داخل أى قطر إفريقى — هى العقبة الكبرى نحو تكوين روح وطنية على المثال الغربى غير أن روح الوحدة — على النطاق القارى — تنمو بسرعة وهى فى تنجانيقا والسنغال لا تقل عنها فى غانا أو غينيا وقد لا تصل إلى الوحدة قط ولكنها وصلت إلى روح الجماعة الإفريقية بشكل لم يحدث له مثيل فى أوروبا أو آسيا . فهى جماعة ترتبط بلا شك برابطة اللون ، برغم أن زعماءها كانوا من بين أشد أعداءالتعصب العنصرى وهى جماعة تكونت من آلام الاستعمار المشتركة . وهى أشد ارتباطاً بعضها بالبعض الآخر

بسبب التعصب العنصرى والسيطرة البيضاء فى طرف القارة الجنوبى . وتلك – يالسخرية القدر – نتيجة سياسة التفرقة العنصرية .

روح الجماعة الإفريقية أكثر عمقاً من الارتباط الوقتى بأوروبا ، وأكثر عمقاً من آلام الإفريقيين التى ذاقوها على يد العالم الخارجى ، فقبل أن يكتشف العرب أو البرتغاليون سواحل القارة كانت خطوط المواصلات الإفريقية داخلية فحسب . وقد كانت العوامل الأساسية التى تجمع الإفريقيين وتخلق الروح الإفريقية تعبر هذه الخطوط الداخلية .

اقتراحات بكتب فى الموضوع

الفصول الأربعة الأولى :

على القارئ العام الذى يريد أن يتعمق فى تاريخ إفريقية ، أن يعمق معلوماته عن الشعوب الإفريقية وبيئاتها الجغرافية وثقافاتها ولغاتها ونظمها الاجتماعية ، وأحسن دليل مختصر بالانجليزية عن ذلك هو سلالات إفريقية للأستاذ س . ج . سليجمان الطبعة الثالثة ١٩٥٧ (وهو مترجم إلى العربية) ولمن يقرأ الألمانية أو الفرنسية أن يرجع إلى كتاب الشعوب والحضارات الإفريقية لمؤلفيه بومان ووسترمان وهو فى الأصل بالألمانية ثم ترجم إلى الفرنسية

Baumann and D. Westermann :
Volkerkunde Afrikas; Les Peuples et Les Civilisations de l'Afrique, 1948.

وأحسن دليل لعصر ما قبل التاريخ الإفريقى فى كتب نشرتها بليكان هى

J. Desmond Clark, The Prehistory of Southern Africa, 1959; C.B.M. McBurney, The Stone Age of Northern Africa, 1960; Sonia Cole, The Prehistory of East Africa, 1954.

وهناك كتاب عام عن إفريقية ما قبل التاريخ مترجم إلى الانجليزية عام ١٩٥٧ .

H. Alimen, Préhistoire de l'Afrique, 1955.

أما عن الثورة الزراعية فيمكن الرجوع إلى

V. Gordon Childe, New Light on the Most Ancient East, 1954.
C.C. Wrigley, Speculation on the Economic Prehistory of Africa, Jour. of African History, Vol. I, 1960, pp. 189-204.

وعدد خاص من هذه المجلة عام ١٩٦٢ الجزء الثانى وهو يشتمل على عدد من المقالات الهامة ولا سيما عن إدخال بعض المحاصيل الغذائية فى القارة ، تقدم بها أصحابها أساساً إلى المؤتمر الثالث عن تاريخ إفريقية وآثارها عام ١٩٦١ .

ويجب أن تقرأ بحذر كتاب مردوك الدافع إلى التفكير ، ولكنه لا يوثق به دائماً

G.P. Murdock, Africa, its Peoples and their Culture History, 1959.

أما مقالات جرينبرج فهى فى غاية الأهمية وقد نشرها فى

Studies in African Linguistic Classification, 1955.

أما عن نشأة الملكية والنظام السياسي في مصر فاقرأ
W.B. Emery's Archaic Egypt. Penguin, 1961.

ويجب أن يقارن بكتاب تشايلد المشار إليه . فهو مثل بترى من قبله يعتقد في وجود سلالة حاكمة ، بينما يرفض تشايلد هذا الرأى . وأما عن تعمير المصريين لوادى النيل جنوباً وظهور مملكة كوش فاقرأ كتــاب A.J. Arkell: History of the Sudan to 1821, 1955. وهو كتاب ممتاز . أما عن أثيوبيا في العصر الاكسومى فأحسن مرجع هو A. Krammerer, Essai sur l'histoire antique d'Abyssinie, 1926. ويمكن أن يجد القارئ العام ملخصاً مختصراً ممتازاً لنتائج الآثار في كتاب بازيل دافيدسون Davidson, Old Africa Rediscovered, 1959. (وهو مترجم إلى العربية)

الفصل من ٥ إلى ٧ :

للقارئ المهتم بتاريخ شمال إفريقية القديم أن يحسن بالبدء بكتاب هيرودوت وهناك ترجمة إنجليزية في كتب بنجوين بقلم Aubrey de Selincourt,

وأما أحسن كتاب بالانجليزية في تاريخ المغرب القديم فهو

B.H. Warmington, Carthage, 1960.

وكتاب جوليان الفرنسى مفيــد C.A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Vol. 1, 1951. ويمتاز بوجود قائمة مراجع جيدة .

H. Idris Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest, 1948. يعطى مقدمة جيدة للموضوع .

B.H. Warmington, The North African Provinces, 1951.

دراسة عن الاستعمار الرومانى لإفريقية . أما عن المسيحية في شمال إفريقية فاقرأ

C.P. Grovee, The Planting of Christianity in Africa, Vol. 1, 1948; W.H.C. Frend's, The Donatist Church, 1952.

وهو كتاب أساسى في الموضوع .

أما عن الفتح العربى ، فيحسن البدء بكتاب جب عن الإسلام

H.A.R. Gibb, Muhammadanism, 1949; Bernard Lewis, The Arabs in History, 1950; P.K. Hitti History of the Arabs, 1946; C. Brocklemann, History of Islamic Peoples, 1949.

(الكتابان الأخيران مترجمان إلى العربية)

E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, Les Siècles Obscurs, 2nd ed., 1952.

كتاب هام يبين التغيرات التى حدثت في بلاد المغرب بين الفتح العربى والهجرات الهلالية ، والمجلد الثانى من كتاب جوليان مفيد وبه قائمة مراجع جيدة .

E. Lane Poole, A History of Egypt in The Middle Ages, 2nd edit., 1914.

لا يزال كتاباً مفيداً .

كتاب ابن خلدون ، تاريخ البربر . . الخ . والمقدمة المشهورة وقد ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية . كما ترجم جب رحلات ابن بطوطة .

E.F. Gautier, The Sahara, English trans., 1955.

L. Cabot Briggs, Tribes of The Sahara, 1960.

أما عن مسألة عبور الصحراء فى زمن مبكر فاقرأ

Sir Mortimer Wheeler, Rome Beyond the Imperial Frontiers, Penguin, 1954.

J.D. Fage, Ghana, A Historical Interpretation, 1959; E.W. Bovill, Caravans of The Old Sahara, 1933 and The Golden Trade of The Moors, 1958.

وهذا الأخير يعتبر أحسن مقدمة بالإنجليزية لتاريخ السودان الغربي .

M. Delafosse, Haut-Sénégal-Niger, 1912.

ولخص فى Negroes of Africa عام ١٩٣١ بقلم نفس المؤلف .

Y. Urvoy, Histoire des populations du Soudan Central, 1936, and Histoire de l'empire du Bornou, 1949.

Jean Rouch, Contribution à l'Histoire des Songhay, 1953.

Sir H.R. Palmer, Sudanese Memoirs, 1928.

الفصول من ٨ إلى ١١ :

أحسن كتاب عن تاريخ شرق إفريقية قبل الاستعمار هو

History of East Africa, Vol. I, ed. Roland Oliver and Gervase Mathew, Oxf. and Clarendon, 1962.

R. Coupland, East Africa and Its Invaders, 1938.

Justus Strandes, Die Portugiesenzeit von Deutech- und Britisch-ostafrika, Berlin, 1890.

وقد كتب أخيراً إلى الانجليزية بعنوان

The Portuguese in East Africa, East African Lit. Bureau, Nairobi, 1961.

أحسن كتاب فى تاريخ أثيوبيا هو

A.H.M. Jones and E. Monroe, A History of Abyssinia, 1935.

ثم أصبح اسمه A History of Ethiopia رغم أنه لم يراجع لسوء الحظ .

J. Spencer Trimingham, Islam in Ethiopia, 1953.

ويشمل تاريخ الولايات الاسلامية فى شرق وجنوب مملكة المسيحيين .

E.A. Wallace Budge, History of Ethiopia, 1928.
E. Ullendorff, The Ethiopians, 1960.

رغم أنه ليس كتاب تاريخ ، إلا أنه يشتمل على قائمة مراجع حديثة .

أما عن إفريقية الشمالية والسودان الغربى خلال هذه الفترة ، فانظر كتب جوليان ، وبوفيل ، وبلاتوس ولين بول ، ارفوى ، روش وفيج التى ذكرت من قبل . وأضف إليها بالنسبة لشمال إفريقية

H. Terrasse, Histoire du Maroc, 1949–50 and Lane–Poole, The Barbary Corsairs, 1890.

وهو عن الأويو

S. Johnson, The History of The Yorubas, reprinted, 1956.

عن تاريخ بنين

Jacob Egharevba, A History of Benin, 3rd edit., 1960.
R.E. Bradbury, The Benin Kingdom, 1957. وأيضاً

A. Le Hérissé, L'Ancien Royaume de Dahomey, 1911 and M.J. Herskovits, Dahomey, 1938; Eva L.R. Meyerowitz, Akan Traditions of Origin, 1952.

وهذا الكتاب مدهش ولكن تجب قراءته بشيء من الحذر

Ivor Wilks, The Northern Factor in Ashanti History, 1961.

ويتحدث عن علاقات غينيا بالسودان بينما كتاب

Thomas Hodgkin, Nigerian Perspectives, 1960.

دراسة ممتازة لتاريخ نيجيريا من المصادر الأصلية .

J.H. Parry, Europe and a Wider World, 1949.

يتحدث عن بدء مغامرات أوروبا وراء البحار بينما سير تلك الرحلات وآثارها فى كتاب

J.D. Fage, An Introduction to the History of West Africa, 1962.

ويحتوى هذا الكتاب على قائمة مراجع

J.W. Blake, Europeans in West Africa, 1450–1560.
H.A. Wyndham, The Atlantic and Slavery, 1935.
Bryan Edwards, History of the West Indies, 4th edit., 1807.

يتحدث عن تجارة الرقيق فى وقت ممارسته

James Duffy, Portugese Africa, 1954.

أحسن تقرير قصير عن نشاط البرتغال فى الكونغو وأنجولا وموزمبيق (ترجم إلى العربية)

Eric Axelson, South-East Africa, 1488-1530, 1940, and The Portugese in South-East Africa, 1600-1700, 1960.
A. Ihle, Das alte Königreich Kongo, Leipzig, 1929.
J. Cuvilier and L. Jadin, L'Ancien Congo, 1518-1630, Brussels, 1954.
E. Verhulpen, Baluba et Balubaisés, Antwerp, 1936.
I. Cunnison, The Luapula Peoples of Northern Rhodesia, 1959; G. Caton-Thompson, The Zimbabwe Culture, 1935.
H.A. Wieschoff, The Zimbabwe-Monomatapa Culture, 1941.

ومقالات

Roger Summers, and D.P. Abraham, in the Journal of African History, Vol. II, 1961, pp. 1-14, 24—26.

أما عن جنوب إفريقية فهناك عدد من الكتب المعقدة الرئيسية وخصوصاً

E.A. Walker, A History of Southern Africa, 3rd. Edit., 1957.

عن تاريخ البانتو انظر مقال :

Monica Wilson, "Early History of the Transkei : and Ciskei", African Studies, Vol. 18, pp. 167-79.

الفصول من ١٢ إلى ١٥ :

اختلاف نظرة أوروبا لإفريقية ، جزء من التاريخ الأوروبي كما هي جزء من التاريخ الإفريقي

R. Coupland, Wilberforce, 1923; The British Anti-Slavery Movement, 1923; Kirk on the Zambezi, 1928. (المقدمة)
Eric Williams, Capitalism and Slavery, 1944.
C.P. Groves, The Planting of Christianity in Africa, Vol. I, (1948) to 1848, Vol. II, (1954) 1840-78, Vol. III, (1955) 1878-1914.
M. Perham and J. Simmons, African Discovery, 1942.
J. Simmons, Livingstone and Africa, 1955.
Livingstone, Missionary Travels and Researches in South Africa, 1857; I. Schapera, Missionary Correspondence, 1961.

عن مصر القرن التاسع عشر اقرأ :

H.H. Dodwell, The Founder of Modern Egypt: Muhammad Ali, 1931.
John Marlowe, Anglo-Egyptian Relations, 1800-1953, 1954.

عن شمال إفريقية اقرأ "Initiations" وهو مجلد واحد يضم عدة مقالات نشرها Adrian Maisonneuve في باريس – ويحتوي على قائمة مراجع مفيدة .

S.H. Roberts, A History of French Colonial Policy, 1929.

Goe Hanotaux and A. Martinean, Histoire des colonies françaises, 1931. The Cambridge History of the British Empire, Vol. II (1787–1870), 1940.

W.E.F. Ward, A History of Ghana, 2nd. edit., 1958 ; K. Onwuka Dike, Trade and Politics in the Niger Delta, 1830–85, 1957.

S.O. Biobaku, The Egba and their Neighbours, 1842, 72, 1957.

C.W. Wewbury, The Western Slave Coast and its Rulers, 1961.

وفى هذه المجموعة كتابان بقلم مؤرخين نيجيريين كبيرين .

عن إفريقية الجنوبية فى هذه الفترة اقرأ من الكتب الكثيرة فى هذا الموضوع

C.W. de Kiewiet, A History of South Africa; Social and Economic, 1941.

Eric A. Walker, The Great Trek, 1934; E.A. Ritter, Shaker Zulu, 1955 ; W.M. Macmillan, Bantu, Boer and Briton, 1929; C.W. de Kieweit, The Imperial Factor in South Africa, 1937.

وكتاب كوبلاند عن شرق إفريقية الذى سبقت الإشارة إليه وأيضاً

R. Coupland, The Expolitation of East Africa, 1856–90, 1939. The History of East Africa, Vol. I, ed. Roland Oliver and Gervase Mathew, 1962.

وبه ثلاث مقالات رئيسية لجراى واليسون سميث واو عن الفترة بين ١٨٤٠ – ١٨٨٤ وهو يعالج تاريخ الإفريقيين والعرب فى شرق إفريقية بعمق أكثر من معالجة كوبلاند .

وعن الشعوب النيلية اقرأ :

P.M. Holt, A Modern History of The Sudan, 1961.

Richard Hill, Egypt in The Sudan, 1820–1881.

J.R. Gray, A History of The Southern Sudan, 1839–89.

وليس هناك كتاب تاريخ جيد لأثيوبيا فى القرن التاسع عشر .

الفصل ١٦ :

ليس هناك كتاب واحد به دراسة كافية عن تقسيم إفريقية وأقرب دراسة لذلك هى :

Ronald Davidson and John Ghallager, Africa and The Victorians, 1961.

ولكنه ضعيف فيما يتعلق بالدبلوماسية الدولية لدول أوربا ولذلك يحسن استكماله بقراءة :

W.L. Langer, The Diplomacy of Imperialism, 7nd edit., 1951 ; European Alliances and Alignements, 1871–1890, and 2nd. ed., 1950.

F.H. Hinsley, and R.E. Robinson, Camb. History of the British Empire, Vol. III, 1959. (مقالات فى الموضوع)

ويمكن فهم التكالب على إفريقية من مذكرات المعاصرين

Basil Williams, Cecil Rhodes, 1921 ; Margery Perham, Lugard, 1956, 1960. J.E. Flint, Sir George Goldie, 1960. Roland Oliver, Sir Harry Johnston and the Scramble for Africa, 1957.

أحسن كتاب عن أسباب حرب جنوب إفريقية هو

J.S. Marais, The Fall of Kruger's Republic, 1961.

وعن نتائجها السياسية المباشرة ، كتاب من الدرجة الأولى هو :

L.M. Thompson, The Unification of South Africa, 1902-10, 1960.

الفصول من ١٧ إلى ١٩ :

القارئ الذى يريد أن يكون فكرة متكاملة عن النشاط الأوروبى فى إفريقية جنوبى الصحراء ، خلال العهد الاستعمارى ، عليه أن يقارن طبعات كتاب لورد هيلى المشهور African Survey عام ١٩٣٨ (وأعيد طبعه ١٩٤٥) وعام ١٩٥٧ .

وكتـــاب S.H. Frankel, Capital Investment in Africa, 1938.

دراسة خاصة متعلقة بكتاب لورد هيلى .

أما كتاب . R.L. Buell, The Native Problem in Africa, 1926.

فرغم أنه قديم إلا أنه مكتوب كتابة جيدة ويتعلق بالحكومات الاستعمارية

W.K. Hucock, A Survey of British Commonwealth Affairs, Vol. II, Part 2, 1942. Subtitled, "Problems of Economic Policy", 1918-39.

تحليل بارع للمشكلة الناشئة من توسع المتوطنين الأوروبيين فى جنوبى إفريقية والمؤلف فى ذلك

Argument of Empire, Penguin Special, 1943.

وهو كتاب نادر الحصول عليه الآن

Wealth of Colonies, 1950.

ومن الغريب أنه ليس هناك الآن تاريخ قيم لأى إقليم واحد أثناء العصر الاستعمارى . وأحسن إقليمين خدما فى هذه الناحية هما روديسيا ونياسالاند وهذا يشمل :

Philip Mason, The Birth of a Dilemma, 1958; Richard Gray, The Two Nations, 1960 ; Colin Leys, European Politics in Southern Rhodesia, 1958; L.H. Gann, The Birth of a Plural Society, 1958; and George Shapperson and Thomas Price, Independent, Africa, 1958.

عن شرق إفريقية هناك

Elspeth Huxley, White Man's Country (The Life and Times of Lord Delamere), 1953. The Making of Modern Uganda, by

Kenneth Ingham, 1958 ; Roland Oliver, The Missionary Factor in East Africa, 1952. The History of East Africa, Vol. II, edit. Vincent Harlow and E.M. Chilver, 1963 and Vol. III, ed. by Margery Perham and R.E. Robinson in 1964.

R. Delavignette, Service Africaine, 1946 (Freedom and Authority in French West Africa).

وهو مناقشة ممتازة للسياسة الاستعمارية الغربية بين الحربين ولكن على القارئ الذى يريد تفاصيل عن الأقاليم الغربية المختلفة أن يرجع إلى Encyclopédie de l'Empire Française. الذى نشر فى باريس فى أواخر الأربعينات .

Ruth Slade, King Leopold's Congo, 1960.

عن غرب إفريقية اقرأ

David Kimble, The Rise of Nationalism on The Gold Coast, 1850–1928, 1982.

F.M. Bourret, Ghana, 1919–57, 1962 ; Roy Lewis, Sierra Leone ; and Michael Crowder. The Story of Nigeria, 1982.

كتاب مفيد .

الفصول من ٢٠ إلى ٢١ :

المكتبة الإفريقية المعاصرة المتضخمة تحتوى على كثير مما يمتاز بقصر العمر والمدى . إلا أن.
Ronald Segal, Political Africa, 1961 and Africa. A Handbook to the Continent by Colin Legum, 1951.

سيظلان مفيدين مدة طويلة

V. Thompson and R. Adloff, French West Africa, 1958; The Emerging States of French Equatorial Africa, 1960.

موسوعتان عن هذه المناطق من عهد مؤتمر برازافيل حتى تاريخ النشر .

Nevill Berhout, A Survey of North-West Africa, 1959, and John Marlowe, Arab Nationalism and British Imperialism, 1961.

مهمان بالنسبة لشمال إفريقية المعاصرة .

Thomas Hodgkin, African Political Parties, Penguin, 1961 and Nationalism in Colonial Africa, 1956.

كتابان ممتازان فى موضوعهما .

George Padmore, Pan-Africanism or Communism, 1956 and Kwame Nkrumah, Ghana.

وثيقتان ضروريتان

وكذلك أيضاً – وإن كان من ناحية مختلفة – التقارير الرسمية

Report of the (Watson) Commission of Enquiry into Disturbances in the Gold Coast, Col. No. 231 of 1948. David E. Aptex, The Gold Coast in Transition, 1955, and The Political Kingdom in Uganda, 1961.

دراستان هامتان معاصرتان بقلم عالم اجتماع .

J.S. Coleman, Nigeria : A Background to Nationalism, 1958.

Colin Legum, Congo Disaster, 1961 (Penguin Special) and Susan Wood, Kenya: the Tensions of Progress, 1960, and Ruth Slade, The Belgian Congo.

دراسات قصيرة قيمة .

The East Royal Commission Report, 1953–55, Cmd., 9475 of 1955.

أساسي للدراسات الاقتصادية والاجتماعية ولفهم مشاكل شرق إفريقية البريطاني الحالية .

ولقد أدت التطورات الأخيرة في شرق إفريقية إلى ظهور عدة كتب مثل :

A New Deal in Central Africa, edit. Colin Reys and Croaford Pratt, 1960; Philip Mason, Year of Decision: Rhodesia and Nyassaland in 1960, 1960.

Report of the Advisory (Monckton) Commission on the review of the Constitution of Rhodesia and Nyassaland, Cmd. 1148– of 1960. Arthur Hazelwood and P.P. Henderson, Nyassaland: The Economics of Federation, 1900.

أحسن دراسة لمشاكل جنوب إفريقية المعاصرة هي :

South Africa: two views of separate development, by S. Pienaar and Anthony Sampson, 1960.

ومن يريد أن يتعمق الموضوع عليه أن يقرأ :

Edward Roux, Time Longer Than Rope, 1948.

Gwendolen M. Carter, The Politics of Inequality, 1958.

الفهرس

الصفحة

فهرس الخرائط

يونيــة ١٩٦٥

٣٥ م

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ ص.ت ٩٣٤١١

